

أهل الزمّة في مصر

في العصر الفاطمي الأول

تأليف

د. سلام شافعي محمود

أهدأعت ٢٠٠٢

أ.د/عبد العظيم رمضان

د. القاهرة



رئيس مجلس الإدارة
د. سمير سرحان

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

الاخراج الفني : مراد نسيم

أهل الذمّة في مصر في العصر الفاطمي الأول

تأليف
د. سلام شافعي محمود



دار المعرفة العامة للكتاب

١٩٩٥

تقديم

احتل تاريخ مصر الاجتماعي في الفترة الأخيرة مركز الاهتمام الأول بين المؤرخين وطلبة الدراسات العليا في التاريخ ، ولم يقتصر ذلك على عصر دون عصر ، بل شمل جميع العصور . وقد ظهر في هذه السلسلة وحدها عدد كبير من الدراسات الاجتماعية على امتداد تاريخ مصر ، مثل : الأقباط في مصر في العصر العثماني ، والمجتمع الريفي في عصر محمد علي ، ومصر الإسلامية وأهل النخبة ، والمرأة في العصر الفاطمي ، وأهل النخبة في الإسلام .

وما هو بين يدي القارئ الكريم كتاب جديد عن أهل النخبة في مصر في العصر الفاطمي الأول . ألفه أستاذ جامعي متخصص هو الدكتور سلام شافعي محمود ، يتناول تاريخ النصارى واليهود في مصر في عصر لعبوا فيه دورا هاما في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وهو العصر الفاطمي الأول الذي امتد نحو قرن من الزمان (٣٥٨ - ٤٤٧ هـ / ٩٦٩ - ١٠٥٥ م) .

فبسبب انتساب الفاطميين إلى المذهب الشيعي وانتساب أهل مصر إلى المذهب السني ، وبعد الخلفاء الفاطميون الأوائل أنفسهم في محيط عدائي دفعهم إلى الاستمالة بالنصارى واليهود في الوظائف المالية والإدارية ، فكان منهم الوزراء ، والكتّاب ، وروساء الدواوين ، بل ارتبطوا مع بعض عائلاتهم برابطة المصاهرة . فعاش أهل النخبة - لذلك - في مصر في هذا العصر كطبقة متميزة تتمتع بإمكانة اجتماعية عالية ذات ثراء .

وقد تتبع هذا الكتاب الهام دور هذه الطبقة من أهل النخبة

فى الوظائف العامة والحياة العامة ، فتناول اداهم الوظيفى ، واحتفالاتهم ، وكنائسهم وأديرتهم ومعاييدهم ، ودورهم فى النشاط الزراعى والصناعى ، وحياتهم فى القرى والمدن المصرية ، ولقبتهم القبطية ولهجاتها ، وأسطورة تنصر المعز لدين الله الفاطمى . كما تناول علاقات الدولة الفاطمية بالدول المسيحية وأثرها على أهل الذمة ، والسفارات التى يتولى رئاستها كبار رجال الدولة من أهل النخبة . وأقرده فصلا لعلاقات الدولة الفاطمية ببلاد النوبة ، والصلة بين الكنيسة القبطية فى مصر والكنيسة النوبية ، واختتم الكتاب بفصل فى العلاقة بين مصر وبلاد الحبشة ، وبين الكنيسة القبطية وكنيسة الحبشة . ومدى تأثيرها بموقف الحلفاء الفاطميين من الأقباط ايجابيا وسلبيا .

وقد استنتج الدكتور سلام شافعى محمود الى عدد كبير من أوثق المصادر التى أضف بها ذلك العصر المتميز فى تاريخ مصر الاسلامية ، وهو العصر الفاطمى الأول .

(مقدمة البحث)

عاش أهل الذمة من اليهود والنصارى منذ الفتح العربى لمصر سنة ٢١ هـ/ ٦٤٢ م مع المسلمين فى ظل سياسة التسامح الدينى . وعلى الرغم من انتشار الاسلام بين أهل البلاد ، وتعمير الدواوين ، ولزوح بعض القبائل العربية الى مصر ، وسكنهم بالمدن والريف واختلاطهم بالمصريين على مدى الثلاثة قرون الأولى من الهجرة ، إلا أن نصارى مصر - فى العصر الفاطمى الأول ٢٥٨ - ٤٤٧ هـ/ ٩٦٩ - ١٠٥٥ م كانوا ما يزالون يشكلون أقلية غشبية كبيرة العدد تقدر بحوالى ثلث سكان مصر . كما أن يهودى مصر - فى هذه الفترة - كانوا يقدرون ببضعة آلاف .

ولذلك كان اختيارنا لموضوع « أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول » ، إنما يرجع الى أهمية الدور الذى لعبوه فى تاريخ مصر فى هذه الفترة فى كافة الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية . فقد استند الخلفاء الفاطميون الى أهل الذمة كثيرا من الوظائف العامة فى الدولة ، فكان منهم الوزراء ، والوسطاء ، ورؤساء الدواوين ، والكتّاب ، كما عملوا فى الوظائف الخالية والإدارية فى الدواوين ، إذ استعان بهم الخلفاء الفاطميون الأوائل لمهارتهم وخبرتهم فى تلك الوظائف ، ولأنهم وجعوا أنفسهم فى

محيط عدائي من أهل السنة - غالبية سكان مصر - بل لم يقتصر الأمر على الاستعانة بهم في دواوين الدولة وإنما ارتبطوا ببعض عائلاتهم عن طريق المصاهرة .

ولقد شارك الوزراء والوسطاء من أهل الذمة في تنفيذ السياسة الداخلية والخارجية لمصر في العصر الفاطمي الأول ، بل وأسهموا في رسم هذه السياسات كما أدى استفحال نفوذ بعض الوزراء والوسطاء منهم وانحيازهم إلى بني ملتنهم إلى سيطرة موظفي الدولة من أهل الذمة على الدواوين الحكومية ، وبالتالي إلى تفسر الرعايا المسلمين ، وتدخل الخلفاء لإعادة الأمور إلى نصابها ، مجارة للرأي العام الإسلامي .

وتحت مظلة التسامح الديني قام أهل الذمة بدور هام في الحياة الاقتصادية في مصر ، وأسهموا بتصميم كبير في النشاط الزراعي ، إذ كانوا يمتلكون الأراضي الزراعية والضياح الواسعة ، كما شاركوا في النهضة الصناعية الكبرى التي شهدتها مصر في ذلك العصر ، إذ كان أهل الذمة وبخاصة الأقباط هم عماد الصناعة ، وعلى أيديهم ازدهر النشاط الصناعي ، كما ظهر أثر الفن القبطي في كثير من الصناعات والفنون التي برعوا فيها بدرجة تفصلهم إلى الاعجاب والتقدير . أما في مجال التجارة الداخلية فقد قاموا بدور له أهميته ، كما أسهموا بدور نشيط في مجال التجارة الخارجية التي انتعشت كثيرا في العصر الفاطمي الأول .

وكان أهل الذمة في مصر في ذلك العصر بمثابة طبقة اجتماعية متميزة عاشت في قرى ومدن مصر ، بل قد وجدت بعض القرى والمدن المصرية التي غلب على سكانها أهل الذمة وبخاصة الأقباط ، الذين انتشرت بينهم اللغة العربية وبخاصة بعد تعريب النواوين ، وحرصهم على تعلمها . كما كان كبار رجال الدولة من أهل الذمة في العصر الفاطمي الأول يتمتعون بمكانة اجتماعية ممتازة ، إذ

امتلكوا الثروات الطائلة والقصور الفخمة ، واشتهروا بالثراء
ونشأت بين كثير منهم وقصور الخلافة علاقات طيبة وصلات وثيقة ،
فمنحهم الخلفاء الفاطميون الألقاب وخلعوا عليهم الهدايا ، إلا أن
ترفعهم واستملاهم على المسلمين قد أدى إلى استنكار المسلمين لهذه
الأوضاع .

ولما كانت الدولة الفاطمية هي أول دولة مستقلة استقلالاً تاماً
في مصر فإن الأمر تطلب البحث وتقصي الحقائق عن مدى التزام
الفاطميين بالعهود التي سبق أن أعطاها الخلفاء المسلمون لأهل
الذمة ، وبخاصة ما يسمى بالشروط المصرية ذلك أن خلفاء العصر
الفاطمي الأول حيّلوا لأهل الذمة فترة من التسامح الديني فالت
كل ما سبقها من عهود ، فتساهلوا في تطبيق هذه الشروط . وإن
كان الحاكم يأمر الله - في فترة من عهده - تشدد في تطبيقها ،
وفرض عدة قيود اجتماعية جديدة للدرجة أنها أدت إلى هجرة الكثيرين
منهم إلى بلاد الروم والنوبة والسجسة وإن كان قد عاد في أواخر
إيامه إلى التخفيف من غلواء سياسته وعاد إلى تسامحه معهم .

وكانت الاحتفالات بأعياد أهل الذمة من أهم مظاهر الحياة
الاجتماعية في العصر الفاطمي الأول ، فقد شارك الخلفاء الفاطميون
وعامة المسلمين في الاحتفال في كثير من هذه الأعياد ، وإن كان
بعض خلفاء العصر الفاطمي الأول فرضوا قيوداً على بعض هذه
الأعياد لأسباب اجتماعية .

وإذا كان أهل الذمة قد استفادوا من قيام الدولة الفاطمية
في مصر ، فإن ذلك يرجع إلى سياسة التسامح الديني التي سار
عليها الخلفاء الفاطميون - باستثناء فترة من عهد الحاكم بأمر الله -
إذ كانت الصلات الطيبة هي سمة العلاقات بين الخلفاء الفاطميين
ورؤساء الطوائف الدينية لأهل الذمة ، كما سمح الخلفاء الفاطميون

للمنصارى ببناء وتعمير وإصلاح الكنائس والأديرة ، بل أطلقوا الأموال للصرف على عمارتها وإعادة بنائها .

وإذا كانت كثير من دور العبادة لليهود والنصارى قد تعرضت للهدم والسلب والتخريب في بعض الأحيان ، فلم تكن هذه سنة السياسة الدينية للخلفاء الفاطميين الأوائل ، بل كانت بمثابة قرارات استثنائية سرعان ما تعود بعدها السلطات الحاكمة الى التصريح بإصلاح الكنائس وتعميرها بل والتصريح ببنائها من جديد ، وإن كان ذلك يتناقض مع ما نصت عليه الشروط العبرية في هذا الصدد .

كما تأثرت علاقات الدولة الفاطمية بالدول المسيحية بسياسة الفاطميين إزاء أهل الذمة ، كما أن أهل الذمة في مصر بدورهم قد تأثروا بتدهور أو ازدهار هذه العلاقات مع هذه الدول ذلك أن الحروب التي نشبت بين الفاطميين والبيزنطيين أثرت على أحوال نصارى مصر وبخاصة طائفة الروم المكاينة ، لذا تعرضت بعض المعاهدات والاتفاقات التي تمت بين الدولتين لأوضاع نصارى مصر وبخاصة فيما يتعلق بدور العبادة من كنائس وأديرة ، كما تولى بعض كبار الدولة من أهل الذمة رئاسة بعض السفارات الى بيزنطة .

وكان أيضا للعلاقات بين الدولة الفاطمية وبلاد النوبة والحبشة أثرها على أهل الذمة في مصر ، وبخاصة الأقباط ، نظرا للعلاقات الوثيقة والروابط القوية بين الكنيسة المصرية وبين كل من كنيسة النوبة والحبشة . فكثيرا ما كان يستنخم ملوك هاتين الدولتين نفوذهم في قصر الخلافة لصالح بطاركة الكنيسة القبطية وأقباط مصر ، بل أننا نجد الحاكم يأمر الله يخفف من غلواء سياسته إزاء أهل الذمة وبخاصة الأقباط خوفا من أن يقوم ملكا النوبة والحبشة بالامتناع الى المسلمين في بلدهما ، كما نجد الخلفاء الفاطميين

يطلبون من بطاركة الكنيسة المصرية استخدام نفوذهم وإرسال خطاب توصية كل علم للملكى النوبة والحيشة لصالح المسلمين هناك .

ومجمل القول أن هذا العصر شهد ازدهارا لثور أهل النمة ونشاطهم فى المجتمع المصرى ، بحيث يمكن أن يعتبر العصر الفاطمى الأول بحق العصر الذهبى لأهل النمة فى مصر .

وحتى تتضح أبعاد هذه الدراسة ، فقد قسمت هذا الكتاب الى أربعة أبواب على النحو التالى :

الباب الأول : وفيه تحدثت عن « أهل النمة والوظائف العامة » . والأسباب التى دفعت خلفاء العصر الفاطمى الأول الى تعيينهم فى مناصب الدولة العليا واستغلالهم فى الدواوين . وموقف الخلفاء منهم عندما كان يستفحل أمرهم ويتماطم نفوذهم . ثم انتقلت الى الحديث عن الوزراء والوسطاء من اليهود والنصارى ودورهم فى السياسة الداخلية والخارجية لمصر فى ذلك العصر ، وعلاقتهم بظهور الخلافة ، وكيف أدى انحيازهم الى بنى ملتهم الى التنكيل بهم .

كما يتضمن هذا الباب اشراف أهل النمة على الدواوين وسيطرتهم على الاداة الحكومية مع الاشارة الى الأطباء من أهل النمة وعلاقتهم بالخلفاء وكبار رجال الدولة واطر تلك العلاقة على ذريهم . ونشتم هذا الباب بتناول موقف المسلمين من سياسة الموظفين النعميين ، ومظاهر الاحتجاج على تلك السياسة وتناقجها .

اما الباب الثانى : فيعنى بدراسة « أهل النمة والحياة الاقتصادية » ومنه لبدا الحديث عن النشاط الزراعى لأهل النمة ، وعهد جرحهم الى المصريين وموقف الدولة من امتلاك أهل النمة للأراضى الزراعية ، مع الاشارة الى الأراضى الموقوفة على الكنائس والأديرة وتعرضها للمصادرات . كما نتناول بالحديث أهم

الحاصلات الزراعية ، وتأثر الانتاج الزراعي لبعض المحاصيل بالظروف الاجتماعية والاقتصادية لمصر في ذلك العصر ، وإذا كانت مصر قد شهدت نهضة صناعية كبرى في العصر الفاطمي الأول فإن الاقباط كانوا هم عماد الصناعة ولذلك يتناول هذا الباب دراسة عوامل ازدهار الصناعة وتدهورها ، وأهم الصناعات التي برعوا فيها ، وتأثر بعض هذه الصناعات والفنون بالسياسة الاقتصادية والاجتماعية والدينية لمصر في عصر الخلفاء الفاطميين الأوائل . كما يتضمن هذا الباب دور أهل الذمة في مجال التجارة الداخلية ، مع الإشارة الى الدور النشط لأهل الذمة في مجال التجارة الخارجية ، وبخاصة دور يهود مصر الذين اشتغلوا في تجارة الشرق .

لما الباب الثالث : قيتناول « الحياة الاجتماعية والدينية لأهل الذمة » وحياتهم في القرى والمدن المصرية وتطور اللغة القبطية ولهجاتها ، ثم أسباب اندثارها أمام اللغة العربية . كما يتضمن هذا الباب الحديث عن المكانة الاجتماعية لكبار رجال الدولة من أهل الذمة وامتيازاتهم وموقف الرعايا المسلمين من هذه الطبقة - ثم تتناول بقى من التفصيل القيود الاجتماعية التي فرضت على أهل الذمة ، وأسباب تدهور الحاکم بأمر الله في تطبيق ما يسمى بالشروط المصرية وزيادته عليها . كما نتعرض الى الحديث عن الحياة الدينية لأهل الذمة فنتحدث عن أعياد كل من النصارى واليهود ، مع التركيز بصفة خاصة على الأعياد التي شارك فيها الخلفاء الفاطميون والمسلمون ، والقيود التي فرضت على بعض هذه الأعياد وأسباب ذلك . كما يتضمن هذا الباب موقف الفاطميين من رجال الكنيسة والطوائف الدينية وسياساتهم ازاء الكنائس والأديرة والكنائس اليهودية . مع الإشارة الى أسطورة تنصر الخليفة المعز ، وتماطف الحاكم بأمر الله مع الرهبان . واستمرار سياسة إعادة بناء الكنائس في عهد الخليفة الظاهر واعتزاز تلك السياسة

في فترة الاضطرابات التي عمت البلاد في نهاية العصر الفاطمي
الأول .

وفي الباب الرابع : تحدثت عن « علاقات الدولة الفاطمية بالدول المسيحية وأثر ذلك على أهل النمة » وعلى رأس هذه العلاقات تأتي العلاقات الفاطمية البيزنطية . وقد أوضحت أثرها على أهل النمة في مصر ، وأشرت الى السفارات التي تولى رئاستها كبار رجال الدولة من أهل النمة ، ونتائج هذه السفارات وكذلك الى المعاهدات التي عقدت بين الدولتين وما تضمنته منصوص تتعلق بحماية أهل النمة وكنائسهم وأديرتهم ومقديساتهم في مصر والقمام .

كما يتضمن هذا الباب العلاقات بين الدولة الفاطمية وبلاد النوبة ، فتحدثت عن سفارة عبد الله بن سليم الأسواني الى النوبة ، وقرار معاهدة البقط والصلات الطيبة بين مصر والنوبة في عهد العزيز بالله ، وعن موقف ملك النوبة من ثورة أمي ركونة في خلافة الحاكم بأمر الله ، ومن سياسته المتشددة لزاء الاقباط في مصر . ثم ما كان من عودة العلاقات الطيبة بين البلدين في عهد الظاهر والدول عنها في عهد المستنصر بالله أثناء وزارة اليازوري . كما أوضحت الصلة بين الكنيسة القبطية في مصر والكنيسة النوبية . وأخيرا ختمت هذا الباب بالحديث عن العلاقة بين مصر وبلاد الحبشة ، وبين الكنيسة القبطية وكنيسة الحبشة في العصر الفاطمي الأول .

د . صلاح شافعي محمود

عرض لأهم المصادر

اعتمدت في هذا الكتاب على عدد من مصادر التاريخ الاسلامي المخطوطة والمطبوعة . كما اعتمدت أيضا على عدد كبير من المراجع الحديثة . وتمتاز المصادر التي اعتمدت عليها بأن بعضها قد ألفه رجال عاشروا الفاطميين ، ومن ثم فقد أمدتنا بكثير من الحقائق عن العصر الذي عاشوا فيه . وسأتناول في هذا العرض الموجز أهم المصادر والمراجع التي تحصل اتصالا مباشرا بموضوع الكتاب والتي برزت أهميتها من خلال هذه الدراسة ، ويأتي في مقصدها المصادر الخفية وفيما يلي عرض لكل منها :

١ - كتاب « سير البيعة المقدمة » وهو ذيل لكتاب « سير الآباء البطارقة » لساويرس بن المقفع أسقف الاشمونيين الذي عاش في أيام المعز لدين الله ، وعمل موطئا بالدواوين الفاطمية . والفى تناول في مؤلفه تاريخ بطارقة الاسكندرية ووقف في كتابته حتى أوائل الخلافة الفاطمية في مصر . ولكن هذا الكتاب استكمل كتابته باسم « سير البيعة المقدمة » أو باسم « ذيل سير الآباء البطارقة » واشترك في كتابته مؤلفون قبط من الأقباط المتعاقبين . ومنهم من معاصر يدعى الأنبا ميخائيل كان شماسا ثم قسيسا ثم اسقفا على تنيس ، فكتب سيرة الآباء البطارقة في خلافة كل من

العزیز بالله ، والحاكم بأمر الله ، والظاهر لأعزاز دين الله - وبعد ذلك تولى موهوب بن منصور بن مفرج الاسكندراني كتابة سير البطارقة في عهد المستنصر بالله الفاطمي ، ويعتبر هذا المخطوط واحدا من أهم المصادر التي اعتمدت عليها ، اذ يلقي الضوء ساطعا على كثير من الأمور التي تتعلق بأهل الذمة كطبقة اجتماعية عاشت في المجتمع المصري في العصر الفاطمي الأول ، ودورهم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية وسياسة الخلفاء الفاطميين الدينية ازاء الكنيسة ورجالها ، والمراسيم التي أصدرها الحاكم بأمر الله والتي ضيقت الخناق عليهم . كما تناول المصدر علاقات الفاطميين ببلاد النوبة والحبيشة واثار ذلك على المسيحيين -

٢ - كتاب « عيون الصاوف وفنون أخبار الخلايف » للقضاعي . وهو القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي المذهب ، الذي ولد في مصر في أواخر القرن الرابع الهجري ، والذي تولى بها أيضا سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م . والكتاب موجز في ذكر الأنبياء وتاريخ الخلفاء الى سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٢ م ، ولعله مختصر لمؤلف أكبر ، لم يصلنا بعد . ولقد كان القضاعي من فحول الفقه والحديث والتاريخ وقول القضاة وغيره من مهام الدولة في أيام المستنصر بالله الفاطمي . وقد أرسله هذا الخليفة في سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م سفيرا ليحاول عقد صلح بين تيودورا امبراطورة الروم وبين مصر . ومن هنا تأتى أهمية المصدر ، اذ أن مؤلفه كان مصاصرا لفاطميين ، ومن كبار رجال دولتهم ، وبالتالي فان المصدر يزخر بكثير من حقائق عصره ويتناصه الأحداث التاريخية في خلافة العزیز بالله والحاكم بأمر الله . كما يحتوى مضمون سجلات الحاكم بأمر الله التي أصدرها لأهل الذمة . مما يوضح لنا جانبا كبيرا من دور أهل الذمة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وموقف الخلفاء من موظفيهم الفميين .

٣ - كتاب « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » مؤلفه مسبط ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٧ م . ويهمننا في هذا المخطوط الجزئين الحادى عشر والثانى عشر . اذ تناول المؤلف فيهما كثيرا من التفاصيل عن كبار موظفى الدولة من أهل الدولة ، ودورهم فى السياسة الداخلية والخارجية ، وموقف الخلفاء الفاطميين منهم . كما أمدنا بكثير من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية لأهل الدولة . علاوة على تناوله لموضوع العلاقات الفاطمية البيزنطية بشئ من التفصيل .

٤ - كتاب « زينة الفكرة في تاريخ الهجرة » مؤلفه بيبرس النوادر المتوفى سنة ٧٢٥ هـ/١٣٢٥ م . ويتناول المؤلف فى الجزء السادس من هذا المصدر اردياد نفوذ أهل الدولة فى عصر فى العصر الفاطمى الأول ، ومراسيم الحاكم بأمر الله لأهل الدولة وأثرها على النشاط الزراعى والصناعى والتجارى . كما أمدنا بالكثير من المعلومات عن سياسة الفاطميين الدينية إزاء أهل الدولة وكذلك عن أثر العلاقات بين الدولة الفاطمية وبيزنطة على نصارى مصر .

٥ - كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » للنويرى المتوفى سنة ٧٢٢ هـ/١٣٢٢ م . ويهمننا من هذا المصدر ، الذى يعتبر من أعظم المصادر الإسلامية التى تناولت العصر الفاطمى - الجزء السادس والعشرين . اذ ألقى الكاتب فى هذا الجزء الضوء على هؤلاء الموظفين من أهل الدولة الذين تولوا أرقى مناصب الدولة ، وعلى موقف الخلفاء الفاطميين منهم ، ونظرة عامة للمسلمين اليهم . بل انه انفرد ببعض الحقائق عن سياسة موظفى الدولة من أهل الدولة وسياسة الفاطميين إزاء الكنائس والأديرة . كما تناول كثيرا من التفاصيل عن القيود التى فرضت على أهل الدولة ، وكذلك العلاقات بين الفاطميين وبلاد الروم .

٦ - كتاب « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » للعيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م ، وقد تناول الجزء التاسع عشر من هذا المصدر الهام . ذكر كثير من موظفي الدولة من أهل اللغة . والقيود التي قرضت عليهم ، وساسة الفاطميين إزاء الكنائس والأديرة . كما تناول المؤلف العلاقات الفاطمية البيزنطية وأثرها على أهل النخبة في دولة الفاطميين .

وأما المصادر المطبوعة فيأتي على رأسها بالنسبة لموضوع البحث :

أولا : كتب الرحلات :

١ - كتاب « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » للمقننى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، الذى زار مصر في أوائل العصر الفاطمى . ويمتاز المصدر بدقة المعلومات التى أمدنا بها ، اذ كان مؤلفه يتحرى الدقة فيما يكتب . لذا فإن حديثه عن النشاط الزراعى والصناعى والتجارى جاء فى غاية الأهمية ، وبالأذات تلك الشذرات التى تناولت دور أهل النخبة فى تلك الأنشطة المختلفة . كما أن المصدر يحتوى على ذكر المراكز الصناعية فى مصر كتنبيس ودمياط وشطا ودبيق وغيرها من المدن الصناعية الكبرى . حيث يعلب عليها السكان من القبط . مع إشارته الى المراكز التجارية وطرق جباية الضرائب والمكوس ، وأعجابه باستقرار الأمن والهوى فى أرجاء الدولة .

٢ - كتاب « صورة الأرض » لابن حوقل ، وهو الرحالة الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى / النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى وقد أمدنا ابن حوقل فى مؤلفه هذا بمعلومات وفيرة عن الشعوب التى زارها ومنها مصر . فذكر كثيرا من القرى والمدن المصرية وسكانها ، كما ألقى بضوء على النشاط الزراعى والصناعى وبخاصة فى تنيس ودمياط ، والضرائب الباهظة التى فرضها ابن كلسى على صنّاع هاتين المدينتين . كما ذكر المدن التجارية

بمصر كالاسكندرية والقسطنطينية . وكذلك الطرق التجارية ، اذ كان المؤلف واحدا من هؤلاء التجار الرحالة المتقنين .

— كتاب « سفر نامة » لناصرى خسرو . ذلك الرحالة الفارسي الذي زار كثيرا من بلاد العالم الاسلامي ومنها مصر : وكانت زيارته لها فيما بين سنة ٤٣٩-٤٤١ هـ / ١٠٤٧ - ١٠٥٠ م في خلافة المستنصر بالله . وقد اتاحت له ملة اقامته بمصر التعرف على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والمبانيمية في مصر في عهد هذا الخليفة . كما أعجب برحائها . واستقرار الأمن فيها . واعتقد ان ذلك السبيل يرجع الى الدولة الفاطمية والى مذهبها الاسماعيلي . ولذلك أصبح من أشد دعاة الاسماعيلية المتعصبين للخلفاء الفاطميين . واعتنى ناصرى خسرو بدراسة الأعياد والحفلات والصناعات والفنون والأسواق ، والمراكز الصناعية والمدن التجارية ، وعوامل ازدهارها في مصر في هذا العصر . كما ألقى بعض الضوء على نشاط أهل النمة في ميادين الصناعة والتجارة ، وازدياد نفوذهم في عهد المستنصر بالله . بالإضافة الى ثراء كثير منهم كطبقة اجتماعية لها أهميتها في المجتمع المصري . كما أشار الى علاقة الفاطميين بالروم ، وتسامح الفاطميين مع أهل النمة .

— كتاب « رحلة بنيامين » للرحالة بنيامين بن يونه التطيلي الببباري الأندلسي الذي طاف بكثير من بلاد العالم الاسلامي ومنها مصر ، واستغرقت رحلته المدة من سنة ٥٦١ الى ٥٦٩ هـ / ١١٦٥ - ١١٧٣ م . وعلى الرغم من أن زيارته لمصر كانت في بداية عهد صلاح الدين الأيوبي ، الا أنها أمدتنا بمعلومات هامة عن التعداد القريبى ليهود مصر في ذلك الوقت . وأوقفنا على بعض أحوالهم الاجتماعية والدينية . كما ألقى الضوء على النشاط التجاري في المدن التجارية الواقعة على البحرين المتوسط والأحمر ، حيث كانت توجد في كثير

منها جاليات يهودية • اشتغل أفرادها في تجارة الشرق • وأسهموا في النشاط التجاري بين أوروبا والشرق •

— كتاب « رحلة ابن جبير » الذي رحل من الأندلس إلى مصر ثلاث مرات • وتوفي في الاسكندرية سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م أثناء رحلته الأخيرة • وقسم لنا ابن جبير قسماً من المعلومات عن المدن التجارية في مصر ، وطرق التجارة بها • وكذلك عن بعض المدن الصناعية التي يكثر فيها السكان من أهل النعمة • كما ألقى الضوء على كثير من نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر في ذلك العصر •

ثانياً : المصادر التاريخية :

ويأتي في مقدمتها المصادر النصرانية ومنها :

١ — كتاب « تاريخ » أو « صلة تاريخ أوطيس » مؤلفه النصراني يحيى بن سعيد الأنطاكي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م • ويعتبر هذا المصدر من أهم المصادر التي اعتمدت عليها في هذا البحث • إذ أن مؤلفه المعاصر للخلفاء الفاطميين الأوائل ، تناول تاريخ الأقباط وكيستهم باستفاضة ، ووقف عند سنة ٤٢٥ هـ / ١٠٣٣ م • وأمدنا بمادة تاريخية غزيرة خاصة فيما يتعلق بأحوال النصارى في دولة الفاطميين أيام الخليفة المزمّل لدين الله وابنه العزيز بالله ، وألقى الضوء على كبار موظفي الدولة من اليهود والنصارى ، وسياسة التسامح التي سار عليها كل من الخلفيتين تجاه أهل النعمة بوجه عام ، هذا إلى جانب المراسيم والسجلات والمنشورات التي منحها الحاكم بأمر الله عند عودته إلى سياسة التسامح الديني إزاء أهل النعمة ، ومنها نص سجله لرهبان دير القصر ، ومنشوره لنقفور بطريرك بيت المقدس ، ومرسوم الصفو الضامل الذي منحه لنصارى مصر ، وكلها صدرت قبيل اختفاء الحاكم بأمر الله في شهر شوال سنة ٤١٦ هـ • كما ألقى المصدر الضوء ساطعاً على كثير

من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية لأهل النمة ،
وعلاقة الفاطميين بالروم ، وأثر ذلك على المسيحيين .

٣ - كتاب « كنائس وإديرة مصر » المعروف « بتاريخ الشيخ
أبو صالح الأرمني » المتوفى سنة ٦٠٥ هـ - ٦٠٦ هـ / ١٢٠٨ م .
وعندما زار أبو صالح الأرمني مصر بعد سقوط الدولة الفاطمية
وشاهد أديرتها وكنائسها ، كتب مبحثا لهذه الكنائس والأديرة .
وألقي الضوء على سياسة الخلفاء الفاطميين الدينية إزاء أهل النمة ،
وموقفهم من بناء وتعمير الكنائس والأديرة ، كما أمدنا ببعض
المعلومات عن النشاط الزراعي والصناعي والتجاري لأهل النمة
وبخاصة رهبان الأديرة . علاوة على أنه تناول علاقة مصر الفاطمية
ببلاد النوبة المسيحية .

٣ - كتاب « تاريخ ابن الراهب » لأبي شاكز بطرس بن أبي
الكرم بن المهدي المعروف بابن الراهب ، الذي رسم شماسا في دير
المعلقة بفسطاط مصر سنة ٦٦٩ هـ . وقد تناول المؤلف بأسباب
سياسة المر لدين الله إزاء النصارى ، وموقفه من رجال الكنيسة ،
ورؤساء اليهود ، وأمدنا بمعلومات وفيرة عن سياسة التسامح
الديني في عهد العزيز بالله ، كما تناول بالحديث بعض موظفي
الدولة من أهل النمة ، وموقف الخليفة الحاكم بأمر الله من نصارى
مصر بوجه عام ، والقيود التي فرضها عليهم .

٤ - كتاب « تاريخ مختصر الدول » للاب غريغوريوس أبي
الفرج المعروف بابن العبري (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) الذي يتعرض
فيه لأحوال الدول ، بما فيها الدولة الفاطمية ، وقد استمد الباحث
منه كثيرا من الحقائق حول علاقة الخلفاء الفاطميين الأوائل بكنائس
موظفي دولتهم من أهل النمة ، ووقف على إسهاد نفوذهم ومكانتهم
في قصر الخلافة . كما تناول سياسة التسامح الديني إزاء أهل النمة
في عهد العزيز بالله الفاطمي .

أما المصادر الإسلامية المطبوعة التي اعتمدت عليها في هذا
البحث فيأتي على رأسها :

١ - كتاب « ذيل تاريخ دمشق » لأبى يعلى حمزة بن القلانسي المتوفى في سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م . وفيه قسم المؤلف عرضا شافعا وحاما لسياسة الخلفاء الفاطميين في بلاد الشام وعلاقتهم بالروم وأثر هذه السياسة على أهل النمة في مصر . كما أنه تناول دور كبار موظفي الدولة من أهل النمة في تنفيذ سياسة الدولة داخليا وخارجيا وموقف الخلفاء من هؤلاء الموظفين ، علاوة على تناوله لسياسة الخلفاء الفاطميين الدينية ازاء أهل النمة .

٢ - كتاب « أخبار مصر » لابن ميسر المتوفى سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م . ويعتبر واحدا من أغنى المصادر الاسلامية التي تناولت تاريخ الفاطميين في مصر ، ويحتوى على كثير من أخبار الوزراء والوسطاء وكبار موظفي دولتهم من أهل النمة . ونظرة المسلمين الى هؤلاء الموظفين الذين سيطروا على دواوين الحكومة . كما تناول المصدر علاقات مصر ببيزنطة ، وأثر تلك العلاقات على أهل النمة في الدولة الفاطمية .

٣ - وعندما نأتي الى مؤلفات التتريزي (٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) ، فإن الباحث يقف على مادة غزيرة عن مصر في عصر الفاطميين ، ربما لا يرد ذكرها في كثير من المصادر . ففي مؤلفه « اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء » أخبار نادرة عن أهل النمة في مصر . ودورهم في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والسياسة الدينية للفاطميين ازامهم . كما يتعرض الكتاب لكثير من التفاصيل عن علاقة كبار رجال الدولة النحيين بقصور الخلافة ، والقيود التي فرضت عليهم من الناحيتين الاجتماعية والدينية ، ولمدنا أيضا بمعلومات وغيرة عن العلاقات بين الفاطميين وبلاد الروم والنوبة والحبشة ، وأثر هذه العلاقات على المسيحيين في مصر .

أما مؤلفه « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » فهو سجل شامل لجغرافية مصر وأحوالها الزراعية والصناعية والمالية

والادارية ، ومنها استقى الباحث دور أهل النعمة ونشاطهم في كل مجالات الحياة في المجتمع المصري - كما تناول القرى في هذا الكتاب ذكر طوائف أهل النعمة من اليهود والنصارى ، وأعيادهم ومواسمهم ، ومظاهر الاحتفال بها ، علاوة على التفاصيل الكثيرة عن كنائس وأديرة النصارى ، وكنائس اليهود ، وأحيائهم .

٤ - أما كتاب « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » للقلقشندي المتوفى سنة ٨٢٦ هـ / ١٤١٨ م ، وكتاب « المختصر في أخبار البشر » لأبى الفدا المتوفى سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م ، وكتاب « ثمة المختصر في أخبار البشر » لابن الوردى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٥٨ م . فقد افادتنا في دراستنا لطوائف أهل النعمة وأعيادهم ومواسمهم .

وبالإضافة إلى هذه المصادر الأصلية ، الخطية منها والمطبوعة ، والمسيحية منها والإسلامية ، فقد اعتمدت على كثير من المراجع الحديثة التي تناولت تاريخ مصر في العصر الفاطمي ، ويوجد القارىء نبتا بهذه المراجع في نهاية هذا البحث .

الباب الأول

أهل النعمة والوظائف العامة

سياسة الخلفاء الفاطميين

إزاء الموظفين من أهل الذمة

استخدم الفاطميون منذ مجيئهم إلى مصر أهل الذمة في إدارة شئون البلاد ، واكتظت دواوين الحكومة في مصر الفاطمي الأول بالموظفين من اليهود والنصارى الذين شغلوا وظائف الدولة العليا . فكان منهم الوزراء والوسطاء ورؤساء الدواوين ، والكتاب ، وتغلغل الموظفون من أهل الذمة — وبخاصة الأقباط في كافة الدواوين المالية والإدارية . ولقد حرص الخلفاء الفاطميون على الاستعانة بهم لمهارتهم في تلك الوظائف ، إذ كانوا أكثر معرفة وخبرة بجباية الخراج والجزية والضرائب وكل ما يتعلق بالأموال ، كما كان معظم أطباء قصور الخلافة من أهل الذمة لبراعتهم في علوم الطب وتركيب الدواء . لقد كان انتقال الخلافة في مصر إلى الفاطميين في صالح أهل الذمة ، إذ أنعم الفاطميون على الموظفين من أهل الذمة وأغدقوا عليهم للحاجة إلى خبرتهم في إدارة الدواوين الحكومية كما هيأ الخلفاء الفاطميون لأهل الذمة فترة من التسامح الديني فأقت كل ما سبقها من عهود ، وكان تسامح الفاطميين مع أهل الذمة من أهم العوامل التي ساعدتهم على تبوء أرقى وظائف الدولة والسيطرة على الدواوين في مصر الفاطمي الأول .

ولا يرجع هذا الموقف من جانب الخلفاء الفاطميين إذاً أهل الذمة إلى سياسة التسامح الدينى ، أو إلى صلة المصاهرة معهم فحسب - كما فى حالة العزيز بالله الفاطمى - ، أو إلى حاجة الدولة إلى خبرة أهل الذمة وعلمهم ، وإنما يرجع ذلك فى المقام الأول إلى أن الفاطميين وجئوا أنفسهم فى محيط عدائى من أهل السنة وهم الأغلبية الكبرى من المصريين ، ولذلك لم يكن هناك مناص من أن يعتمدوا على أهل الذمة الذين كانوا يشكلون أقلية نشيطة تقوى بحوالى ثلث الشعب المصرى ، إلا أنهم بوصفهم خلفاء للمسلمين كان عليهم أن يجاروا رأى العام الإسلامى وأن يعملوا - كما فعل الحاكم بأمر الله - على كبح جناح أهل الذمة كلما استفحل أمرهم وكلما أصبحوا يشكلون خطراً على مصالح الرعايا المسلمين ، هذا ومن جهة أخرى فقد تلافى البعض من أهل الذمة فى خدمة الخلفاء الفاطميين بصورة تدعو إلى الإعجاب والتقدير .

وقد أصدر الخليفة المعز لدين الله الفاطمى بمجرد وصوله إلى القاهرة فى رمضان سنة ٣٦٢ هـ / يونية سنة ٩٧٣ م وأتخاذها مقراً لخلافته ، عفواً شاملاً عن الذين كان قد اعتقلهم جوهر وخل سبيلهم (١) - ويرى مؤلف « سير الأياد البطارقة » كثيراً من المواقف الحميدة التى تملأ على تسامح المعز مع النصارى ، وحسن علاقته باليهود ، وصداقته لكبار رجال الدولة من أهل الذمة الذين كانوا يشكلون غالبية موظفى البوابين (٢) ، فقد عهد المعز إلى رجل الدولة البارز يعقوب بن كلس اليهودى الأصل ، وعسلوج بن الحسن فى رابع عشر المحرم سنة ٣٦٣ هـ بإدارة كافة شئون مصر

(١) الانطاكي : تاريخ ، أو صلة كتب أوتينا ، المسمى : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، تحقيق شيخو ، بيروت ١٩٠٩ م ، ص ١٢٦ .
 (٢) الأياد ميخائيل : ليل سير الأياد البطارقة ، الجزء الثالث ، مخطوط بدار الكتب برقم ٦٤٢٤ ج ، ورقة ٤١ -

المالية (٣) . وهما اللذان وضعما النظام المالي الجديد الذي يتفق وسياسة الفاطميين المذهبية (٤) . كما اختص ابن كلسي بديوان الخليفة المزم (٥) ، فأصبح وهو الرجل الحديث العهد بالإسلام أكثر المقربين إلى قصر الخلافة .

كما اتخذ المزم منهم أطباء الخاص وقربهم إليه ، فقد كان موسى بن المازار الأمرائيل الطبيب ، وابنه اسحق بن موسى ، وأخوه اسماعيل بن موسى والأبى يعقوب بن اسحق من أطباء الخاص بقصر المزم ، وعندما أخفهم المزم بخلته لم يشترط عليهم اعتناق الإسلام ، ويذكر ابن أبى أصيبعة أن المزم قد حزن حزنا شديدا لوفاة اسحق بن موسى الطبيب في صفر سنة ٣٦٣ هـ لمنزلته وحسن كفايته (٦) .

وهكذا كان الموظفون من أهل اللغة في خلافة المزم يلقون التقدير والتكريم كما شغلهم برعايته وعطفه وتسامحه .

فإذا ما انتقلنا إلى خلافة العزيز بالله ٣٦٥ هـ - ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦ م نرى مبالغة العزيز في اظهار عطفه على أهل اللغة وتسامحه معهم وبخاصة النصاري وفي استخدامهم في وظائف الدولة العليا . فكان يعقوب بن كلس ، اليهودي الأصل ، أول وزراء الدولة الفاطمية في مصر وأعظمهم شأنًا . تغانى في خدمة الفاطميين ، وقام بعدة إصلاحات إدارية ومالية هامة وأسهم بدور كبير في نشر

(٣) المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والأثار ، طبعة بولاق

١٢٧٠ هـ ، ج ٢ ، ص ٣٦٨

(٤) حسن إبراهيم : المزم لدين الله للفاطمى ، القاهرة ١٩١٨ ، ص ١٧٣ .

(٥) المقريزي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤ .

(٦) ابن أبى أصيبعة : عيون الأكياء في طبقات الأطباء ، تحقيق د. نزار

ريشا بيروت ١٩٦٥ ، ص ٥٤٥ .

المذهب الشيعي وتنشيط الحركة العلمية (٧) ، وكان له دوره البارز في رسم السياسة الخارجية للدولة الفاطمية ابان فترة وزارته ، فحظي عند العزيز بالمنزلة السامية والفرجة الرفيعة . وليس ادل على حسن علاقته بالخليفة العزيز بالله من هذا المشهد الرائع ، عندما مرض ابن كلثوم مرضه الأخير ، وزاره العزيز وقال له : « يا يعقوب ، ودعت لو تباع فأبتاعك بملكى ، أو تقتدى فالتديك ، فهل من حاجة توصى بها ؟ » فبكى الوزير وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه وقال له : « أما فيما يخصنى فلا ، فانك أدعى لحقى من أن أمتزعجك ، وأرأف بمخلقى من أن أوصيك ولكنى أقول لك فيما يتعلق ببولتك : سالهم المروم ما سالوك ، واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ، ولا تبغ على المفرج بن دغل ابن الجراح متى أمكنت فيه الفرصة » (٨) .

وكان ابن كلثوم مخلصا لصاحبه على حد تعبير أبي شجاع . ولم يشغله ما كان فيه من فراق دنياء عن نصيح صاحبه » (٩) .

ومع أن العزيز بالله شمل أهل النعمة بالرعاية الكاملة فانه اضطر في بعض الأحيان أن يفرض نوعا من الرقابة على كبار موظفي الدولة منهم ، وبخاصة في الفترة التي تولى فيها الوصاية عيسى ابن نسطورس النصراني ، الذي انحاز الى بنى ملته من نصارى مصر ، والتي تولى فيها منشأ بن ابراهيم اليهودي في الشام ، اذ سلك مسلك عيسى بن نسطورس في ظلم المسلمين والمباينة في فرض الضرائب عليهم .

(٧) المقريزي : الخطبة ، ج ٢ ، ص ٥٠ .

(٨) أبو شجاع : ليل تجارب الأمم ، طبعة مصر ١٩١٦ م ، ص ١٨٦ .

(٩) أبو شجاع : نفس المصدر ونفس الصفحة .

وتحت تأثير الرأي العام الاسلامي ، والسخط الذي عم المسلمين واحتجاجهم على سياسة الموظفين من أهل النعمة ، وعلى ظاهرة تنصير الدواوين في مصر وتهويدها في الشام ، تدخل العزيز بالله لإعادة الأمور الى مسابها حفاظا على سلطان الخلافة وهيبتها أمام الجماهير ، فاصدر الأمر بمنزلها ، ومصادرة أموالها وممتلكاتها - ولما أعاد العزيز بالله عيسى بن تسطور من الى منصب الوساطة بناء على تدخل اخته ست الملك ، اشترط عليه أن يعين المسلمين في دواوين الحكومة (١٠) .

وبلغ كثير من الأطباء النعميين منزلة كبيرة عند الخليفة العزيز بالله . وفي رسالته الى منصور بن مقشّر طبيب قصر الخلافة ما يلقي الضوء على مكانة هؤلاء الأطباء النعميين عند الخلفاء . ففي سنة ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م مرس ابن مقشّر ، وتأخر العزيز بالله عن ريادته لمرض أصابه ، فلما تماثل للشفاء كتب بخطه الى طبيبه هذه الرسالة : بسم الله الرحمن الرحيم . طيبينا : سلمه الله . سلم الله الطيب ، وآتم النعمة عليه . وصلت اليها الإشارة بما وهبنا الله من عافية الطيب وبره ، والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه من الصحة في جسمنا ، قسم الله عليك النعمة ، وكمل لنا صحتك وجعل بها ، ولا أشمت بنا فيك عنوا ولا حاسدا ، ورد كيد من يريد الكيد في تحره ، وابتلاه بما لا طاقة له بمد الكفاية فيك ، وأقالتك من العثرة . ورجوعك الى أفضل ما عودتك من صحة الجسم وطيبة النفس ، وخفض العيش يحوله وقوته ، والسلام عليك وصل الله على خيرته من خلقه محمد النبي وآله وسلم تسليما (١١) .

(١٠) ابن القلائس : نيل تاريخ دمشق ، طبعة بيروت ١٩٠٨ ، ص ٢٢ .

(-) سبط بن الجوزي : مرآة للزمان في تاريخ الاميان ، مخطوط يدار الكتب الجزء الحادي عشر ، رقم ٥٥١ تاريخ ، ورقة ١٥٤ .

(١١) القلي : تاريخ الحكماء ، طبعة ليدزج ١٩٠٢ م . ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

والحقيقة أن نفوذ النصارى واليهود بلغ الذروة في مصر قو
خلافة العزيز بالله . فقد استولى الوزراء والوسطاء ، ورؤساء
الدواوين ، والكتاب اللحيون على معظم وظائف الدولة وأعمالها .
واستأثروا بمعظم السلطة والنفوذ نتيجة لهذا التسامح المخلق (١٢) .

وهنا علينا أن نتساءل ، لماذا كان هذا التسامح المخلق إزاء
أهل الذمة ؟

لقد اشتهر العزيز بالله بأنه كان جليل السيرة ، حسن
السياسة ، شديد الاهتمام بمصالح الرعية (١٣) . وبشهادة مؤرخ
نصراني « كان العزيز يحب العفو ويستعمله » (١٤) . كما عرف
بمطلقه الشديد على أهل الذمة (١٥) .

وفضلا عن ذلك ، فقد كان للنصارى بوجه خاص لدى الخليفة
العزيز بالله نصير كبير ومنه قوى ، كان يسارع الى نجدهم عندما
تطالب الرعية بمحاسبتهم على مظالمهم ، أو عندما يتصلى الخليفة
للمحد من نفوذهم .

هذا النصير الكبير وهذا السند القوى كان يتمثل في زوجة
العزيز بالله النصرانية وابنته سبت الملك ، ذلك أن العزيز بالله تزوج
من جارية رومية نصرانية - على المنحى المملكانى - وقد صار لهذه
الزوجة من السلطان والنفوذ بقصر الخلافة ما مكنها من الوقوف
دائما الى جانب النصارى (١٦) ، واستطاعت هذه الزوجة أن تؤثر

(١٢) حنان : للحكم بامر الله . للطبعة الثانية . القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٨١ .

(١٣) ابن القلائس . المصنف السابق . ص ٤٤ .

(١٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠ م . ص ٢١٠ .

(١٥) يوكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية . بيروت ١٩٥٤ ، ج ٢ . ص ١٠٤ .

(١٦) الأتيا جيفاليل : المصنف السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥١ .

- ابن العميد . تاريخ المسلمين ، لندن ١٦٢٥ م . ص ٢٤٧ .

في سياسة الخليفة العزيز بالله نحوهم ، وأن ترفع أخويها وتقربهما من الخليفة . ففي شهر رمضان سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م أصدر العزيز بالله قرارا بتعيين أخيها أريستس بطريكاً على بيت المقدس ، وقد ظل في منصبه هذا عشرين عاماً وشاورك في المفاوضات الدبلوماسية بين الروم والفاطم ، بينما لم يعين أخيه أرساني (أرسانيوس) مطرانا على القاهرة ، ثم ما لبث أن أصبح بطريكاً على الاسكندرية في سنة ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م (١٧) .

وكان لهذه المصاهرة تأثيرها الكبير في سياسة العزيز بالله نحو النصارى ، ومبالفته في التسامح معهم والمطف عليهم . وبالتالي في فتح باب الوظائف العليا في الدولة أمام أهل الذمة .

رواصلت هذا الدور إهنته ميت الملك (ت ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م) . وكان العزيز يحبها حباً شديداً ، ولا يرد لها قولاً (١٨) ، فكان لها دورها البارز في التأثير على سياسة أبيها نحو النصارى ، كما كان لها دورها الخطير في الأحداث الهامة وعجريات الأمور في البلاد . فقد وقفت الى جانب عيسى بن سطورس تسانده وتدافع عنه بعد أن عزله العزيز بالله من منصبه وصاحده ، وقبل العزيز بالله وساطتها وعفى عنه ، وأعادته الى الوصاية بعد أن تعهد عيسى بتنفيذ السياسة التي رسمها له (١٩) .

وكيفما كان الأمر فقد كان للسياسة السخنة والرشيدة التي

(١٧) الانتظكي : المصدر السابق ، ص ١٦٤ . ص ١٦٧ .

... الأنبا ميخائيل . المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥١ .

(١٨) ابن الكلبي : المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(١٩) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

... ابن الكلبي : المصدر السابق ، ص ٣٣ .

انتهجها العزيز بالله الفاطمي ، اثرها الطيب في اكتساب محبة
المصريين بوجه عام على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم (٢٠) .

أما في خيلفة الحاكم بأمر الله ٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ -
١٠٣٠ م فإن المصادر التاريخية تجمع على أن غالبية رجال الدواوين
وموظفي الحكومة ، كانوا من أهل النخبة ، فيشهداة الانطاكي
« كان سائر كتابه وأصحاب خطه وأطباء مملكته نصارى
الانريسيير » (٢١) . كما اتسمت سياسة الحاكم بأمر الله مع جميع
موظفي الدولة بروح العدالة ، مع الصرامة في توقيع عقوبات بالغة
القسوة على المخالفين ، ويعطينا الانطاكي صورة واضحة للعلاقة بين
الحاكم بأمر الله ورجال دولته بقوله أن الحاكم « أظهر من العدل
ما لم يسمح بمثله ، ولعمري إن أهل مملكته لم يزالوا في أيامه
آمنين على أموالهم ، غير مطمئنين على نفوسهم ولم تمتد يده قط إلى
أخذ مال أحد ، بل كان له جود عظيم وعطايا جريئة ، وصلات
واسعة ، وكلد قتل من رؤساء دولته وأهل مملكته ممن لهم الأموال
العظيمة ، ما لا يقع عليه احصاء لكثرتة ، فلم يتعرض لأخذ مال
أحد منهم لنفسه » (٢٢) .

ومن الأمثلة على ذلك أن الحاكم بأمر الله أعطى ثقته لفهد
ابن ابراهيم النصراني ، ووقفه على سائر الكتاب ، وأمرهم بطاعته ،
وأكد لهم أثناء اجتماعهم بهم أن فهد موضع ثقته وتقديره ، غير أنه
ما لبث أن قتله بسبب ميله إلى النصارى ، وامتناده مناصب الدولة
اليهم ، وازدياد نفوذهم ، وسيطرتهم على دواوين الحكومة . وتصفهم

(٢٠) حسن ابراهيم : الفصل في التاريخ المصري ، الطبعة الاولى ١٩٤٢ م .

ص ١٦٢ .

(٢١) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٢٢) الانطاكي : نفس المصدر ، ص ٢٠٦ .

وظلمهم للمسلمين ، علاوة على صيرته السيئة ، واختلاسه لأموال الدولة ، واقتطاعه لنفسه ، فكان سيئاً مهلاً أمام مناصبه ابن العداس ، وابن محمد النحوي ، اللذين دسا له عند الحاكم موضحين الأخطاء التي ارتكبها فهو ، مما دعى الحاكم بأمر الله إلى عزله وقتله في ثامن من جمادى الآخرة سنة ٣٩٢ هـ (٢٣) .

أما ابن عبيدون الذي قلده الحاكم منصب الوساطة ثم صرفه عنها في رابع المحرم سنة ٤٠٦ هـ وقتله بعد مدة قصيرة ، فقد تعرض لنفس الظروف التي تعرض لها فهو ابن إبراهيم ، وارتكب نفس الأخطاء ، فضلاً عن الخلافات التي وقعت بينه وبين الحسين ابن جوهر الذي حرص الحاكم بأمر الله عليه (٢٤) .

وأما كان الحاكم بأمر الله قد أخذ عليه اضطهاداً للنصارى وقسوته على أهل النعمة بوجه عام ، وبصورة لم يسبق لها مثيل (٢٥) ، فإن النظرة الفاحصة لوقفه من موظفيه تسمح لنا بإعادة النظر في هذا الرأي .

ذلك أن الحاكم بأمر الله قد تفانى في خدمة الدولة والرعية ، وأحكم رقابته على وسطائه وكبار رجال الدواوين ، كما حاسب - وهو وجيل الدولة القوي - رجال دولته من مسلمين وذهبيين حساباً عسيراً .

من ذلك أنه في سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م طالب منصور ابن عبيدون النصراني وكان يتولى ديوان الشام ، ومعه جماعة من كتاب الدواوين في مصر من مسلمين وذهبيين على حد سواء ، بتقديم

(٢٣) ابن اللاتني : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

- الميرزى : خبط ، ج ٢ ، ص ٣٠ .

(٢٤) ابن اللاتني : المصدر السابق ، ص ٦٢ .

(٢٥) عفان : المصدر السابق ، ص ٨٩ .

حساب ما كانوا يتولونه من أعمال ، ثم صادر أموال بعضهم وأودعهم السجنون . غير أن ابن عيون ما لبث أن نجح في اقناعه بالافراج عن بعضهم . ولكن في سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م عادت الشناعات السيئة وكثرت حول الموظفين الذميين ، فأصا بهم الحاكم بأمر الله واجتمعوا بمأسمة الخلافة ، وتوجهوا الى قصر الحاكم بأمر الله يلتسبون الأمان ، ويسألونه العفو والصفح ، فاستقبلهم رسول الحاكم بأمر الله ، ورد عليهم « ردا جميلا » ، أعاد الثقة والاطمئنان الى نفوسهم (٢٦) .

وهناك من الأدلة ما يؤكد أن الحاكم بأمر الله كان حازما في سياسته الادارية ، ابتغاء تحقيق العدالة ، وحرصا على انتظام العمل بالدهاوين ، وليس يدافع التعصب . فالحاكم لم يقتل فهد ابن ابراهيم لكونه نصرانيا ، ولكن قتله بسبب الأخطاء التي ارتكبها . كما أمر بقتل أبي غالب - أخ فهد - متولى ديوان النفقات لظلمه وسوء تصرفه ، ومع ذلك فإن الحاكم بأمر الله أرسل في طلب اولاد فهد وخلق عليهم ، وكتب لهم سجل امان بحمايتهم وعدم التعرض لقصورهم وأموالهم (٢٧) .

وإذا كان الحاكم بأمر الله قد قبض على كتاب النواوين من النصراري واعتقلهم عقب مقتل فهد - فإن أبا الفتح منصور بن مقشر الطليبي - وهو من المقربين الى الحاكم - قد توسط للافراج عنهم ، فأطلق سراحهم بعد اسبوع من القبض عليهم ، وعاد كل واحد منهم الى وظيفته (٢٨) .

(٢٦) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٤ ، ص ١٩٦ .

(٢٧) ابن القلائس : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(٢٨) الانطاكي . المصدر السابق ، ص ١٨٥ ، ص ١٨٦ .

- ابن ظاهر : أخبار الدول المنتظمة - مخطوط بدار الكتب بالقاهرة رقم ٨٩٠ تاريخ ، ورقة ٦٦ .

وهذا الحادث يدل على أن ما فعله الحاكم بأمر الله لا يبدو أن يكون إجراء وقائياً ، كثيراً ما كان يتخذ أثناء الأزمات من هذا القبيل ، خشية وقوع اضطرابات لا يعتمد عقباها وحفاظا على أموال الدولة من الضياع أو النهب . ولقد اتخذ الحاكم بأمر الله مثل هذا الإجراء بعد مقتل أبي عبد الله الحسين بن طاهر ابن الوزان (ت جمادى الآخرة سنة ٤٠٥ هـ) ، إذ أحضر الكتاب ورؤساء الدواوين ، وسألهم عما يتولاها كل منهم ، ثم أمرهم بالعودة إلى وظائفهم والتفاني في عملهم (٢٩) .

ويسبق ستافلي لين بول على تعرض بعض كبار موظفي الدولة من أهل الذمة للرقابة الصارمة ، وكسوة الحاكم بأمر الله في توقيع العقوبات عليهم بقوله : « أن المسلمين في الوقت نفسه لم يكن حالهم بأحسن من حال هؤلاء » ، فقد كان الوزراء سواء منهم المسلمون والمسيحيون يقتلون ويمضون بلا تفرقة أو تمييز » (٣٠) .

وذكر ابن القلانسي أن أحد النصائري العاملين بخدمة ست الملك - وهو من القريين إليها - كتب رسالة يستصرخها ، ويشكو لها ما نزل بالناس من ظلم ، وما شمل الشام وأهلها من تصفد ابن النحوي متولى ديوان الشام ، فيها أن وصلتها الرسالة ، حتى دخلت على أخيها الحاكم بأمر الله ، وأخبرته بمضمون الرسالة ، وما أصاب رعاياه بالشام ، فما كان منه إلا أن أصدر أمره بقتل ابن النحوي (٣١) .

وإذا كان الحاكم بأمر الله قد اتبع سياسة التسامح مع أهل الذمة في بداية عهده متجنباً سياسة أبيه - بسبب تأثير أخته ست

(٢٩) القزويني ، خطب ، ج ٢ ، ص ٤١٠ .

(٣٠) لين بول - سيرة للقاهرة - ترجمة د. حسن إبراهيم ، طبع بالقاهرة

١٩٥٠ ، ص ١٣٥ .

(٣١) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٦٠ .

الملك التي كان يأخذ برأيها في بداية حكمه - ، فإن كبار موظفي الدولة من أهل النعمة انتهزوا هذه السياسة السبعة ، وجعلوا في تعيين بنى ملتهم في الدواوين الحكومية ، لدخول أن أصبح معظم موظفي الدولة من أهل النعمة ، وبذلك سيطروا على معظم الدواوين ، مما لفت نظر الحاكم بأمر الله ودعا إلى تسجيل أسماء سائر المسلمين المتعطلين من المتصرفين والكتاب الذين يصلحون للخدمة في دواوين الحكومة ليعينهم في وظائف الدولة ومرافقتها ، وذلك حتى لا يستأثر الموظفون النعميون بوظائف الدولة (٣٢) .

ومع ما عرف عن الحاكم بأمر الله من ميله إلى قتل المتحرفين من كبار موظفيه فإنه لم يسهل لمن تقاتل في عمله أو خلع الدولة بإخلاص وأمانة . فالشاقى زرعة بن عيسى بن تسطورس النصراني كان واحداً من القلائد الذين افلتوا من قضيه لأنه كان حسن السيرة ، محمود الطريقة ، محبوباً من سلطانته وسائر جنده وكتابه (٣٣) . أما أبوه عيسى بن تسطورس الذي قبض عليه في المحرم سنة ٣٨٧ هـ ثم قتل فقد كان خديجة ابن عمار (٣٤) .

كما كانت علاقة الحاكم بأمر الله بأطبائه من أهل النعمة علاقة ود وتقدير ، وتطوى على التسامح ولا تعرف التعصب ، فكان لهم المنزلة السامية ، والمكانة الرفيعة ، ومنحهم المطايا وخلع عليهم ، وقربهم إليه ، وأدناهم من مجلسه كما زار البعض منهم أثناء مرضه ، وتسجل أولادهم برعايته ، وأطلق لهم الأموال وأجزل لهم المطايا (٣٥) .

(٣٢) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

(٣٣) الانطاكي : نفس المصدر ، ص ٢٠٢ .

(٣٤) حاجد : للحكم بأمر الله ، الخليفة المقتدى عليه ، القاهرة ١٩٥٩ م .

ص ٥٦ .

(٣٥) القلي : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ، ٤٣٠ ، ٤٢٨ .

- ابن أبي أسيمة : المصدر السابق ، ص ٥٤٤ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ .

واذ كان البيض يقول ان الحاكم يأمر الله قبل اختياره قد
 قضى على نفوذ النصارى في مصر ، وأنهم أصبحوا في ذلك الوقت
 مهملين في الدولة (٣٦) ، فإنه يتضح من الأمثلة السابقة أنه كان
 يتصرف من مبدأ واحد ومنطلق واحد هو : أن يرى رعاياه وقد
 شملهم العدل ، وحرصه على أن يكون حكمه وموظفيه أكفاء يخلصون
 في خدمة رعاياه فلم يمزل هذا أو يقتل ذاك ، أو يقتل أو يصادر
 أو يعاقب أحدا تعصبا إلى جنس أو دين . وهذا ما يؤكد مجموعة
 المراسيم والسجلات التي أصدرها قبيل اختياره ، وكلها تفوح بروح
 التسامح والعطف على أهل الأمة وبخاصة نصارى مصر (٣٧) .

وما أن اختفى الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م حتى
 بويع ولده الظاهر لأعزاز دين الله بالخلافة ، وكان صبيا في السابعة
 عشر من عمره . ولذلك أخذ نفوذ عمته بنت الملك سنده النصارى
 القوي في مصر يظهر من حديد ويتزايد بصورة واضحة ، إذ كانت
 هي المدبرة لشئون الدولة وسياستها في تلك الفترة (٣٨) .

واستطاع الظاهر لأعزاز دين الله أن يكتسب عطف أهل الأمة
 ومحبتهم له ، فلقد أصدر مرسوما يوضح حسن رأيه ورضاه وتثبته
 في جميع موظفي الدولة ويعلمونهم على بقاء كل واحد منهم في
 وظيفته ، غير أنه في نفس الوقت ناشد رجال الدواوين وموظفي
 الدولة توخي العدل والسمير على خعة الرعية ، والقضاء على الفساد .
 غير أنه جد في اصلاح الجهاز الادارى للدولة ، فأجرى عملية تطهير
 في كل فروع الادارة الحكومية ، وأقصى العناصر الانتهازية وأصحاب

(٣٦) جاك تاجر . قياما ومسلمون منذ الفتح العربي الى سنة ١٩٢٢ م القاهرة

سنة ١٩٥١ م . ص ١٣٠ .

(٣٧) الانطاكي . المعصر السابق . ص ٢٢٨-٢٣٢ .

(٣٨) الانيا ميخائيل : المعصر السابق . ج ٢ ، ورقة ٦١ .

المصالح الشخصية ، وأبطل كل من شك في إخلاصه وولائه للخلافة (٣٩) .

كما كان كبار موظفي الدولة ووزرائه وبخاصة المسلمين منهم على علاقة حسنة بأهل النعمة . فقد كان الوزير علي بن أحمد محبا للنصارى ، متسامحا معهم ، وحسن العلاقة بأهل الذمة بوجه عام . وموجز القول فإن خلافة الظاهر لأعزاز دين الله اتسمت بالهدوء بسبب سياسة التسامح مع أهل النعمة ، وهذا ما عبر عنه مؤلف سير البيعة المقدسة بقوله : « وكان في أيامه هدوء وسلامة عظيمة » . وكان دين النصارى مستقيم وأهلهم مكرمين » (٤٠) .

وفي خلافة ابنه المستنصر بالله ازداد نفوذ أهل النعمة . فقد سيطر النصارى على دواوين الدولة ، وقد عبر عن ذلك المؤلف السابق ذكره بقوله أن « جميع مقلمي المملكة والناظرين في دواوينها وتدبير أمورهما كلهم نصارى ، وهم الملاك النافذ أمرهم » (٤١) . كما ازداد نفوذ اليهود في قصر الخلافة ، وقد تمثل ذلك في أبي سعيد التستري - متولى ديوان أم الخليفة المستنصر وفي العمور الخطير الذي قام به في عزل الوزير الأنباري وتعيين الوزير الفلاحى . كما استبد التستري بأمور الدولة وسياساتها في وزارة الفلاحى ، مما دعا الفلاحى الى تدبير مؤامرة لاغتياله سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م ، ولم يسج الفلاحى من غضب لم المستنصر ، فأوعزت الى ابنها بعزله ، ثم بقتله بعد مدة قصيرة سنة

(٣٩) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٢٥-٢٣٣ .

- ابن الفلاحى : المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٤٠) الأتيا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٦١ ، ٦٢ .

(٤١) الأتيا ميخائيل . نفس المصدر ، ورقة ٧٥ .

٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م - كما كان لأبي نصر هارون التستري - أخ
أبي سعيد - نفوذ كبير داخل قصر الخلافة ، فقد تدخل بصورة
مناصرة في شئون الدولة ، الأمر الذي أدى إلى اتهامه بالانحياز إلى
جانب أعداء الدولة من الرعاسيين ، وإلى مصادرة أمواله ومعاقبته ،
ثم بيوته سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م (٤٢) .

ولم يكن هذا آخر عهد أهل الفقه بالوزارة وتولي المناصب
الكبرى ، فقد تولى أبو سعد إبراهيم بن سهل التستري الوزارة
سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م ، ولكن ما لبث أن صرفه المستنصر عنها
في السنة التالية (٤٣) .

ولقد تعاطف بعض ولاة الأقاليم في خلافة المستنصر مع أهل
الفقه ، فوالى القاهرة سنان بن كابر كان يحب التصاري ويسطف
عليهم ، كما كان الأمير المؤيد حصن الدولة إلى الإسكندرية صديقا
لاقباط مصر ، محبا لهم ومهتما بأمورهم (٤٤) .

ومجمل القول أن أهل الفقه تمتعوا بنفوذ كبير في خلافة
المستنصر ، وإذا كان قد أصابهم مكروه أو تعرضوا لأذى ، فقد كان
ذلك في فترة الاضطرابات التي عمت البلاد في النصف الثاني من
عهده (٤٥) .

(٤٢) ابن خيمر : اخبار مصر ، تحقيق هنري ماسيه - القاهرة ١٩٦٩ م .
الجزء الثاني ، ص ٢٠١ .

(٤٣) ابن خيمر : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٥ .

(٤٤) الانبا عيشاكيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٧٧ .

(٤٥) الانبا عيشاكيل : نفس المصدر ، ج ٢ ، ورقة ٧٩ .

- جاك تلجر : المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

والسطور التالية تلقى الضوء ساطعا على بعض من تولى من
أهل النعمة المناصب الكبرى في الدولة - وعلى رأسها منصب الوزارة
والوساطة - كما توضح لنا اثر ذلك على سياسة الدولة ، ونتائجها
بالنسبة للمجتمع المصري بوجه عام خلال تلك الفترة من تاريخ
مصر .

الوزراء والوسطاء من أهل النمة

يعقوب بن كلث

يعتبر ابن كلث أبرز الوزراء الذين تقلدوا منصب الوزارة في مصر في العصر الفاطمي الأول . وهو من أهل النمة الذين أسلموا . ومن أعظمهم شأنًا ، ولذلك اهتم بالحديث عنه والترجمة له كثير من المؤرخين .

فهو يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود ابن كلث ، الوزير الكامل المكنى « بأبي الفرج » ، ولد ببغداد ونشأ بها ، وتعلم الكتابة ومبادئ الحساب ، ثم انتقل مع أبيه من بغداد إلى الشام ليعمل بالتجارة (٤٦) ، ولما نزل الرملة سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م عمل وكيلًا للتجارة بها (٤٧) وعندها تراكمت عليه الديون وعجز عن سدادها هرب من الشام ، وسافر إلى مصر سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م وفي مصر اتصل بكافور الأنشيلبي ، حيث كان يبيعه

(٤٦) للمعنى : هناك للبعثان في تاريخ أهل الزمان . الجزء ١٩ مقطوعة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ . ورقة ٤١٨ .
- ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب - طبعة القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ . الجزء الثالث . ص ٩٧ .

Mam : The Jews in Egypt and Palestine Under Fatimid (١٧)
Caliphs, Vol. I, p. 17.

ما يطلبه من البضائع والأمتعة ، ويحال بشتها على ضياع مصر (٤٨) .

ولكنه تردد ابن كلس على الريف اكتسب معرفة وخبرة بكل ما يتصل بحياة أهله ، وساعده على ذلك ما اشتهر به من دهاء وذكاء مفرط ومهارة في معرفة الضياع ، ولذلك اتسعت تجارته وذاع صيته ، وما لبث أن التحق بخدمة كافور وأصبح من المقربين اليه ، فعينه في ديوان الخاص ، ثم أسند اليه مهمة الاشراف على النواحي المالية في دواوين الحكومة ومراجعة مستنداتها قبل عرضها عليه . وأظهر ابن كلس مقدرة فائقة في الادارة ، فأعجب به كافور لمهارته وحسن سياسته وقال : « لو كان هذا مسلما لصلح أن يكون وزيرا » (٤٩) .

بلغ ابن كلس ما قاله كافور عنه وتقديره له ، والتصريح بصلاحيته للوزارة لو كان مسلما ، فأحضر من علمه شرائع الاسلام سرا ، وفي يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م أشهر اسلامه ، ولزم الصلاة ، وواصل دراسته للدين الاسلامي والفقه والتشريع (٥٠) .

ويرى بعض المؤرخين أن ابن كلس أعلن اسلامه علما في الوزارة وحيا في المنصب واشتياقا الى الولاية (٥١) ، وهذا

(٤٨) للنوري : نهاية الارب في فنون الالب . مخطوطة مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٥٤٩ معارف علمية ، الجزء ٣٦ ، ورقة ٤٩ .

(٤٩) ابن الفلاس : المصدر السابق ، ص ٣٢ .

- النوري : المصدر السابق ، ج ٣٦ ، ورقة ٤٩ .

(٥٠) ابن خلكان : وفيات الامين ، ج ٣٦ ، ص ٦ ، ص ٣٦ .

- المقريزي : القبط ، ج ٢ ، ص ٤ .

(٥١) ابن الفلاس : المصدر السابق ، ص ٣٢ .

- سبط بن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ١٥٢ .

ما ترجحه على الرغم من كثرة أعمال ابن كلس الدالة على حسن اسلامه والتي سوف نلقى الضوء عليها فيما بعد . -

وفي عهد كافور أصبح ابن كلس متافعا خطيرا للوزير ابي الفضل جعفر بن القرات وزير كافور - المعروف بابن حنزابه - ، وما أن توفي كافور سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م حتى أصدر ابن حنزابه أوامره بعزل ابن كلس ومصادرة أمواله والقبض عليه . غير أن ابن كلس استطاع بالرشوة وبمساعدة أعوانه أن يحصل على أمر بالاقتراج عنه ، فخرج من مصر قاصدا بلاد المغرب (٥٢) .

وسواء دخل ابن كلس المغرب والتصل بالمعز لدين الله الفاطمي قبل غزو مصر عن طريق بعض اليهود القريين اليه والذين يشجعون بالباطل الفاطمي ، وعاونوه في تدبير لفتح مصر ، ثم جاء معه عند قدومه الى مصر (٥٣) . أم أنه التقى بالقائد جوهر الصقلي أثناء سير الحملة من المغرب لفتح مصر فعاد معه (٥٤) ، فالحقيقة الثابتة أن ابن كلس منذ اتصاله بالمعز لدين الله كان على علاقة حسنة بدار الخلافة ، ويتمتع بثقته لكفائه وللبالغته في طاعته (٥٥) .

ويرى بعض المؤرخين أن يعقوب بن كلس تملك الوزارة في عهد المعز لدين الله (٥٦) ، بينما ترى الغالبية الكبرى منهم أن ابن كلس

(٥٢) ابن حاتمون : المعبر ومهران اثبتا والخير ، ج ٤ ، ص ٥٥ .

- الحيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤١٩ .

(٥٣) اثبتا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٤١ .

(٥٤) كلثومي : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

- الحيني : المصدر السابق ، ورقة ٤٩ .

(٥٥) ابن طاهر : المصدر السابق ، ورقة ٤٩ .

(٥٦) نفس المصدر والسلسلة .

- ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٥ .

- القلقشندي : صبح الاصحى في صناعة الاثنا ، ج ٢ ، ص ٣٥٧ .

قد تقلد الوزارة في عهد العزيز بالله (٥٧) ، الا انهم اختلفوا في تاريخ تقلده هذا المنصب وانقسموا الى فريقين :

فريق يرى انه تقلد الوزارة العزيز بالله سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م (٥٨) ، وفريق آخر يرى انه تقلدها في يوم الجمعة ثامن عشر رمضان سنة ٣٦٨ هـ (٥٩) .

هذا بينما يعهد المقرئ في اليوم الأول من المحرم سنة ٣٦٧ هـ تاريخا لتقلده الوزارة (٦٠) .

والواقع ان ابن كلس منذ اتصاله بالخليفة المنز قد تفانى في خدمته وطاعته ، وفي رابع عشر المحرم سنة ٣٦٧ هـ تقلد المنز الخراج ، ووجه الأعمال جميعها ، والحصية ، والسبواجل ، والأعمال والجوالي ، والأحياء ، والموارث والشرطية ، وجميع ما ينضاف الى ذلك ، وما يطرا في مصر وسائر الأعمال أيا الفرج يعقوب بن يوسف الوزير وعسلوج بن الحسن ، وكتب لهما بذلك سجلا قرئ يوم الجمعة على منبر جامع أحمد ابن طولون ، (٦١) .

(٥٧) ابن القلائس : (اللؤلؤ ، ص ٢٢) ، مبط بن الجوزي (مرآة الزمان ، ج ١١ ، ورقة ١٥٢) التويري (نهاية الأرب ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩) ، المقرئ (الخط ، ج ٢ ، ص ٥) ، لحيي (عقد الجمان ، ج ١٩ ، ورقة ٤١٩) ، ابن المعاصر (النجوم ، ج ٤ ، ص ١٥٨) ، ابن أبيه (كنز اللورد ، ج ٦ ، ورقة ١١٤) ، وابن العماد (ذخرات الذهب ، ج ٢ ، ص ٩٧) .

(٥٨) ابن القلائس : (اللؤلؤ ، ص ٢٢) ، مبط بن الجوزي (مرآة الزمان ، ج ١١ ، ورقة ١٥٢) ابن المعاصر (النجوم ، ج ٤ ، ص ١٥٨) ، ابن أبيه (كنز اللورد ، ج ٦ ، ورقة ١١٤) .

(٥٩) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٧ .

— التويري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

— لحيي : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤١٩ .

(٦٠) المقرئ : خط ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

— المقرئ : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ .

(٦١) المقرئ : أشبهت لثقتا بكثير الأئمة المخلصين الملكا لأجزء الأول ، تحقيق جمال الدين الكشمال ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

ولكن سيطرة ابن كلس على ادارة اللواوين ، وعظم منزلته في قصر الخلافة ، واقبال الناس عليه ، لم يترك مجالا للمؤرخين لابرار الدور الذي قام به عسلوج بن الحصن الذي شارك ابن كلس مسئولية الاشراف على اللواوين مدة خلافة المعز . كما ان استمرار ابن كلس على قمة الجهاز الحكومي في الدولة بعد وفاة المعز كان من الاسباب التي جعلت بعض المؤرخين يعتقدون ان ابن كلس قد تقلد الوزارة في عهد المعز .

ومن هنا يتضح لنا ان ابن كلس لم يتقلد الوزارة في عهد المعز ، اذ لم يقلد المعز الوزارة لاحد مدة خلافته . وبذلك يكون ابن كلس اول من وذر للمعز بالله في اول المحرم سنة ٣٦٧ هـ / / تاسع عشر أغسطس ٩٧٧ م واول من خاطب بالوزارة في عهد الفاطميين . ثم متحه المعز بالله في رمضان سنة ٣٦٨ هـ لقب « الوزير الاجل » ، وأمر ألا يخاطبه أحد ولا يكتبه الا به (٦٢) .

واشتهر ابن كلس بنجاح سياسته المالية ، اذ كان اول عمل قام به صبيحة تقلده الادارة المالية في المحرم سنة ٣٦٣ هـ / اكتوبر ٩٧٣ م ، هو اعلان المزاد عن الضياع والأراضي ومساير وجوه الأعمال التي تريد الحكومة الفاطمية اخذ خراجها عن طريق نظام التخصيم أو الالتزام . وقد حررت العقود بالمبالغ المطلوبة على الأراضي التي شملها نظام التخصيم وأسماء الضمان أو الملتزمين الذين رعا عليهم المزاد (٦٣) .

كما اخذ ابن كلس في اعتباره عية الأمور في وضع سياسته المالية ، وهذه الأمور هي :

أولا : العمل على زيادة إيرادات الدولة عن طريق المزاد لكل

(٦٢) المرفوعة . الخطيب . ج ٢ ، ص ٥ .
(٦٣) النوردي : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

ما تريد الحكومة تضييقه ، ليتمكن من الحصول على أعلى حصيلة للخراج متبعاً نظام القبالات (٦٤) أو الالتزامات . وهو النظام المعمول به في أنحاء الدولة (٦٥) .

ثانياً : زيادة عدد الضباع المطروحة للالتزام والقبالات في المزاد العلني (٦٦) .

ثالثاً : تحديد وتقدير الضرائب للمتقبلين والمتزمين والضمان ، وكذلك ما يصرف على الأراضي وتطهير وحفر الترع وإصلاح البصور حتى لا يتعرض أحد للتعسف والظلم ، وتأكيداً لذلك كان ينظر فيما يقدم من شكاوى (٦٧) .

رابعاً : التشديد في مطالبة المالكين والمتقبلين والعمال لتسوية التزاماتهم وتحصيل ما لديهم من مبالغ متأخرة وهي ما تسمى بالبواقي (٦٨) ونتيجة لهذه السياسة المالية زادت إيرادات الدولة زيادة كبيرة ، وبلغ جملة خراجها في سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م أربعة ملايين دينار (٦٩) وتحدثنا بعض المصادر أن ما تم تحصيله من أموال الخراج في يوم واحد من تقيس وحمياط والأشمونيين أكثر من مائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار ، ورغم أن هذا المبلغ في تقديره ، إلا أن المقرئى حبيستنكر هذه السياسة المتشددة في

(٦٤) خلاصة هذا النظام أن يعتمد شخص بجباية الضرائب في قرية أو قرية أو كور ، ويتم هذا العمل بطريق الزايدة وذلك لمدة أربع سنين ، للبرائى حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، ٣٢ .

(٦٥) المقرئى : اتفاق الحفظ ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

(٦٦) المقرئى : نفس المصدر ، نفس الصفحة ، ص ١٤٧ .

(٦٧) المقرئى : الحفظ ، ج ١ ، ص ٨٢-٨١ ، ج ٢ ، ص ٨ .

(٦٨) المقرئى : اتفاق الحفظ ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٦٩) البرائى : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، ص ٣٢٤ .

تحصيل الخراج بقوله « وهذا شيء لم يسمع قط بمثله في بلد » (٧٠)

على أن أهم إصلاحات ابن كلس المالية هو أنه اتخذ من الدينار المعزى العملة النقدية الجديدة - عملة رسمية بدلا من الدينار الراضى (٧١) ، وهو العملة التي كانت متداولة قبل مجيء الفاطميين إلى مصر - اذ امتنع ابن كلس وعسكولوج ابن الحسن أن يأخذوا ضريبة الخراج بالدينار الراضى ، وادعوا الناس على التعامل بالدينار المعزى ، فانحط الدينار الراضى ، ونقصت قيمته بمقدار الربع وأكثر (٧٢) .

وهنا لابد أن نلقى الضوء على أبعاد هذا الإصلاح المالي الجديد ومعزى هذا الإصلاح الذي يعد في الوقت نفسه أساسا لمياسة ابن كلس المالية .

ذلك أنه منذ استيلاء جوهر الصقلي على مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م حتى قدوم سيده المعز سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م ، ظل الدينار الراضى هو العملة السائدة في مصر رغم أن جوهر سك الدنانير الذهبية التي تحمل اسم الخليفة المعز ولقبه (٧٣) ، اذ كان الدينار الراضى آنذاك أكثر وزنا وأشد نقاء من الدينار المعزى (٧٤) . وعندما تولى ابن كلس الاشراف على الادارة المالية امتنع عن أخذ الدينار الراضى ورفض الا أن تكون جباية الخراج بالدينار المعزى . وقلدت قيمة الدينار الراضى بخصمة عشر درهما ، بينما صرف

(٧٠) المقريزي : الخطط . ج ٢ . ص ٥ .

_____ : أبحاث الحنفا . ج ٦ . ص ١٤٧ .

(٧١) نسبة إلى الخليفة للعباسي . (ماجد : ظهور دولة الفاطميين بمصر في مصر . ص ٣٦٧) .

(٧٢) المقريزي : أبحاث الحنفا . ج ١ . ص ١٤٦ .

(٧٣) عبد الرحمن قهس : موسوعة التقويم العربية وعلم اللغات . الجزء الاول (فهر السكة العربية) . ص ١٩٨ .

(٧٤) الجبرائيل : المصدر السابق . ص ٢٠٣ .

الدينار المعزى بخمسة عشر درهما ونصفه ، فاضطر الناس الى بيع الدينار الراضى بأقل من قيمته (٧٥) ، كما دخلت الحكومة الفاطمية نفسها في هذه المضاربة مشترية بالسمر الذى حددته (٧٦) .

وكان هذا الإصلاح المالى يرمى الى زيادة مالية الفولة عن طريق الربح الناتج من فرق الوزن بين الدينارين . وذلك بسحب الدنانير الراضية - الأكثر وزنا والأشد نقاوة - وإجبار الناس على بيعها واستبدالها بالدينار المعزى - الأقل وزنا - فخسر الناس من أموالهم الشيء الكثير (٧٧) .

وإذا كان ابن كلس قد اتخذ من الدينار المعزى أساسا للتعامل النقدي ، فإنه أراد بذلك التأكيد على أهم مظهر من مظاهر سيادة الدولة الفاطمية ، واستقلالها السياسى عن السيادة العباسية . ولقد نجح ابن كلس في سحب هذه العملة التى كان لها قيمتها فى نفوس الناس وإجبارهم على التعامل بعملة جديدة تحمل صفة الدولة الفاطمية الشيعية المذهب (٧٨) .

ولقد هيا ابن كلس كل فرص النجاح لإدارة الدولة ، فبجرد توليه الوزارة ، أحكم سيطرته على اللواوين ، ونقل مقرها من قصر الخليفة ، واتخذ من داره مقرا لها . ثم أنشأ ديوانه العزيزية ، يختص بعثون الخليفة العزيز ، وعين بهذه اللواوين خيرة الكتاب والموظفين والجهابذة لإدارتها والحق بها خزانة للكسوة ، وخزانة للمال ، وخزانة للدفاتر ، وخزانة للأدوية وعين على رأس كل منها

(٧٥) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ .

(٧٦) عبد الرحمن فهمى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

(٧٧) المقريزى : اتماع الحظا ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

... البراوى : المرجع السابق ، ص ٤-٣ .

(٧٨) عبد الرحمن فهمى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٩٨ ، ٢٠٢ .

• ناظر : للإشراف عليها (٧٩) •

ورتب ابن كلث في داره الحجاب ، وحسن داره بالحرس الخاص ، وزودها بالكتاب والأطباء والصيدلة ، وأفرد لكل طائفة من العلماء ، والأدباء والشعراء ، والفقهاء ، وللتكلمين ، وأرباب الصنائع الأماكن الخاصة بهم ، وأجرى على كل واحد منهم الأوراق والمرتبات - كما أنشأ مجلساً للنظر فيما يعرض عليه من شكاوى وتظلمات للفصل فيها ، وكان بيت فيها بنفسه ، ويسجل على قض المنازعات بين الخصوم (٨٠) •

وبذلك أصبح قصر ابن كلث مقراً لإدارة أقاليم الدولة في مصر والشام والحرمين وبلاد المغرب (٨١) ، وأتاب عنه في تلك الأقاليم عمالاً ، وعيونا له يكتبون إليه بأخبار الولاة (٨٢) ، ليكون على دراية تامة بكل ما يدور في هذه الأقاليم من أحداث ، كما استفاد من صداقته ومصاهرته للوزير ابن الفرات (ت ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م) فعول عليه في محاسبة العمال (٨٣) •

وكان ابن كلث يجلس في داره - حيث دواوين الحكومة - يأمر وينهى ، وتمرض عليه كل أمور الدولة وسياساتها للبيت فيها (٨٤) ، فأرداد نفوذه وعظمت مكانته •

(٧٩) المقيت : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ •

(٨٠) — : نفس المصدر ، ص ٦ •

(٨١) — : نفس المصدر والجزء ، ص ٥ •

(٨٢) ابن اللاتني : المسند السابق ، ص ٢٩ •

(٨٣) علي إبراهيم : تاريخ جوهري للملك ، ص ٧٨ •

(٨٤) المقيت : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ •

لذا يرى بعض المؤرخين أن العزيز بالله فوض أمور الدولة إلى ابنه كلس (٨٥) ، وأنه كان « متمكناً من صاحبه (٨٦) » وأنه « غلب على العزيز » (٨٧) ، وأنه « لم يبق لأحد معه كلام » (٨٨) .

فما هي حقيقة الأمر ؟ ، هل كانت وزارة ابن كلس وزارة تفويض أم وزارة تنفيذ ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال لابد منلقاء مزيد من الضوء على مكانة ابن كلس في دولة الفاطميين .

لقد تقلد ابن كلس الوزارة - كما سبق الإشارة - في أول المحرم سنة ٣٦٧ هـ ، ولقبه العزيز في رمضان سنة ٣٦٨ هـ / أبريل ٩٧٨ م بلقب « الوزير الأجل » وخلع عليه ، ثم أصدر مرسوماً في المحرم سنة ٣٧٣ هـ / يونيو ٩٨٣ م أن يندأ في مخاطبته ومكاتبته باسمه على المكاتبات النافذة عنه (٨٩) ، فكان يكتب عليها : « من يعقوب بن يوسف وزير أمير المؤمنين إلى خلائه » (٩٠) - بل أن العزيز بالله رفع إلى وزيره رتبة سنة ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م يقول في أولها : « سلم الله الوزير وأبقى نعمته عليه » ولم يكن ذلك

(٨٥) ابن شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٥ . ابن الكلبي (التلويح ، ص ٣٢) .

سيب بن الجوزي (حركات الزمان ، ج ١١ ، ورقة ١٥٢) ، ابن هانر (أخبار الدول المنقطعة ، ورقة ٥٤) ، القويري (نهاية اللبيب ، ج ٣٦ ، ورقة ٤٤) .

(٨٦) بيزرس الدومار : زينة الفكرة في تلويح الهجرة ، للجزء السادس ، مخطوطة مسمو ر بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦-٢٧ ، ورقة ٢٧٢ .

(٨٧) سيب بن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ١٥٢ .

(٨٨) العيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤١٩ .

(٨٩) القويري : المخطوط ، ج ٢ ، ص ٥ .

(٩٠) ابن خلائر : المصدر السابق ، ورقة ٥٤ .

الا تقديرا للرجل ومكانته . وقضلا عن ذلك فقد أقطعه الاقطاعات
والضياع بمصر والشام . وأذن بكتابة اسمه على الطراز تكريما
له (٩١) . كما خطب وجه الثمراء والأدياء ومتم أبو الرقعمق
(ت ٣٩٩ هـ) صاحب الجون والنوادر (٩٢) . كما منحه كبار
رجال الدولة وقوادها ، فهذا جعفر بن فلاح - القائد المغربي -
يكتب الى ابن كلس قائلا :

ول صديق ما منى علم مد نظرت عينه الى علمي
أعني وأنتي ولم يكلفني تقبيل كد له ولا قدم (٩٣)

ومع تزايد نفوذه وعلو مكانته فقد اتخذ ابن كلس سنة
٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م موقفا عدائيا من الكتامين - وهم الدعاة التي
قامت عليها دولة الفاطميين - وربما كان ذلك بسبب حقدهم عليه
لاستشاره بالسلطة والنفوذ ، كما أنه عزل جوهر القائد من منصبه ،
مما أدى الى مواجهة عنيفة بينه وبين الكتامين الذين حاولوا اغتياله
سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م مما اضطره بعد ذلك بثلاث سنوات الى أن
يسقط المغاربة ويستخضع الأتراك والأخشيدية (٩٤) .

ومع ما كان يتمتع به ابن كلس من قوة ونفوذ ومكانة سياسية
ومهارة إدارية فإن الخليفة العزيز بالله كان يمتلك من القوة والارادة

(٩١) للتواريخ : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

(٩٢) للخالين : قيمة الدرر ، ج ١ ، ص ٣٣٦ ، ٤٢٧ .

- ابن العماد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٥ .

(٩٣) أبو الحسن : التيجون الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٤ .

ص ٥٩ .

(٩٤) بيريوس النوادر : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ٢٥٦ .

- للتواريخ : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

ما يستطيع به في الوقت المناسب وفي اللحظة الحاسمة أن يكبح جماح وزيره ، ليصبح خطأ ارتكبه وليعيد الأمور إلى نصابها . بل ويجرده من جميع مناصبه وسلطاته والقابله وثروته ويعتقله إذا لزم الأمر .

وقد ذكر لنا المؤرخون ان العزيز بالله اتخذ موقفا حازما من ابن كلث وهو في أوج عظمته - ففي سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م توفي القائد التركي أفتكين ، وكان مقربا من الخليفة العزيز بالله ، ومن أخص خدمه وجبابه ، مما دفعه إلى الترفع على الوزير ابن كلث ومقاطعته ، فصارت بينهما المداوة والكراهية ، ونارت شكوك العزيز بالله حول ابن كلث فلما منه أنه قد حس السهم لأفتكين ، فأنه بذلك وأمر باعتقاله ، وعزله من منصبه في شوال سنة ٣٧٣ هـ (٩٥) ، ونقل المومنين من دار الوزير إلى قصر الخلافة (٩٦) ، ورد النظر في أمور الدولة إلى خير بن القاسم (٩٧) . ولم يكتف العزيز بكل ذلك ، بل صادر أموال ابن كلث وجرده من القابله ومعا اسمه من الطراز (٩٨) .

وليث ابن كلث في الاعتقال عدة شهور ، فارتبكت أمور الدولة ، وسادت أحوالها . مما اضطر العزيز بالله إلى إطلاق سراحه سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م . وإعادته إلى الوزارة والخلافة عليه ، كما أصدر

(٩٥) بيهق للواءدار : المصدر السابق . ج ٦ ، ورقة ٢٢٨ .

- للوزير : المصدر السابق . ج ٣٦ ، ورقة ١٨ . ٤٩ .

(٩٦) الأتاكم : المصدر السابق . ص ١٦٤ .

(٩٧) المقرئ : القطع . ج ٢ . ص ٥ .

(٩٨) المقرئ : لقطعة للخطا . ج ١ ، ٣٢٢ .

- للوزير : المصدر السابق . ج ١٩ ، ورقة ٤٨ . ٤٩ .

مرسوماً يرد ما أخذ من أمواله وزاد عليها . وإعادة اسمه إلى الطراز .
وإن يتقدم الوزير موكب من عدة خيول تكريماً له (٩٩) .

ولا يعني هذا الحادث إلا التأكيد على أن الخلفاء الفاطميين
الأوائل كانوا يسكنون بالسلطة العليا في أيديهم . وإن الوزراء مهما
كانت منزلتهم كانت لهم المكانة الثانية في الدولة . كما يؤكد أيضاً
- رغم ما يذكره مؤرخو مصر الإسلامية من تعامل نفوذ ابن كلث -
إن الوزير كان يأسر بأمر الخليفة . ويتخذ سياسته وإن وزارة ابن
كلث كانت وزارة تنفيذ . ولم تكن وزارة تفويض . ولقد حرص ابن
كلث على تنفيذ أوامر العزيز بالله وتقديم فروض الطاعة والولاء له .
كما حرص دائماً على أن يشبث له أنه عند حسن الظن به عندما كان
يحاول اعتاؤه الوشاية به والطمس فيه (١٠٠) .

ويعتبر ابن كلث أبرز رجال الدولة الفاطمية الذين قادوا
الحركة العلمية في العصر الفاطمي الأول . ومن القلائل الذين نافسوا
أسرة النعمان - التي أخذ رجالها غل عاتقهم بشر المذهب الشيعي -
في تدريس وإرساء مبادئ الفقه الشيعي (١٠١) . فقد ألّف ابن
كلث كتاباً كان وزارة تنفيذ . ولم تكن وزارة تفويض . ولقد حرص ابن
كلث على صنف « الرسالة الوزيرية » . وهي كتاب في الفقه الشيعي على
المذهب الإسماعيلي . روى فيه عن الأئمة الفاطميين خاصة ما سمعه
من الخليفين المعز والعزيز . وكان هذا الكتاب من المراجع التي
يعتمد عليها العلماء فيما يصدرونه من الفتاوى والأحكام كما كان

(٩٩) الانتاكي : المصدر السابق . ص ١٦٤ .

- المقرئ : انطباع الحفظ . ج ١ . ص ٣٦٢ .

(١٠٠) المقرئ : انطباع . ج ٢ . ص ٦ .

(١٠١) ابن حجر العسقلاني : رفع الأمر عن قضاء مصر . القسم الثاني .

تحقيق د . حامد عبد المجيد (القاهرة ١٩٦١) . ص ٢٠٩ .

هذا المؤلف من المؤلفات الهامة التي كان يدرسها الفقهاء (١٠٢) .

ولم يقتصر ابن كلس على مصنفه السابق الذكر ، اذ يذكر القرينى ان من مؤلفاته كتاب فى القراءات ، وكتاب فى الأديان ، وكتاب فى آداب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكتاب فى علم الأبدان وصلاحها وهو مؤلف يقع فى ألف ورقة (١٠٣) .

كما علقه ابن كلس الندوات الخاصة فى كل يوم ثلاثاء ، وكان يحضرها بنفسه مع الفقهاء والعلماء وأهل الراى ، يتناظرون بين يديه ، وكان اذا جلس يقرأ كتابه فى الفقه الذى سمى من الخليفتين المميز والمميز التف حول مجلسه الخاصة والعامة يستمعون اليه (١٠٤) .

ويذكر ابن كلس قصارى جهده لنشر أفكاره ومؤلفاته . فكان يجلس فى يوم الجمعة ، ويقرأ بنفسه مصنفاته على الناس ليعطيها اهتماما خاصا ، وكان يحضر هذه المجالس القضاة والفقهاء والقراء والمصالح الحديث والنسابة والشهود فاذا فرغ من قراءته قام الشعراء يمدحونه (١٠٥) .

وقد شجع المميز بالله هذه المجالس العلمية ، فاجرى لجماعة الفقهاء الذين يحضرون مجالس الوزير أذواقا فى كل شهر تكفيهم (١٠٦) .

(١٠٢) الاطباكى : المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

- القرينى : الخطب ، ج ٢ ، ص ٦٠٤ .

(١٠٣) القرينى : الخطب ، ج ٢ ، ص .

(١٠٤) — : نفس المصدر ، ج ٢ ،

(١٠٥) — : نفس المصدر .

(١٠٦) — : نفس المصدر .

واتخذ ابن كلس من الجوامع مراكز لتشر الدعوة الفاطمية ،
ولذلك امتلكت إليها يد الإصلاح والتعمير ، وتحت إشرافه أدخل كثيراً
من التحسينات على جامع عمرو بالقسطنطين ، الذي كان لا يزال إلى
وقت مجيء الفاطميين من أهم مراكز الدراسة والتعليم والإشعاع
الفكري في العالم الإسلامي . وفي هذا الجامع تناول الفقهاء والعلماء
مؤلفات ابن كلس في الفقه والقراءات بالدراسة والشرح (١٠٧) .
كما اتخذ من جامع الحاكم ، وهو الجامع الذي وضع ابن كلس
أساسه سنة ٢٨٠ هـ / ٩٩٠ م مركزاً آخر لنشر تعاليم المذهب
الإسماعيلي ، واجتمع في ساحته الفقهاء للدراسة على غرار ما كان
يجري بالجامع الأزهر (٨ - ١٠) .

وفي العصر الفاطمي الأول اشتهر الجامع الأزهر كأعظم جامعة
علمية إسلامية ، وروح الفضل في ذلك إلى الوزير العالم يعقوب
ابن كلس . وفي سنة ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م وافق العزيز بالله - بناء
على اقتراح ابن كلس - على تحويل الجامع الأزهر إلى جامعة علمية
ومركز للدراسات الفقهية لكل ما يتعلق بالمذهب الإسماعيلي ، وعين
بالأزهر خمسة وثلاثين من كبار الفقهاء ، وخصص لهم الرواتب
الشهرية المجزية ، وأنشأ لهم داراً ملحقة بالجامع الأزهر لسكنائهم ،
وكانوا يعقلون به نفقاتهم العلمية الأسبوعية عقب انتهاء صلاة
الجمعة وحتى صلاة العصر . ونال العزيز في تكريم هؤلاء العلماء ،
فبدل لهم العطايا ، ومنحهم الخلع وأمر أن يركبوا البقال تقليداً لهم ،
ويع كل ما ناله هؤلاء العلماء من تكريم لم ينس ابن كلس أن يقدم
لهم الصلوات والمنح كل عام مكانة وتشجيعاً لهم (١٠٩) .

(١٠٧) المقريزي : القسطنطين . ج ٢ . ص ٦ . ٢٤٨ . ٢٤٩ .

- خطاب علي : التعليم في العصر الفاطمي الأول (القاهرة ١٩٤٧ م)

١ ص ٩٠٠ ، ١٠١ .

(١٠٨) المقريزي - المصدر السابق - ص ٢٧٦ .

(١٠٩) - نفس المصدر - ص ٢٧٦ .

وجالس ابن كلثوم أهل العلم والأدب ، وجميع بذوره العلماء والفقهاء والأدباء والتمهره والمتكلمين والنساج والمشتغلين بتجليده الكتب والدفاتر ، وخصص لهم الرواتب الشهرية ، واهتم بزيادة اعتماد الكتب والمؤلفات ، فمضى كتاباً لنسخ الكتب ومراجعتها وضبطها خضية التحريف وحفاظاً على التراث (١١٠) . كما ردد ابن كلثوم هؤلاء العلماء بكل ما يحتاجون اليه ، فأسس مسجداً بذوره وعين له القراء والأئمة للصلاة ، وأنشأ عدة مطابخ لخدمتهم ، ودعا إلى ما أمته أهل العلم ووجوه الكتاب ، وأقام مثل هذه المآدب في شهر رمضان للفقهاء ووجوه الناس فإذا فرغوا من تناول الطعام كان يطاق عليهم بالطيب (١١١) .

ونافس الوزير ابن كلثوم قاضي القضاة علي بن النعمان القيرواني في نشر عقائد الفاطميين وفرض القبول على تصرفات القاضي وأحكامه الفقهية بالدرجة التي جعلت القاضي ابن النعمان يبطل الجلوس بالجامع لمخالفة الوزير في التقليل من شأنه وأهميته (١١٢) . كما وقف ابن كلثوم بالمرصاد وتصدى للعلماء والمؤلفات التي لا تنحوا شيعية ، وكان يصيب المؤلفين المعارضين لسياسته الموت أو الاعدام ، وتصيب مؤلفاتهم الحرق أو الإهمال (١١٣) .

وإذا كان هذا موقفاً خاطئاً بالنسبة للحركة العلمية وحرية الرأي والتعبير ، إلا أنه من وجهة نظر ابن كلثوم كان أجراً وقائياً

(١١٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

— المديني : الخط ، ج ٢ ، ص ٨ .

(١١١) المقريزي : نفس المصدر والمقدمة .

(١١٢) ابن حجر : المصدر السابق ، ص ٤٠٩ .

(١١٣) القليبي ، المصدر السابق ، ص ٢٨٥ .

— خطاب عطية : المصدر السابق ، ص ٩٦ .

الهدف منه حماية الفقه الشيعي الاسماعيلي الذي لم يكن قد استقرت قواعده بعد من أعداء الفاطميين .

وبوفاة ابن كلث سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م تخلصت الدولة الفاطمية واحدا من أغصان وزرائها البارزين الذين أسهموا بجهده وافر في رسم وتنفيذ سياستها الداخلية والخارجية .

عيسى بن نسطورس :

لم يستوزر العزيز بالله الفاطمي أحدا في الوزارة بعد ابن كلث ، وإنما ألقا منصباً جديداً هو منصب « الوساطة » (١١٤) .

ويأتي عيسى بن نسطورس في مقسطة الذين تولوا منصب الوساطة في مصر في العصر الفاطمي الأول ، وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية قد اختلفت في تاريخ تقليد الوساطة (١١٥) ، إلا أنه من المرجح أن العزيز بالله قسم أعمال الوزير ابن كلث المتوفى في سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م بين كبار رجال دولته ، وعهد بإدارة الشؤون المالية للبلاد إلى عيسى بن نسطورس وهو نصراني من أقباط مصر (١١٦) . لم يلبث أن دفعه إلى منصب الوساطة سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م ، فاشرف على كل دواوين الدولة وأحكم سيطرته عليها ، وخاطب سائر الكتاب عن العزيز ، وخاطبه سائر الأولياء وكافة

(١١٤) العزيزي : الضبط ، ج ١ ، ص ٤٢٨ .

— ابن العبري اليكوي - عين الأخبار ونزهة الأسرار ، مخطوط بدار الكتب بالقاهرة برقم ٧٢ ، تلويح مكتبة مصطفى باشا ، ورقة ١٤٧ .

(١١٥) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٩٠ .

— العيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤٢١ .

(١١٦) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٥ .

الناس في مهماتهم وتوقعاتهم » (١١٧) . كما عين العزيز بالله منشأين القزاز اليهودي نائبا له على الشام (١١٨) .

واشتهر عيسى بن نسطورس بسياسة الحازمة ، وكفائه الادارية ، وقدرته على ضبط وتصيل الخراج (١١٩) . ويرى الانطاكي أن ابن نسطورس « رسم أيام نظره وسوما جائرة ، وأحدث مكوسا زائفة على ما جرى الرسم يأخذه » (١٢٠) بينما يقول Mann « وكان عيسى قاسي القلب مرايا ، خص نفسه بكل الأعمال المربطة ، وزاد كثيرا من الضرائب » (١٢١) .

ومما زاد الطين بلة أن عيسى اتبع سياسة ادارية كانت على جانب كبير من الخطورة ، إذ تعصب لبني ملته وعينهم في الادارات والنواوين الحكومية ، وعزل الكتاب وجبسة الضرائب من المسلمين (١٢٢) .

وفي الشام كانت فترة الأربع سنوات التي حكم فيها منشأ دمشق عصرا ذهبيا بالنسبة لليهود الشام (١٢٣) ، إذ فتح أبواب المناصب العليا في دوائر الشام أمام اليهود ، وقدمهم على غيرهم ، وأبعد المسلمين المخلصين بالنواوين من الاشتغال بها ، وأغلق باب

(١١٧) القزويني : انطاكي لخطا ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .

Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, (١١٨)
p. 118.

(١١٩) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(١٢٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

(١٢١) Mann : Op. cit., Vol. I, p. 19.

(١٢٢) توتون : اهل اللغة في الاسلام ، ترجمة د. حسن حنفي ، الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٣ .

— ابن اللاتس : المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(١٢٣) Mann : Op. cit., Vol. I, p. 19.

التوظف والعمل أمامهم (١٢٤) .

ولقد تركت هذه السياسة المتحيزة آثارا سيئة سوف نوضحها فيما بعد .

عهد بن ابراهيم :

ويأتي أبو العلاء فهد بن ابراهيم النصراني - وهو من أبناء ريف مصر - كواحد من كبار موظفي الدولة الذين علا شأنهم كشخصية سياسية لها وزنها وتأثيرها في سياسة الدولة العاطمية ايان الفترة التي تولى فيها أبو الفتح برجوان منصب الوساطة سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م (١٢٥) . اذ عول برجوان على كاتبه أبي العلاء فهد بن ابراهيم في النيابة عنه ولقبه بالرئيس ، فقام بتدبير امور الدولة واحكام سيطرته عليها (١٢٦) .

وأبدى فهد نشاطا كبيرا في خدمة برجوان ، فكان يجلس في المحاليز الاول بقصر الخلافة في عهد الحساكم بأمر الله ينظر في الشكاوى والتظلمات للبت فيها (١٢٧) . ثم عرض على برجوان ما يحتاج الى العرض على الخليفة ، فبخرج الأمر بما يكون العمل به (١٢٨) .

(١٢٤) ابن الجوزي : الملتزم في تاريخ الملوك والامم ، الطبعة الاولى

طبعة حيدر اباد ١٣٥٨ هـ - ١٢٥٩ هـ ، ج ٧ ، ص ١٩٠ .

- التتويج : المصدر السابق ، ج ٤٩ .

(١٢٥) ابن الكلبي : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(١٢٦) الاتكافي : المصدر السابق ، ص ١٨١ .

(١٢٧) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٩ .

(١٢٨) المقريزي : الخلفاء - ج ٧ ، ص ٣ .

وقد استقامت أمور الدولة بمصر والشام أثناء وساطة برجوان بفضل جهود كاتبه أبي الملا فهد (١٢٩) . ولما ازداد نفوذ برجوان ، واستبد بمقاليد الأمور وأصبح خطرا على الخلافة ، قتله الحاكم في السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٣٩٠ هـ (١٣٠) .

وبعد قتل برجوان استلم الحاكم بأمر الله أبا الملا فهد ابن ابراهيم وأمنه ، وقال له : « أنت كاتبى ، وصاحبك عيسى ، وهو كان الواسطة بينى وبينك ، وجرت منه أشياء أنكرتها عليه ، فجازيته عليها بما استوجبه ، فكن أنت على رسمك فى كتابتك ، آمنا على نفسك ومالك (١٣١) » ثم عقد الحاكم بأمر الله اجتماعا لكبار رجال دولته وكتابه ومهم فهد وقال لهم : « ان هذا فهدا ، كان أمسى كاتب برجوان عيسى ، وهو اليوم وزيرى ، فامنعوا له وأطيعوا ، ووخوه شروطه فى التقسم عليكم ، وتوفروا على مراعاة الأعمال ، وحراسة الأموال » ، فقبل فهد والحاضرون الأرض بين يلى الحاكم ، وأجابوا بالسمع والطاعة . ثم وجه الحاكم حديثه الى فهد قائلاً له : « أنا حامد لك ، وراضى عنك ، وهؤلاء الكتاب خصى ، فاعرف حقوقهم ، وأجمل معاملتهم ، واحفظ حرماتهم ، وزد فى واجب من يستحق الزيادة بكتابته وأمانته ، وتقدم بأن يكتب الى سائر ولاة البلاد والأعمال بالسبب الواجب لقتل برجوان » (١٣٢) .

وعلى الرغم من أن قتل برجوان يعتبر بمثابة مرحلة جديدة فى

(١٢٩) ابن اللاتى : المصدر السابق . ص ٥٤ .

(١٣٠) الانطلى : المصدر السابق . ص ١٨٥ .

— المروزى : الخط ، ج ٢ . ص ٣ .

(١٣١) المروزى : اتصل للخلف بأخبار الأمة الخلف . الجزء الثانى ، تحقيق

د. محمد حلمى أحمد . القاهرة ١٩٧١ ، ص ٢٦ .

(١٣٢) ابن اللاتى . المصدر السابق . ص ٥٦ .

خليفة الحاكم بأمر الله ، اذ بعد مقتله انتقلت اليه السلطة الفعلية في الدولة ، الا أن حديثه الذي وجهه الى كبار موظفي الدولة كان أمرا صريحا بالتزام الطاعة لفهد والتعاون معه في تنفيذ سياسته الجديدة . كما أن خطابه الى فهد يوضح الخطوط العريضة للسياسة العامة التي يجب أن تسير عليها أجهزة الدولة في تلك المرحلة ، وحرصه على استمالة كبار رجال الدولة اليه ، وتخليقه فهد بشرح الأوضاع الداخلية في البلاد والسبب الذي استحق من أجله برجوان عقوبة الاعدام . وكان هذا التكليف بمثابة حملة إعلامية ضد رجل استقامت له الأمور في فترة توليه منصب الوصاية في الدولة . اذ استمال المشاركة ، ورد من فصلهم ابن عمار من الكتاب الى وظائفهم وأبدى اهتماما خاصا بموظفي الدولة من الأقباط ، مما أدى الى استقرار العمل بالدواوين . كما لاقت سياسته الخارجية نجاحا كبيرا ، فقد عقد هدنة مع الروم سنة ٢٨٨ هـ / ٩٩٨ م لمدة عشر سنوات ، تبودلت على الرها الهدايا بين الحاكم بأمر الله والامبراطور البيزنطي .

لكن الحاكم بأمر الله لم ينس أن ينصب مع فهد رجل الدولة البارز الحسين بن جوهر ، ولقبه بقائد القواد ، يتقاسم السلطة والنفوذ مع فهد حتى لا ينفرد بأمور الدولة وسياستها ، أو خشية ازدياد نفوذه فيصبح خطرا على الخلافة . فكان فهد وابن جوهر يجلسان بقصر الخلافة وينظران في الأمور ، ثم يدخلان وينهيان الحال الى الخليفة . غير أن فهد لقي حتفه في ثامن جمادى الآخر سنة ٣٩٣ هـ عندما أمر الحاكم بأمر الله بقتله (١٣٣) .

وتتضارب الروايات في أسباب مقتل فهد . فيرى مؤلف

(١٣٣) الاطلسي : المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

- القريني : للخط ج ٢ ، ص ١٢ ، ١٤ ، ٣٠ .

« سير البيعة المقنسة » أن الحاكم بأمر الله ضرب عتق فهد ، وحرق جسده لأنه لم يبيعه إلى اعتناق الإسلام معه أن وعده بالمنزلة السامية والمنصب الرفيع (١٣٤) . وبينما يرى ابن القلائس أن الحاكم بأمر الله قتل فهد نتيجة مؤامرة أحكم تدبيرها ابن العباس (والى ديوان الحجاج) بالاتفاق مع أبي طاهر النحوى (والى ديوان الحجاز) اللذان وشيا به عند الحاكم ، وأشارا إلى الثروة التى جمعها ، وما اقتطعه لنفسه من أقطاعات عديدة . ووعده الرجلان الحاكم بأمر الله بالمثل بدلا منه أن تخلص منه ، على أن يقوما بتوفير مبلغ ستة آلاف دينار كان فهد يأخذها لنفسه (١٣٥) . هذا بينما يذكر المقرئ أن السبب فى مقتل فهد هو تعصبه للنصارى ، وتمكينه إياهم من السيطرة على دواوين الدولة وأعمالها ، بالدرجة التى أصبح فيها « آفة على المسلمين وعنة للنصارى » (١٣٦) .

ونرى الآخر برواية المقرئى ، بجانب رواية ابن القلائس ، خلافا لما ذهب إلى الرواية الكنسية . وحجتنا فى ذلك أن الحاكم بأمر الله عندما أسند منصب الوساطة إلى فهد كان يعلم أنه على دين النصرانية ، وإن الحاكم بأمر الله لم يسعه إلى الإسلام أو يلزمه باعتناق الدين الإسلامى شريطة تقلده الوساطة ، كما هو واضح من الخطاب الذى وجهه إلى فهد أمام كبار رجال الدولة فى الاجتماع الذى سبق الإشارة إليه ، بل طالبه بحسن السياسة والتدبير ، وطالب الآخرين بالسمع والطاعة للرجل الذى أولاه ثقته . وإذا كان الحاكم بأمر الله قد تعرض بالسوء لمعاونى فهد ولأخيه ، فذلك لسوء سياستهم (١٣٧) ، أما أولاد فهد ، فإنه أمر أن ترد أموال أبيهم إليهم ،

(١٣٤) الألبا حيقايل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥٥ .

(١٣٥) ابن القلائس : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(١٣٦) المقرئى : المخطوط ، ج ٢ ، ص ٣٠ .

(١٣٧) ابن القلائس : المصدر السابق ، ص ٦١ .

وإن تعاد إليهم سروجهم المحلاة وأمرؤا يالركوب بها (١٣٨) . ثم
أحضرهم إلى قصره وخلع عليهم ، وأعطاهم مرسوم أمان بخصائهم
وسيانة دودهم وحملاتهم مع علم التمرض لهم (١٣٩) .

منصور بن عيسى :

هو واحد من كبار رجال أهل النعمة الذين تولوا أرقى وظائف
الدولة ، تولى ديوان الشام قبل توليه منصب الوصاية في مصر ،
وصف بأنه « كان رجلا نصرانيا خبيثا جلفا » (١٤٠) . وقد اشتهر
بمقدرة الإدارية والمالية ، ولم نجده في دواوين الحكومة وأصبح
مقربا من قصر الخلافة (١٤١) . وفي الحادي عشر من صفر سنة
٤٠٠ هـ ، عقد الحاكم بأمر الله مجلسا يدار الخلافة حضره كبار
رجال الدولة وأصحاب الدواوين وقرر تعيين منصور بن عيسى
النصراني في منصب الوصاية وقرئ سجله على الحاضرين (١٤٢)
ثم منحه بعد فترة قصيرة من وصايته لقب « الكافي » (١٤٣) ، وكتب
له سجلا بذلك وحمل على بغلتين تزيها له (١٤٤) . كما سمح
له بالتوقيع على والنظر في أمور الدولة (١٤٥) فجد ابن عيسى في
جميع أموال الدولة ومواردها مما جعل الحاكم بأمر الله يشتد به بقوله :

(١٣٨) الفريز : لتعلم الخلفاء ، ج ٢ ، ص ٤٤ .

(١٣٩) ابن الفلكي : المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(١٤٠) — : المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٤١) الفلكي : المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(١٤٢) الفريز : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٦ .

— : الفريز : الفسطح ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ .

(١٤٣) الفلكي : المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(١٤٤) الفريز : انما للخط ، ج ٢ ، ص ٨١ .

(١٤٥) — : الفسطح ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ .

« ما خفصني أحد ولا بلغ في خدمته ما بلغه ابن عبون » ، ولقد خضع لي من الأموال ما هو خارج في أسواق النواوين ثمانمائة ألف دينار (١٤٦) . وقد أكشف ابن عبون أثناء توليه الوساطة ديوانا سماه « ديوان المرد » تودع فيه الأموال المصادرة لمن يقبض عليه الخليفة أو يقتله أو يقبض عليه من كبار رجال الدولة ، أو أية أملاك وأموال يرى الحاكم بغير الله مصادرتها (١٤٧) .

غير أن الحاكم بأمر الله ما لبث أن عزل ابن عبون في ربيع المحرم سنة ٤٠١ هـ / ثامن عشر أغسطس سنة ١٠١٠ م لسوء أخلاقه وخيئته ، ولكنه أعاد له بسبب ما كان بينه وبينهم من شجاعة ، هذا بجانب نجاح الحسين بن جوهر في تحرير الحاكم بأمر الله عليه ، بالدرجة التي جعلته لا يكتفى بعزله ، بل ويأمر باعتقاله ومراجعة أملاكه وحساباته ، ثم اعتقاله في الشهر التالي ، ومصادرة أمواله (١٤٨) .

ثورة بن عيسى بن مسعود :

بعد أن عزل الحاكم بأمر الله ابن عبون ، عين أحمد بن محمد القشوري الكاتب في منصب الوساطة . إلا أنه في اليوم الرابع عشر من المحرم من نفس السنة قرر عزله ، وعين مكانه الكاتب

(١٤٦) — : اتصال الحنلا ، ج ٢ ، ص ٨٥ .

(١٤٧) الفريزي : اتصال الحنلا ، ج ٢ ، ص ٨١ .

— البراءى : المرجع السابق ، ص ٢٥٧ .

(١٤٨) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٨ .

— ابن الكلبي : المصدر السابق ، ص ٦٢ .

— : اتصال الحنلا ، ج ٢ ، ص ٨١ ، ص ٨٥ .

النصراني زرعة بن عيسى بن نسطورس ، وأنتم عليه في صايح ربيع
الآخر من تلك السنة بلقب « الشافعي » (١٤٦) .

وظل زرعة في منصبه حتى وفاته في ثاني عشر ربيع الأول
سنة ٤٠٣ هـ . وكان قد استطاع بحسن إدارته ومهارته السياسية
أن يبرز على ثلة قصر الخلافة . كما كانت علاقته وطيدة برجال
الجيش وكتاب الدولة (١٥٠) . فكان من القلائل الذين أفلتوا من
سيف الحاكم بأمر الله ، على الرغم من أن القريري يذكر أن الحاكم
بأمر الله ناسف لوفاته من غير قتل ، وقال : « ما أسفت على شيء
قل ، أسقى على خلاص ابن نسطورس من ميقى ، وكنت أود أن
أضرب عنقه لأنه أفسد دولتي ، وخائني ، ونافق على » (١٥٢) .

صاعد بن عيسى بن نسطورس :

يتميز صاعد بن عيسى بن نسطورس ثالث فرد في هذه الأسرة
بلى الوساطة ، إذ سبق أن تولاهما أبوه عيسى . ثم أخوه زرعة من
قبل . وقد تولى صاعد الوساطة في آخر شوال سنة ٤٠٩ هـ ، وظل
في منصبه حتى قتل في ربيع ذي الحجة من تلك السنة (١٥٢) .
وعندما تمتعت إليه الوساطة لقب « بالأمير الظهير شريف الملك تاج
المعالي ذو اليمين » (١٥٣) .

(١٤٩) الظاهري : المصدر السابق ، ص ٢ ، ص ٤٩٠ .

القريري : كتاب الخلافة ، ج ٢ ، ص ٨٩ .

(١٥٠) الظاهري : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(١٥١) القريري : كتاب الخلافة ، ج ٢ ، ص ٩٢ .

(١٥٢) — : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١١١ .

(١٥٣) الخوارزمي : الوزراء في العصر العباسي ، القاهرة ١٩٧٠ .

أبو نصر (أبو منصور) صليحة بن يوسف الفلاحي :

تولى الوزارة في عهد المستنصر بأمره الفاطمي ، وكان يهوديا غير أنه اعتنق الاسلام وخلع عليه في الحادي عشر من رمضان سنة ٤٣٦ هـ خلفا للوزير الحسين بن علي الانباري . وقد ساعدته الأحداث الداخلية والظروف المحيطة بقصر الخلافة على أن يتبوأ هذا المنصب ، ذلك أنه في أيام الحكم بأمر الله كان يوجد اخوان من أصل يهودي أحدهما أبو نصر بن سهل التستري وكان يحترف الصيرفة ، والثاني أبو سعيد (أبو سعد) ابراهيم وكان يشتغل بالتجارة ، وكانت أم المستنصر بالله جارية سوداء ، اشتراها الخليفة الظاهر لاحتزاز دين الله من أبي سعيد ابراهيم ، وأتجب منها ابنه المستنصر (١٥٤) ولما صارت الخلافة الى ولدها قدمت أبا سعيد ، وما لبث أن أصبح نائرا لديوان أم الخليفة ومن القريبين الى المستنصر ، وحل صليحة بأمه التي كانت ذا نفوذ عظيم في أوائل حكم أبيها (١٥٥) .

وحلت أن تولى ابن الانباري الوزارة ، وسادت علاقته بأبي نصر وأخيه أبي سعيد التستري الذي شكى الى أم الخليفة فخرجت ابنها المستنصر ضد ابن الانباري لمزله من الوزارة ، وتعين أبي صليحة ابن يوسف الفلاحي مكانه (١٥٦) .

(١٥٤) ابن حيسر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١ .

- المقريزي : أتمم القطع ، ج ٢ ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

(١٥٥) ناصر بن خضوع : سيرة الملك ، ج ٢ ، ص ١٩٠ ، الطبعة الأولى .

للطبعة ١٩٤٥ ، ص ٦٤ .

- ابن حيسر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١ .

- المقريزي : أتمم القطع ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

- علي بن محمد الشيرازي : مصر الخليفة الفاطمية ، ص ١٦٢ .

(١٥٦) المقريزي : لأتمم القطع ، ج ١ ، ص ٤٢٢ .

وما أن تولى الفلاحى الوزارة حتى ظهرت أطماع أبى سعيد التستري ونفوخه بصورة رهيبة ، إذ اشرف على الفلاحى الوزير ، ووقع تحت سيطرته بحيث لم يبق له معه أمر ولا نهى سوى الاسم وبعض التنفيذ (١٥٧) .

ويلاحظ من أبى سعيد التستري ، وبتحريض منه ، استطلاع الفلاحى أن يكيد للأتباوى الوزير السابق ، وينتهي بالاحتفالات المالية ، وينتقد سياسته السابقة ، حتى تمكن منه ، فقبض عليه وصودرت أمواله ، ثم قتل (١٥٨) .

غير أن الوزير صدقة بن يوسف الفلاحى استطلاع أن يتخلص من أبى سعيد فعرض الجسد الأثرك عليه ، فاتفقوا ببيع السم للأتباع وبيعان ، وقتلوه ثم مثلوا بجنته ، وذلك فى الثالث من جمادى الأولى سنة ٤٣٩ هـ / السادس والعشرين من أكتوبر سنة ١٠٤٧ م . وبهذا انفرد الفلاحى كلية بأمور الدولة ، إلا أن المستنصر بالله لم يرض عن هذا التصرف ، فأمر بجمعين أبى نصر التستري - اتح أبى سعيد - خزانة الخاصة ، وعين ولد أبى سعيد فى أحد الدواوين (١٥٩) . كما أن أم المستنصر حلفت على الوزير الفلاحى ونكرت عليه ، لاعتقادها أنه هو الذي دبر مؤامرة قتل أبى سعيد ، ولم تزل تدبر له المسائل وتكيد له ، حتى قبض عليه ، واعتقل فى خزانة البنود ، وانتهى أمره بقتله فى الخامس من المحرم سنة ٤٤٤ هـ / العشرين من يولية سنة ١٠٤٨ م (١٦٠) .

(١٥٧) ابن عسیر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١ .

— السیوطى : حسن المحاضرة فى قبايل مصر والقاهرة ، الطبعة ١٣٣٧ هـ .

ج ٢ ، ص ١٦٦ .

(١٥٨) التبریزی : الخطب ، ج ١ ، ص ٧٥٤ ، ٥٢٣ .

(١٥٩) ابن عسیر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢ .

(١٦٠) ابن الفلاحى : المصدر السابق ، ص ٨٤ .

وكان طبيعياً إيمان الفترة التي ولى فيها الفيلسوف الوزارة أن يقاسمه النفوذ أبو سعيد التستري في الأيام الأولى من الوزارة - وهما اليهوديان الأصل - وأن يمتاز الرجلان إلى بنى جنسهما ، ويسلان على تعيين اليهود في وظائف الدولة وإداراتها ، وإسبغها المسلمين (١٦١) .

وقد أعاد ذلك إلى أذهان المعاصرين الصورة التي كانت عليها البلاد أيام وساطة عيسى بن نسطورس في مصر ، ونائبه منشأ بن القزاز في الشام .

أبو علي الحسن بن أبي سعيد إبراهيم بن سهل التستري :

تولى الوزارة في الرابع من ذي الحجة سنة ٤٥٦ هـ . وكان الرجل يهودياً ، ثم اعتلق الإسلام . وحظ القرن (١٦٢) ، وأسس إليه الإشراف على بيت المال قبل أن يل الوزارة . وعندما تقلد منصب الوزارة لقب « معلم الكفاة » وقد حصل في منصبه حتى منصف الحرم سنة ٤٥٧ هـ (١٦٣) .

أبو سعيد منصور بن أبي اليمن بن سورش بن مكروان بن زنيور :

كان أبو سعيد منصور واحداً من كبار رجال الدولة الذين تقلدوا أرفع مناصب الدولة . وقد كان أبوه ناظر الزيف وهو على

(١٦١) حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٥٨ م ، ص ١٧٠ .
(١٦٢) ابن خلدون : المقدمة ، الجزء ٢ ، ص ٣٤ .
(١٦٣) السيوطي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٧ .
- حشوة : المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

دين النصرانية ، وظل ولده هنا على دينه . فلما تقلد الوزارة اعتنق
 الاسلام ، وخلع عليه (١٦٤) . غير أن النصاري يتكروون
 اسلامه (١٦٥) . وقد تولى الوزارة اياما قليلة ، ولقب بلقب
 « الاجل الأوحى المكين السيد الأفضل الأمين شرف لكنة عميد
 الخلافة صاحب أمير المؤمنين » . غير أن الجند ما لبثوا أن طالبوه
 برواتبهم فوعدهم وطمانهم ، ثم ما لبث أن هرب سنة ٤٥٨ هـ /
 ١٠٦٦ م تاركا منصب الوزارة بعد أن عجز عن تدبير الأموال اللازمة
 لرواتب الجند (١٦٦) .

-
- (١٦٤) للتاريخ : المرجع السابق ، ص ٣٦٦ .
 - (١٦٥) لين ميصر ، ج ٢ ، ص ٣٣ .
 - (١٦٦) للتاريخ : المرجع السابق ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .
 - حرفة : المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

أهل النخبة والدواوين الحكومية

كانت الدولة في عهد الفاطميين تدار بواسطة الدواوين
أو ما يسمى بفروع الإدارة ، وإذا كنا قد رأينا فيما سبق أن
أهل النخبة قد تولوا أرفع مناصب الدولة مثل الوزارة والوساطة ،
فلن الخلفاء الفاطميين جعلوا الدواوين تحت إشرافهم المباشر ،
إلا أنهم أبقوها في يد الموظفين المصريين وبخاصة أهل النخبة الذين
تشير المصادر التاريخية إلى استخدامهم في مختلف الدواوين ، وفي
مناصب الدولة العليا ، وإلى زيادة عددهم عن ذي قبل (١٦٧) .

لقد وجد في النحبيين من تولوا رئاسة الدواوين وبخاصة
ديوان الإنشاء والدواوين المالية ، كما تولوا ديوان الخاتم ، وكان
الفاطميون يعلقون أهمية كبرى على ديوان الإنشاء الذي كان يعتبر
من أهم دواوين الإدارة المركزية والتي كانت مهمته تنفيذ أوامر
السلطة العليا ، وكانت رتبة متوليها تلي مباشرة رتبة الوزير (١٦٨) .

(١٦٧) حناي : ظهور خلافة الفاطميين وسلطانها في مصر ، الاسكندرية

١٩٦٨ م ، ج ٢ ، ص ٢٩١ .

(١٦٨) حناي : نظم الفاطميين وديوانهم في مصر ، الجزء الثاني ، القاهرة

١٩٥٥ م ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

ولذلك كانوا لا يختارون لهذا المنصب الا بلفاء الكتاب سواء اكان مسلما ام قسيسا ، فلم يكن للدين دخل فيمن يتولى هذا المنصب (١٦٦) .

فقد كتب العزيز بالله وزيره ابن كلس ، وكذلك ابو المتصور ابن سوردين النصراني (ت صفر ٤٠٠ هـ) وهو من الذين كتبوا ايضا للحاكم بأمر الله (١٧٠) . وكان ابن سوردين محل ثقته ، وحامل سره ، ومؤتمن سجلاته السرية واليه ينسب انشاء السجل الشهير الذي أصدره الحاكم بأمر الله يهدم كنيسة القنيس (١٧١) . كما تولى هذا المنصب فهد بن ابراهيم النصراني ، في عهد الحاكم بأمر الله قبل توليه منصب الوساطة (١٧٢) . كما كان ابن ابي التميم اليهودي أحد كتاب الانشاء في عهده (١٧٣) .

... وعلى الرغم من أن معظم دواوين الحكومة قد سيطر عليها أهل الذمة وبخاصة النصارى (١٧٤) ، إلا أن المصادر التاريخية لم تلتفت إلا باسماء قليلة للمبعضيات التي تولت رئاسة بعض الدواوين .

ومن هذه الاسماء التي وصلت اليها ، ابن كلس الذي اشرف على ذبوان الخراج سنة ٣٦٣-٣٦٤ هـ / ٩٧٣ م قبضت توليه الوزارة (١٧٥) . وعيسى بن نسطورس الذي استبد اليه العزيز بالله القاطن ادارة الدواوين بعد وفاة ابن كلس (١٧٦) .

- (١٦٩) حكمة : المرجع السابق . ص ١٥٢ .
- (١٧٠) السيرة : المصدر السابق . ج ٢ . ص ١٢١ .
- (١٧١) الفريز : انباط الخط . ج ٢ . ص ٧٢ . ص ٨١ .
- (١٧٢) ابن القليس : المصدر السابق . ص ٥٦ .
- (١٧٣) الفريز : الخط . ج ٢ . ص ٧٩ .
- (١٧٤) انبا ميخائيل : المصدر السابق . ج ٢ . ورقة ٢٥ .
- (١٧٥) الفريز : الخط . ج ٢ . ص ٩٠ .
- (١٧٦) ابن خلدون : المصدر السابق . ج ٤ . ص ٥٥ .

أما أبو غالب - أخ عهد بن إبراهيم - فقد تولى ديوان النفقات في عهد الحاكم بأمر الله . وكان شريفاً عبقرياً (١٧٧) . كما تولى أبو علي الحصن بن أبي سعد التستري بيت المال قبل توليه الوزارة (١٧٨) . أما الشيخ أبو زكريا يحيى ابن مقار النصراني فقد تولى ديوان النفقات في عهد المستنصر (١٧٩) .

وقضلا عن ذلك فقد سيطر أهل اللغة على وظائف الإدارة المحلية (١٨٠) .

وقد تشعب في العصر الفاطمي الأول بعض الدواوين ذات الطابع الخاص ، كديوان الخاص للممزر الذي تولاها ابن كلس والذي كان مشرفاً على قصور الخليفة الممزر وبلاطه . وديوان العزيزية في خلافة العزيز بالله (١٨١) .

ويعتبر أبو سعيد التستري متولى ديوان أم الخليفة المستنصر من رؤساء الدواوين الخاصة الذين طغى نفوذهم على عهد الوزارة ، وقد ارتفع شأنه بعد وفاة الخليفة الظاهر سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م ، وأصبح مقرباً من الخليفة المستنصر ، ومؤثراً على أحداث الدولة كما سبق أن ذكرنا ، وبعد مقتل أبي سعيد في سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٨ م ، قلده المستنصر أخاه أبو نصر التستري خزائن الخاص والحق ولقى أبي سعيد في أحد الدواوين (١٨٢) .

(١٧٧) ابن القليس : المصدر السابق . ص ٥٩ .

(١٧٨) مشرق : المرجع السابق . ص ٢٦٢ .

— القاري : المرجع السابق . ص ٢٦٢ .

(١٧٩) الألبا ميخائيل : المصدر السابق . ج ٢ ، ورقة ٧٢ .

(١٨٠) الأتاكلي : المصدر السابق . ص ٢٠٢ .

— الألبا ميخائيل : المصدر السابق . ورقة ٧٥ .

(١٨١) القريزي : القلعة . ج ٢ ، ص ٥ .

(١٨٢) ابن حجر : المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٢ .

وعلى الرغم من إخفاء أبي سعيد التصتري من المسرح السياسي بعد قتله على يد الجند الأتراك سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٨ م فإن نفوذ أخيه أبي نصر هارون التصتري كان له أثره في قصر الخلافة ، وظهر ذلك بوضوح عندما تدخل في النزاع القائم بين الفاطميين وكمال بن صالح بن مرقاس حول حلب ، والتمس أبو نصر المقتول لكمال ، مما أدى إلى غضب الوزير الحسين بن محمد ، الذي اعتبر هذا تدخلا في شئون اختصاصه وسياسته ، فأجرى به الخليفة المستنصر وألغى أن أبا نصر هارون يسمى فيما يضر الدولة . فقبض المستنصر على أبي نصر سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م وصادر أمواله وهوب حتى مات (١٨٣) .

ولم يقتصر الأمر عند تعيين أهل الدولة لرئاسة الدواوين بالادارة المركزية ، بل عينوا ولاية بالاتاليم . ففي عهد المعز لدين الله نجد قزمان بن منا النصراني على أعمال فلسطين ، وقد بلغت ثروة قزمان هذا على حد تقدير مؤلف « سير البيعة المقدسة » تسعين ألف دينار (١٨٤) مما يجعلنا نفترض أنه جمع تلك الثروة الطائلة بطرق غير مشروعة .

وقد أمتهد ديوان الشام إلى عيسى بن نسطورس قبيل توليه الوصاية كما تولى هذا الديوان أكثر من واحد من أهل اللغة ، فنذكر المصادر التاريخية أن منشأ ابن إبراهيم القزاز اليهودي كان غائبا على الشام في عهد المعز بالله الفاطمي إبان وصاية عيسى بن نسطورس وأنه منلك أصولها لا يتفق وسياسة

(١٨٣) ابن عيسر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

— القوزي : أصل الجلال ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

(١٨٤) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤٤ .

الخليفة العزيز بالله نحو رعاياه مما أدى الى عزله والتبض عليه
ومصادره (١٨٥) .

أما منصور بن عبيد بن النضراني فقد تولى ديوان الشام قبل
توليه الوساطة في خلافة الحاكم بأمر الله (١٨٦) . كما تولى هذا
الديوان يحيى بن سلامة النضراني في خلافة الحاكم أيضا (١٨٧) .
وكان يوسف بن علي الفلاحي اليهودي من كبار الكتاب
البلغاء الذين تولوا ديوان دمشق (١٨٨) . وصاحب ولده صفقة بن
يوسف بن علي الفلاحي جيش الفاطميين قاطرا في الأموال والنفقة
الجيش تحت قيادة منجب الدولة سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م أثناء
صيده لتأديب أمراء الغرب من بني الجراح والمرداسيين المتناوئين
لحاكم الفاطميين في بلاد الشام (١٨٩) .

وكانت النتيجة المباشرة لتولي أهل الذمة منصبى الوزارة
والوساطة ورئاستهم لمظم الدواوين ، وأخصار هؤلاء الوزراء
والوسطاء ورؤساء الدواوين من أهل الذمة لبنى ملتهم ، أن اكتظت
الدواوين الحكومية بالكتاب وصفار الموظفين الذين
سيطروا على إدارات الدولة بصورة ملفقة للنظر . ويذكر الانطاكي
أنه في عهد الحاكم بأمر الله « كان سائر كتابة وأصحاب خدمته
وأطباء مملكته نصارى ألا نرى يسمى من الكتاب » (١٩٠) .

(١٨٥) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(١٨٦) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٤ . ١٩٦ .

أبو حنبل الأرمي : تاريخ الشيخ أبو حنبل الأرمي ، طبعة المطبعة
١٩٩٤ م ، ص ٥١ .

(١٨٧) ابن القتيبي : المصدر السابق ، ص ٦١ .

(١٨٨) ابن ميمون : المصدر السابق ، ص ٢ ، ص ٢ .

القرطبي : انطاع الخطأ ، ص ٢ ، ص ٢٦٩ .

(١٨٩) ابن القتيبي : المصدر السابق ، ص ٧٢ .

(١٩٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

ومع ذلك فإن بعض الكتّاب المتدثّرين يذكرون أن الحاكم بأمر الله • قبل أن يتّرك عرشه قضى على نفوذ التصارى فى عصره • وبعد ذلك الحين أصبح الأقباط مهملين فى الدولة (١٩١) •

والحقيقة أن صاحب هذا الرأى قد جانية الصواب فيما ذهب إليه ، فقد استمر حوطفو الدولة من أهل النعمة فى عمارسة وظائفهم الإدارية والمالية فى عهد الحاكم بأمر الله ومن جاء بعده • مع تهديد الرقابة عليهم وتوقيع العقوبات على المخالفين لأوامره • وتحذيرهم من الرشوة والبراطيل (١٩٢) • وهذا لا يعنى القضاء على ثلوثهم أو إهمالهم • ولم أبلغ رد تقديمه لبعض هذا الادعاء • والتأكيد على استمرار أهل النعمة فى وظائفهم وسيطرتهم على الإدارة • ما كتبه مؤلف « مير البيعة المقدسة » فى سياق حديثه عن عصر المستنصر بالله عندما يذكر أن « جميع مقسضى المملكة والناظرين فى دواوينها وتدير أمورهم كلهم نصارى • وهم الملاك الباطل أمرهم » (١٩٣) •

وإذا كان الأقباط • بوجه خاص • قد احتكروا الوظائف المالية فى الدواوين وبخاصة ديوان الخراج • لمعرفتهم بعلم الخراج والمعامى بالأعمال المالية (١٩٤) فإن اليهود قد اشتهروا بأعمال الصيرورة واستغلوا ذلك لجمع الأموال لأنفسهم بطرق غير مشروعة • مستندين إلى الحماية التى توفر لهم من قبل رؤسائهم الذين كانوا يتولون الوظائف الهامة بالدواوين • فعلى سبيل المثال كانت الفترة

(١٩١) جاك نلجس : المرجع السابق • ص ١٢٥ •

(١٩٢) للقرئى : اتمط الشفا • ج ٢ • ص ٥١ •

(١٩٣) الاتيا سيخايل : العصر الجياق • ج ٢ • ورقة ٧٥ •

(١٩٤) للقرئى : الكتبة • ج ٩ • ص ٨٤ • ٢٣٦ • ٤٤٦ •

التي تولى فيها منشأ ابن مقران نيابة الشام عمرا ذهبيا بالنسبة
ليهود دمشق (١٩٥) *

ولم يكن سلوك معظم هؤلاء الكتاب الذين عملوا بالدواوين
المالية سلوكا حسنا ، وليس من شك ان عددا غير قليل منهم
لم يمارسوا أعمالهم بأمانة . فتمرضخوا للرقابة الصارمة من قبل
الخلفاء أمثال العزيز بالله والحاكم بأمر الله . بل ان الحاكم
بأمر الله أصدر مرسوما بتحذير موظفيه من أخذ الرشوة ، وطالبهم
بتقديم كشف حساب لما في حوزتهم من أموال وصناعات وصنادير
أموال كل من يثبت اذنته وعدم أمانته ، كما طالب الخليفة
العزيز بالله - من قبل - عيسى بن نسطورس بان يستعين بالموظفين
المسلمين في ادارة الدواوين *

ولم يتخذ الخلفاء الفاطميون تلك الاجراءات الا حماية
للرعية وتوفير اكبر قدر من النخلة لها دون تفرقة بين ذمي ومسلم *

الأطباء من أهل الذمة

وإذا كان الكثير من اليهود والنصارى قد اشتغلوا في دواوين الدولة الفاطمية فإن الخلفاء الفاطميين استحدثوا أطباء من أهل الذمة في قصورهم - ولا جدال في أن وظائف الأطباء كانت من أعظم الوظائف وأعلها في ذلك العصر - فكان للخليفة الفاطمي طبيب يعرف بطبيب الخاص ، يجلس على باب دار الخليفة كل يوم ويجلس على الدك الذي بالقبة المروجة بقاعة الذهب بالقصر دونه أربعة أطباء أو ثلاثة لمعالجة المرضى من الأكارب والبواسير ، ويكتبون لهم تذكرة بما يلزمهم من أدوية الصيدلية الملحقة بقصر الخلافة (١٩٦) :

وكان هؤلاء الأطباء المنزلة السامية ، والمكانة الرفيعة في قصور الخلفاء ويلقون من مظاهر الاحترام والتكريم قدرا كبيرا (١٩٧) ، بجانب ما كانوا يتقاضونه من مرتبات عالية مجزية (١٩٨) .

(١٩٦) الطائفتي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩٢ .

(١٩٧) ابن الجوزي : المصدر السابق ، ص ٣١٦ .

(١٩٨) الطائفتي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩٢ .

واشتهر في مصر العاطس الأول موسى بن العيرار (العازار) الاسرائيلي الطبيب العالم الذي خلع الطبيعة المعز لدين الله عند قدومه من المغرب ، وكان موضع تقدير المعز وثقته (١٩٩) ، . كما التحق بخدمته ابنه اسحق بن موسى الطبيب ، وبعد ان وافاه أجله في صفر سنة ٣٦٣ هـ ، عين المعز مكانه أخاه اسماعيل والابن يعقوب بن اسحق ، وكان ذلك في حياة أبيهم وجدهم موسى بن العازار . وقد تقاني أفراد هذه الأسرة في خلعة المعز ، فألف موسى بن العازار مؤلفات طبية على جانب كبير من الأهمية ، منها « الكتاب المعزى في الطب » ، « الفقه للخليفة المعز » ، و « كتاب الأقرباذين » ، و « مقالة في السعال » ، كما ركب الكثير من الأدوية (٢٠٠) .

ومن الذين عملوا في خدمة العزيز بالله الطبيب أبو الحسن سهلان بن عثمان ابن كيسان . وكان من النصاري الملكاية من أهل مصر الذين ارتفع شأنهم أيام العزيز ولم يزل له مكانته حتى وفاته في عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م . وكانت جنازته مهيبة ضخمة اذ شيعه كبار الدولة ورؤساؤها تكريما له (٢٠١) .

أما يوسف النصراني الطبيب الذي كان عارفا بصناعة الطب ، ومن العلماء البارزين في هذا الميدان ، فقد عينه الخليفة العزيز بالله بطريركا على بيت المقدس في السنة الخامسة من خلافته (٢٠٢) .

(١٩٩) القلقلي : المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .

(٢٠٠) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(٢٠١) ————— : نفس المصدر ، ص ٥٥٩ .

(٢٠٢) ————— : نفس المصدر ، ص ٥٤٥ .

وكان أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر النصراني من الأطباء المشهورين والعلماء المرموقين الذين تمتعوا بمكانة رفيعة في دولة الفاطميين ، ومن المقربين إلى قصر الخلافة والباطل الفاطمي وبخاصة في أيام العزيز بالله ، إذ كان الخليفة يستطبه ويعمل بمشورته ويحترمه . وفي رسالة العزيز بالله إلى ابن مقشر التي سبق الإشارة إليها - ما يلقي الضوء بوضوح على مكانة الأطباء من أهل النخبة في قصور الخلافة (٢٠٢) .

وبلغ ابن مقشر في عهد الحاكم بأمر الله أعلا المنازل وأسمائها . وكان من خواصه ومن المقربين إليه ، فكان عندهما يتصرف مجلس الحاكم بأمر الله كان ابن مقشر الطبيب يلزمه ساعات طويلة (٢٠٤) . وقد أجزل الحاكم بأمر الله له المعايير وكافاه بعشرة آلاف دينار عندهما نجح ذات مرة في علاجه من مرض ألم به (٢٠٥) .

ولما توفي ابن مقشر استطلب الحاكم بأمر الله بعده ابنه يعقوب اسحق ابن إبراهيم بن نسطاس النصراني ، وخلع عليه في ربيع الأول سنة ٣٩٤ هـ ، وحمله على بقلته ومعه ثياب كثيرة وأعطاه دارا بالقاهرة ، فرشت بأحسن الأثاث (٢٠٦) .

وأصبح ابن نسطاس من أطباء الخاص المقربين إلى الحاكم بأمر الله ، واستطاع أن يقنعه بشرب النبيذ لما فيه من فوائد . فاستعفى الحاكم للفنين وأصحاب الملاهي إلى مجلسه ، وشرب على

(٢٠٢) النظر قبل ، ص ١٩ .

(٢٠٤) القريزي : أتمام ، ج ٢ ، ص ٣٦ .

(٢٠٥) الانطلي : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

- ابن ابن الصرود البكري : المصدر السابق ، ورقة ١٤٨ .

(٢٠٦) القريزي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

غنائهم ، وخلع عليهم ، وأحسن لهم ، ولكن بعد وفاة ابن نسطاس في سنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م امتنع الحاكم بأمر الله عن كل هذا (٢٠٧) . ويذكر المؤرخون أن ابن نسطاس الطبيب ، كانت علاقته حسنة بكبار رجال الدولة الفاطمية ، وأنه حضر مجالسهم ، وزارهم في قصورهم ، وأكل على موائدهم ، ونامهم . غير أنه لقي مصرعه غسرقا في بركة ماء فاقد الوعي لكثرة ما شرب من الخمر ، وخاف خلانه ومن كافوا معه - أمثال الحسين بن جوهري وأبو الحسن الرسي ، والمسيحي ، أن يخبروا الحاكم بأمر الله ، لمعرفتهم بمنزلته عنده . وقد شق على الحاكم بأمر الله خبر وفاته ، وأظهر الحزن والأسى لمصرع أنبغ أطباء قصر الخلافة (٢٠٨) . وعندما التقطت جثته من الماء ، حلت إلى الكنيسة في نابوت ، ثم شيعت جنازته في شوارع القاهرة ، وحول جثمانه سائر رجال الدولة في مركب جنازتي رائع على أضواء الشموع ويخور المداخن ، ثم أعيد إلى داره فدفن بها (٢٠٩) .

وكان لابن نسطاس يد طويل في الموسيقى ، وانفرد بخدمة الحاكم بأمر الله في الطب فأنرى ، وترك ثروة طائلة تزيد على عشرين ألف دينار عينا ، سوى الثياب وغيرها من الممتلكات (٢١٠) .

وبوفاة ابن نسطاس جعل الحاكم بأمر الله الطبيب صقر اليهودي من أطباء الخاص عوضا عنه وخلع عليه في سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م ، وأمر بحمله على بئلة تكريما له ، وأعداه ثلاث بئلات

٢٠٧ تاريخ الانتفاخ : المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

- ابن أبي أصيبعة - المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

٢٠٨ ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ، ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

٢٠٩ المقريضي : اتعاظ ، ج ٢ ، ص ٧٠ .

٢١٠ ——— . قصر المسير وتقس المسجلة .

بسرّج ولجم محلاه ، وفتحه أفحم الثياب ، وأعطاه دارا لسكناء ،
وزوده بكل ما يحتاج اليه ، وبلغت جملة هدايا الحاكم بأمر الله
اليه عشرة آلاف دينار (٢١١) -

أما الطبيب الفى ذكرته كتب التراجم فى طبقات الأطباء ،
ولم تعطنا اسمه الحقيقى ، فهو الطبيب اليهودى المسمى
« الحظير النافع » الذى تمكن من تركيب دواء عالج به « جرح مرمى »
كان فى رجل الحاكم بأمر الله ، وكان أطباء الخاص بمسا فيهم
أمن مقشر وغيره قد عزّوا عن علاجه ، فلما تماثل الحاكم بأمر الله
للشفاء ، أعطاه ألف دينار مكافأة له ، وخلق عليه ، ولقبه
« بالخطير النافع » وجملة من أطباء الخاص (٢١٢) -

(٢١١) — : نفس المصدر ، ص ٧٢ -

(٢١٢) القسطنطينى المصدر السابق ، ص ١٧٨ -

- ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥١٩ -

موقف المسلمين من سياسة الموظفين الذميين

وجد المسلمون أنفسهم في موقف لا يحسدون عليه ، فمعظم وظائف الإدارة العليا في الدولة كالوزارة والوساطة ورئاسة السواوين وولاية الأقاليم وأطبائ الخايس في يد أهل النمة ، الذين تعصبوا لبنى ملتهم من اليهود والنصارى ، وعينوهم في كثير من فروع الإدارة ، ومنعوا المسلمين أصحاب الأغلبية العظمى في البلاد من تولي تلك المناصب - وقد ترتب على ازدياد نفوذ الموظفين الذميين وانحراق السواوين بهم ، وبخاصة في خلافة العزيز بالله ، أن تولد شعور بالكراهية بينهم وبين الموظفين المسلمين ، وترك ذلك صدى في نفوس الرعية ، مما حدا بالشاعر الحسن بن بشر الدمشقي أحد شعراء مصر إبان خلافة العزيز بالله أن يصور هذه الظاهرة بأسلوب ساخر ، فقال :

تنصر فانتصر دين حق عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا وعطل ما سواهم فهو عطل

فيستقرب الوزير أب وهذا العزيز ابن وروح القمص فضل (٢١٣)

وفي الفترة التي تقلد فيها عيسى بن تسطورس ، ومتشـاً
ابن ابراهيم ادارة الدواوين في مصر والشام ، أصبح اهل هاتين
المنين يحكماني الدولة (٢١٤) . ولحق بالرعية من جراء تنصير
الدواوين في مصر وتهويدها في الشام الضرر البالغ ، مما دفع
المسلمين الى التنمر والاحتجاج لزام سياسة هذين الرجلين اللذين
اساءا الى الرعية (٢١٥) . ولعل فيما أورده الاطباكي عن عيسى بن
تسطورس من أنه « قد رسم أيام نظره رسوما جائرة وأحدث
مكوسا زائدة على ما جرى الرسم بأخذه » (٢١٦) ، ما يوضح النتائج
السيئة التي عانت منها الرعية بسبب ازدياد نفوذ الرؤساء النصاري
وسيطرتهم على ادارة الدولة في عهد الحليفة العزيز بالله .

بل تفاقم الخطر والأذى الذي حاق بالمسلمين في مصر والشام .
وذلك لأن معظم السلطة والنفوذ كانت في أيدي أبناء هاتين الطائفتين
الذين جاهرُوا بروج العداء ازاء المسلمين (٢١٧) .

يروي لنا النويري أن بعض رؤساء المصريين كتب ورقة يعاتب
فيها عيسى على قبح فعله مع المسلمين ، وبالح فيها ، فأجابه عيسى
عنها بقوله : « ان شريعتنا متقدمة ، والدولة كانت لنا ، ثم صارت

(٢١٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، الجزء السابع ، القاهرة ١٣٥٢ هـ .

ص ١٧٦ .

(٢١٤) Menu : Op. Cit., Vol. I, p. 10.

(٢١٥) العيني : المسند السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤٦٦ .

(٢١٦) الاطباكي : المسند السابق ، ص ١٨٠ .

(٢١٧) ابن اياس : يدائع الزهور في وقائع المعمر ، بولاق ١٣١١ هـ .

الجزء الاول، ص ٤٨ .

اليكم ، فجرتم علينا بالجرية والذلة ، فمتى كان متكم الينا احسان
حتى تطالبونا بمثله . ان ما نعلمكم قاتلتمونا ، وان سألناكم
أمنتمونا ، قاذوا وجدنا لكم فرصة قساذا تتوقعون أن نصنع بكم .
ثم تمثل في آخرها ببيتين :

بنتا كرم غصبوها لهما ثم فاسدوها هوانا بالفلج
ثم علدوا واحكموها فيهم وأناهيك بخصم لدحكم(٢١٨)

ورغم أن التويرى قد انفرد بذكر هذه الرواية ، فإن معالم
السياسة التي سار عليها ابن نسطورس في مصر وابن القزاز في
الشام تؤكد روح التخصيب السائدة بين بعض كبار الموظفين من
اليهود والنصارى في تلك الفترة ، الذين عملوا على التمييز بين
أبناء الأمة الواحدة . وتفتتت الوحدة الوطنية بين أبناء الشعب
الواحد ، الأمر الذي دفع المسلمين الى التذمر والاحتجاج .

ونقل لنا المصادر التاريخية رواية خلاصتها أن امرأة
اعترضت - ذات مرة - طريق العزيز بالله ودفعت الى مرافقيه
برقعة ، واختفت بين الناس . فأخذ العزيز بالله الرقعة ونظر فيها
فاذا هي ظلامه جاء فيها : « يا أمير المؤمنين : بالفى أعز النصارى
بابن نسطورس ، وأعز اليهود ببنتها بن ابراهيم ، وأذل المسلمين
بك ، ألا نظرت في أمسى وكشفت ظلامتى ، (٢١٩) ولما طلب
العزيز بالله المرأة لم يجدها . ولما رجع الى قصره استلغى فاضى
قضااته أبا عبد الله محمد بن النعمان ، وكان من خاصته ومن
المقربين اليه ، فأعطاه ظلامه المرأة ، وطلب منه أبناء الرأى . فقال

(٢١٨) التويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٠ .

(٢١٩) التويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

ابن النعمان : « سولانا أعرف بوجه الرأي والتدبير » ، وتحسب أن يذكر له ما آلت إليه إدارة البلاد من سوء بالغ من جانب كبار الموظفين من أهل الذمة . فنظر اليه العزيز بالله وقال : « صلت كتابها ، ونهنا الى ما كنا على غلط فيه وغفلة عنه » (٢٢٠) ، ثم أصدر أوامره بالقبض على ابن نسطورس والكتاب النصارى . كما التقى القبض على متشا بن ابراهيم وجيلة الضرائب اليهود في الشام ، وأمر بإسناد وظائف الدولة وإدارة أجهزتها الى الكتاب المسلمين ، والا يعين أحد من أهل الذمة في الدواوين (٢٢١) .

وتسقى بعض المصادر التاريخية في سرد وقائع هذه الرواية ، فتذكر أن ست الملك بنت الخليفة العزيز بالله تدخلت لدى أبيها ، وعرضت عليه التماسا تقسم به عيسى بن نسطورس يعتذر فيه عما بدر منه ، فأعاده الخليفة الى منصبه بعد أن دفع غرامة قدرها للاثمالة ألف دينار الى خزانة الدولة وبعد أن شرط عليه استخدام الموظفين المسلمين في دواوين الدولة وأعمالها والا يعين نصراييا ولا يهوديا بهذه الدواوين (٢٢٢) .

وتكاد تجمع المصادر الاسلامية (٢٢٣) على ذكر هذه الرواية الخاصة بعيسى بن نسطورس بصورة أو بأخرى ، بينما انقادت المصادر النصرانية ذكرها ، وتفسير ذلك واضح لا يحتاج الى دليل .

-
- (٢٢٠) ابن طاهر : المصدر السابق ، ورقة ٥٥ .
 - (٢٢١) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .
 - ابن القلائس : المصدر السابق ، ص ٢٢ .
 - (٢٢٢) حبيب بن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ١٥١ .
 - (٢٢٣) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .
 - ابن القلائس : المصدر السابق ، ص ٢٢ .
 - ابن طاهر : المصدر السابق ، ورقة ٥٥ .
 - النويري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

وإذا كان الحاكم بأمر الله قد قبض على قنيد بن إبراهيم النصراني وقتله في جمادى الثاني سنة ٢٩٢ هـ ، فإن ذلك يرجع إلى أن أبا طاهر النحوي الكاتب استطاع أن يبلغه شكوى الرعية من تضافر النصارى وغلبتهم على الدولة ، وتصيبهم وأن فهذا هو الذي يقوى شسوكتهم ، ويسند اليهم أمر الأموال والنواوين ، وأنه « آفة على المسلمين وعتة النصارى » (٢٢٤) .

وقضلا عن ذلك فإن أبا تغلب - أخ فهد - عتولى ديوان النفقات كان شريفا مكروها من الرعية لسوء سياسته ، مما أدى إلى مقتله هو الآخر بعد مقتل أخيه فهد بفترة قصيرة (٢٢٥) .

أما أبو سعيد التستري اليهودي (ت ٤٣٦ هـ / ١٠٤٧ م) الذي كان مديرا أمور الدولة في الأيام الأولى لبوزارة الفلاحى فى خلافة المستنصر بالله فقد استغل نفوذه وصلته بقصر الخلافة ، وألحق بمناصب الدولة الكثير من اليهود ، وولاهم الوظائف الكبرى ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل نال المسلمون كثيرا من الظلم والأذى على يديه ، بحيث أنهم كانوا يحلفون « بحق التمة على بنى اسرائيل » ، مما دفع الشاعر المعاصر الرضى بن البواب أن قال :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد مكروا
العز فيهم والمال عندهم ومنهم الاستسار والملك
يا أهل مصر انى نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك (٢٢٦)

(٢٢٤) الماريزور : المخطوط ، ج ٢ ، ص ٣٠ .

(٢٢٥) ابن القلتى : المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٢٢٦) ابن ميسر - المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢ .

- الماريزور : انما كالمنا ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

- السيرى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

وقد شارك نصارى مصر اليهود فى تقلد أرفع المناصب فى
خلافة المستنصر بالله مستأثرين بمحظم السلطة والنفوذ ، فكانوا هم
« الملاك النافذ أمرهم » الذين انغمسوا فى حياة الترف والبدع ،
وجمع الثروات (٢٢٧) .

ولم يؤد ذلك الى كراهية المسلمين للرؤساء من الموظفين
الذميين فحسب ، بل أدى الى وقوع البغضاء والحسد بينهم وبين
بنى ملتهم (٢٢٨) .

(٢٢٧) الاتبا عينا شيل : المصدر السابق ، ج ٣ - ورقة ٧٥ -

(٢٢٨) — : نفس المصدر ونفس الصفحة .

الباب الثامن

أهل الذمة والحياة الاقتصادية
النشاط الزراعي لأهل الذمة

أهل النعمة والعيادة الاقتصادية

النشاط الزراعي لأهل النعمة

عندما فتح العرب مصر سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م أبقوا على أراضي مصر على حالها (١) ، اذ كتب عمرو بن العاص لأهل مصر عهدا يضمنهم أمنون على أموالهم ودمائهم ولسانهم وأولادهم (٢) ، والثابت أن عمرا لم يقسم أراضي المصريين بل تركها في أيديهم وأمنهم عليها (٣) - وأجريت مجرى البلاد المفتوحة صلحا (٤) كما سمح المصريون كغيرهم من أهل النعمة منذ تأسيس الدولة الإسلامية بأكبر قدر من التسامح ، فكانوا يتصرفون في الأراضي التي تحت أيديهم بالبيع والشراء والوقف ، كما كانوا يملكون الأراضي بالشروط التي كان المسلمون يملكونها (٥) .

(١) سيدة كاشف ، مصر في فجر الإسلام ، ص ١٩ .

(٢) البراءة : المراجع السابق ، ص ١٨ .

(٣) — : نفس المرجع ، ص ٦٩ .

(٤) سيدة كاشف : المراجع السابق ، ص ٤٠ .

(٥) سيد خير طي : مختصر تاريخ العرب ، ص ٢٨١ .

فإذا انتقلنا الى عهد الأمان الذى أعلنه جوهر الصقل على الشعب المصرى فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، فاننا لا نجد فيه ما يشير الى حدوث أى تغيير يذكر فى موقف الحكومة الفاطمية من الملكية الخاصة للمصريين بوجه عام (٦) .

وبموجب عهد جوهر الصقل احتفظ قائد الجيش الفاطمى لولاه الخليفة المعز لدين الله بالأوضاع السائدة وقتذاك . وأقر باحترام مبدأ الملكية الخاصة للمصريين فى أموالهم المنقولة والثابتة نظير الطاعة ودفع الضرائب (٧) .

والأرجح أن كل ما حدث هو أن الفاطميين قد استولوا على كثير من أملاك الأسرة الحاكمة قبل عهدهم وكذلك على أراضى النوبة وهذا أمر طبيعى مع توزيع جزء من الأراضى العامة بالأنعام على غيرهم من الأقباس والمشاربة أما على هيئة التملك أو الانتفاع بإيرادها حتى يستمدوا ولاهم ويحتفظوا بأحلاسهم (٨) .

لكن أهم ما يخصنا فى عهد جوهر للمصريين تلك المباداة التى تعهد جوهر بموجبها بتوفير الأمان للجميع ، « وأجراهم أهل الذمة على ما كانوا عليه » (٩) ، فللمصريين « أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجسد المتأكد على الأيسام وكرور الإصوام » (١٠) .

(٦) البراوى : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٧) حكمة : المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

(٨) البراوى : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٩) القرئزى : اتباط الحفظ ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

(١٠) ——— : نفس المرجع ، ص ١٠٦ .

والثابت أن جوهر لم يتعرض لأهل النعمة بسوء ، ولم يتعرض لأموالهم وأموالهم ، ولم يقع عليهم أى ضرر يذكر . وتمتعوا برعاية الدولة وحمايتها كغيرهم من المصريين . كما أنه لا يوجد فى المصادر التاريخية التى تناولت تلك الفترة ما يشير إلى أن جوهر قد تعرض للأراضى الزراعية والبساتين والحدائق التى امتلكوها فى أنحاء البلاد أو التى كانت فى حوزة الكنائس والأديرة أو الموقوفة عليها كما أن زراع هذه الأراضى لم تصبهم أية أضرار . وعندما طالبه المصريون بتجديد الأمان ، جرده لهم ، كما كتب لأهل الريف والصعيد أمانا ثالثا ونص فيه على إجراء أهل النعمة على ما كانوا عليه (١١) .

وبصفة عامة فإنه يتضح من عقود البيع التى أوردها جروهمان والتى يرجع تاريخها إلى العصر الفاطمى ، أن الأملاك العقارية التى امتلكها أهل النعمة قد امتلكوها رغبة ومتعة وأنهم تصرفوا فيها بالبيع والقراء وفق مصالحهم وحرية تامة (١٢) .

وعلى الرغم من أن العرب نزلوا إلى ريف مصر وسكنوه مع سكانه الأصليين ، إلا أنه كان هناك كثير من القرى فى أنحاء مصر أهلها نصارى ، والعديد من القرى التى غلب على سكانها الأقباط (١٣) ، والواقع أن معظم قرى مصر لم تخل من السكان الأقباط مهما كانت نسبتهم إلى عدد السكان .

(١١) ملجود : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ص ١٠٧ .

(١٢) جروهمان : أوردان القروى المصرية ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ . قد بيع أملاك طائفة ريف ٥٤ .

(١٣) ابن جوال : حوزة الأرض ، ص ١٥٠ .

— الصلدى : تاريخ القروى وملكه ، ص ١٢ .

وفي المدن الكبيرة - كأمسيوط مثلا - التي يغلب على سكانها الفلاحون من الإقباط - تنتشر الأراضي الزراعية الواسعة الجيدة الخصوبة ، إذ يذكر ياقوت أن - بأمسيوط - ثلاثون ألف قنار في أمستواء الأرض ، لو وقفت فيها قطرة ماء لانتشرت في جميعها ولا يظلم فيها شبر (١٤) . وهذه إشارة إلى صلاحية هذه المساحات الواسعة للزراعة وسهولة ريعها .

وقد اقطع الخلفاء الفاطميون كبار رجال دولتهم من أهل النعمة إنعاما وتقديرا - الأقطاعات الواسعة - فالتأيت أن الخليفة العزيز بالله اقطع وزيره الكفء يعقوب بن كلس أقطاعات كبيرة في مصر والشام مبلغها ثلاثمائة ألف دينار ، وعندما مات ابن كلس ترك من الأموال والأموال والأموال والشمس والرياح التي الكثير ضمن ثروة تقدر بأربعة ملايين دينار (١٥) . . .

كما أن عهد بن ابراهيم الذي تولى منصب الوساطة في عهد الحاكم بأمر الله اقطع لنفسه أقطاعات عديدة ضمن ثروة طائلة كانت سببا لأن يتخذها حصونه - ضمن أسباب أخرى - ذريعة للفتك به (١٦) .

وتحدثنا كتب الرحالة والجغرافيين والمؤرخين عن كثرة الأراضي الزراعية والبساتين التي حول الأديرة ، وكذلك تلك التي في حوزة الكنائس ، فأشاروا إلى كثرة المزارع والبساتين التي

(١٤) ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٥١ .

(١٥) العزيز : الخط ، ج ١ ، ص ٥ .

- المائتين : المرجع السابق ، ص ٨٢ ، ٨٦ .

(١٦) ابن الكلبي : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

حول دير طور سيناء (دير سانت كاترين) (١٧) ، وعن كثرة
الأملاك الموقوفة على دير أنبا أنطونة بشرقي أطفح حيث كان له
٥ بمصر وقوفات وأملاك عدة . كما كانت له بأطفيح أملاك
وبساتين (١٨) ، كذلك كان لدير صملوط بالأشمونين وقف من
الخلقاء مساحته عشرون فدانا بالإضافة إلى بستان كبير مملوء
بأشجار الفاكهة وأنواع الأشجار الأخرى (١٩) أما الدير المصروف
بشهران فكان له بستان مساحته ستة أفدنة وأراضي زراعية ،
ويذكر الشيخ أبو صالح في مؤلفه أن الحاكم بأمر الله كان كثير
التردد عليه والنزعة فيه (٢٠) .

وحقيقة الأمر أنه كان هناك الكثير من الأراضي الزراعية
والبساتين الموقوفة على الأديرة . والثابتة في حساب الدواوين -
للصرف منها على الرهبان ومطالبات هذه الأديرة (٢١) ، كذلك
الأراضي الزراعية الموقوفة على دير طور سيناء في إقليم مصر
والقمام (٢٢) .

ويوجه عام فإن معظم كنائس وأديرة مصر كانت في حوزتها
أراضي زراعية بمساحات شاسعة لدرجة أن أحد التجار الأقباط
بمدينة قفط أوقف على أحد الأديرة نهجا أربعين زوجا من البقر
لتدور في السواقي الملحقة بأراضي الدير لريها (٢٣) .

(١٧) القمص : المصدر السابق ، ص ٢١٩ .

(١٨) أبو صالح الأرقم : المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(١٩) ————— : نفس المصدر ، ص ١١١ ، ١١٢ .

(٢٠) ————— : نفس المصدر ، ص ٦٠ .

(٢١) ابن فضل الله العمري : جمالك الأقباط في ملك الأمصار ، ج ١ .

ص ٢٨٤ .

(٢٢) عبد الحفيظ إبراهيم : في مكتبة دير سانت كاترين ، مستخرج من

مجلة جامعة أم درمان الإسلامية للعدد الأول ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٢٣) أبو صالح الأرقم : المصدر السابق ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

وأطمان الفقيرون على ما يبعثهم من أملاك نظموا لسياسة التسامح التي اتبعها الخلفاء الفاطميون في هذا العصر ازدهار أهل النعمة - باستثناء فترة من عصر الحاكم بأمر الله - وكيف لا ينعم الفلاحون والملاك من أهل النعمة - خاصة الأقباط - بالمعاملة الطيبة والاطمئنان على أملاكهم في ظل حكومة تولى رئاسة دواوينها وسيطر على إدارتها لفترات طويلة وعديدة كبار رجسالة الدولة من أهل النعمة ، مع انحياز هؤلاء الموظفين إلى بني ملتهم بصورة لفتت أنظار خاصة وعامة المسلمين (٢٤) .

على أن أملاك الكنائس والأديرة وأوقافها وأحباسها تعرضت للمصادرات المدينة إبان الفترة التي تشهد فيها الحاكم بأمر الله مع أهل النعمة ، وقد يكون سبب هذه المصادرات توتر العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية وبين الدول المسيحية التي لها علاقات سياسية واقتصادية ودينية مع مصر (٢٥) . وقد يكون سبب ذلك غضب الحاكم بأمر الله على أهل النعمة من موظفي الدواوين الذين أصبحوا يستغلون السلطة (٢٦) ، كما صودرت بعض المحاصيل كمزارع الكروم الذي كثرت زراعته ، في أراضي الأديرة والكنائس خوفا من أن تصنع خبزا أو نبيلا (٢٧) .

ففي سنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م صادف الحاكم بأمر الله جميع ما هو محبوس على الكنائس وجعله في الديوان (٢٨) ، بينما أصدر أوامره في شهر رجب سنة ٣٩٨ هـ بوضع اليد على أوقاف الكنائس والأديرة الحديثة والمتينة بمصر وجعلها باسمه ، ثم أنفذ في

(٢٤) حطاب : الحكم بشر ٥٩ : ض ٥٨ .

(٢٥) — : نفس المرجع ، ص ٩٦ .

(٢٦) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(٢٧) كثروري : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٦ ، دولة ٥٧ .

(٢٨) المقرئ : للخط ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ .

شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ إلى مدينة حماة من وضع يده على
أوقاف الكنيسة المرونة بكنيسة الصبوح ، وفي سنة ٤٠٢ هـ /
١٠١١ م أقطع أملاك الكنائس والأديرة لعساكر جيشه ووصفها
لهم ، كما صادر أملاك كنائس القلزم ودير داية ودير طور سيناء
وأعطاهما لبعض خواصه (٢٩) ، ثم وهب في ربيع الآخر سنة
٤٠٣ هـ رباح الكنائس وأملاكها ومالها من حاصلات لجماعة من
الصفالبة والفراشين والسعدية (٣٠) و مرة أخرى في سنة
٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م يأمر بمصادرة أملاك الكنائس والأديرة
وأوقافها وأحباسها وتوزيعها على المسلمين (٣١) .

غير أن الحاكم يأمر الله تراجع في أواخر أيامه عن هذه
السياسة المتشددة وأصدر عدة مراسيم كانت لها أهميتها بالنسبة
لأملاك الكنائس والأديرة .

ففي ربيع الآخر سنة ٤١١ هـ أصدر مرسوماً يرد الأوقاف
والأملاك التي كانت محبسة على دير القصير من ضيعة ومزرعة
وعنية وأرض ونخيل وبستان ولشجار وحدائق في مائل أنحاء
الدولة ، وأمر بالسماحة بما يجب لبيت مال المسلمين على هذه
الأوقاف من خراج وعشر وجباية ، وفاء بالنمة (٣٢) .

كما رد ما أخذ من أوقاف كنائس وأديرة بيت المقدس
وكنيسة لك ونفا للرسم أصله في جنادي الأخرى سنة ٤١١ هـ
بناء على التماس تقدم به البطريرك توفور بطريرك بيت المقدس ،
وأمر بإشتر هذا للرسم في جميع أنحاء الدولة ، وأعطى صورة من
هذا للرسم لكل من طلبه من الرعايا المؤمنين في جميع أقاليم

(٣١) الاطلي : المسير السابق . ص ١٩٤ . ٢٠٤ . ٢٠٥ .

(٣٠) القوي : المسير السابق . ص ٣١ . ورقة ٩٦ . ٥٧٠ .

(٣١) القوي : المسير السابق . ورقة ١٨٠ .

(٣٢) الاطلي : المسير السابق . ص ٢٢٨ . ٢٢٠ .

الدولة ، الا ما كان قد بيع ابان فترة مصادرتها خاصة في دمشق
وجميع بلاد الساحل وصرف ثمنه في نفقات دار الخلافة للاحتياج
لثمنه ، او ما كان منها قد حصل لمن يتوقون شره من المسلمين (٢٣) .

اما بالتسببة لأملاك الموظفين النعميين من كبار رجال الدولة ،
فان الحاكم بأمر الله كان يصادرها عندما يتعرض هؤلاء للمراجعة
والحساب وتشير أصابع الاتهام الى ثرائهم بطرق غير مشروعة
او تشير الى سوء استقلال السلطة والنفوذ .

ومثالا لذلك نجد أن العزيز بالله القاطمي صادر إقطاعات
وأملك وزيره ابن كلثم عندما غضبه عليه (٢٤) وعلى يد الحاكم
بأمر الله لقي نفس العقاب ابن عبدون سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م .
ومعه عدد من كتابه النواوين - وغالبيتهم من الإقطاع - ثم أحل
سبيلهم بعد ذلك (٢٥) كما صادر الحاكم بأمر الله أملاك بعض
موظفيه من النصاري سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ابان فترة تشدده
في معاملته لأهل النعمة (٢٦) .

غير أن الحاكم بأمر الله ولحقا ارسوومه الصنادير في صفر
سنة ٤٠٤ هـ عاد فسمح لأهل النعمة المهاجرين الى بلاد القسوة
أو الحيشة أو بلاد الروم بأن يأخذوا معهم أموالهم ، وصرح لهم
بالتصرف فيها حسب اختيارهم آمنين مطمئنين والساح لهم يبيع
أملاكهم وأمتعتهم التي تزل عليهم حملها ، وأمر بصلم التمرض
لهم بالأنى أو التعيش و احسانا اليهم ، ورفقا بهم « (٢٧) » .

(٢٣) الإطلاقي : المصدر السابق ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

(٢٤) القريظي : الخط ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

(٢٥) الإطلاقي : المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(٢٦) — : نفس المصدر ، ص ٢٠٤ .

(٢٧) — : نفس المصدر ، ص ٢٠٧ .

ثم ما لبث الحاكم بأمر الله أن أصدر في سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م مرسوماً بالغزو العام شمل جميع النصارى بمصر يطعنهم فيه على أملاكهم وأموالهم وما تحويه أيديهم ، فكان ذلك ضمانة بعدم الاعتداء عليهم وحماية لكافتهم في جميع أرجاء الدولة (٣٨) .

ولم تقتصر ممتلكات أهل الذمة لأية ضمايات أو مصادرات في عهد الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله ، بل أن الظاهر لأعزاز دين الله أطلق ما بقي من أوقاف وأملاك الكنائس والأديرة التي لم تكن قد ردت إليها إبان خلافة الحاكم بأمر الله (٣٩) . كما أصدر مرسوماً في شهر المحرم سنة ٤١٥ هـ بأن يحفظ للرهبان البيعانية في مصر ما لهم من « ذرع وغلة وعوامل في سبائر النواحي » وأن تصان الأراضي الموقوفة على أديرتهم ، وذلك تأكيداً لسياسة التسامح الديني التي نصوا عليها في عهود الخلفاء الفاطميين الأوائل في مصر (٤٠) .

وإذا كانت بعض المصادر تتحدث عن تعرض أملاك ومزارع وأوقاف الكنائس والأديرة وكذلك بعض أملاك الأقباط للمصادرة في خلافة المستنصر بالله الفاطمي وبخاصة في وزارة اليازوري ، فالواقع أن حالة البلاد كانت سيئة بوجه عام خلال تلك الفترة . فقد شملت الاضطرابات أحوال أهل الذمة والمسلمين على السواء ، نتيجة لاضطراب الأحوال السياسية والاقتصادية التي عمت البلاد في أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجري (٤١) .

(٣٨) الإطلاق : المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .

(٣٩) — : نفس المصدر ، ص ٢٢٥ .

(٤٠) Stern : Op. cit., p. 18.

(٤١) جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

ورغم أن الكنيسة قد تناقصت أملاكها ويوتا رويدا عبر القرون ، إلا أن الكنيسة في مصر كانت تملك في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي حوالى أحد عشر ألف ومائتين وخمسين فدانا من الأقطان ، على الرغم من المصادرات المدينة التي تعرضت لها (٤٢) .

وانتشر السكان من أهل النوبة في ريف مصر وقراها ، فقد كان الكثير من قرى الريف في مصر سكانها تصارى أو يغلب على سكانها الفلاحون من الأقباط (٤٣) . وهؤلاء امتلكوا الأراضي الزراعية والضياح والأقطاعات ، بجانب أراضي الكنائس والأديرة وما حولها من بساتين وحدائق وأراضي زراعية يستغلها وحيان الدير (٤٤) .

وساهم الفلاحون من أهل النوبة بقدر كبير في الانتاج الزراعى ، وأنثروا وتأثروا بالسياسة الزراعية لمصر في عصر الفاطميين .

فقد زوعت أملاكهم بالكثير من المحاصيل الزراعية كالقمح ، والكتان ، وقصب السكر ، والزيتون ، والخضروات ، والبقول ، بجانب بساتين الفواكه مثل الكروم والرمان ، والتفاح ، والكستوى ، والتين ، فضلا عن أشجار النخيل ، وزراعة عجائب

(٤٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، الطبعة الثانية ، ص ٢٢ .

(٤٣) المقسى : المصدر السابق ، ص ٧٠٢ .

— ابن حوال : المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(٤٤) ابن حوال : المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

— غير صالح : المصدر السابق ، ص ١٤٤ ، ١١٣ ، ١٤٠ ، ١٣١ .

الزهور والورود وغرس الأشجار (٤٥) ، هذا بجانب المراعي
الواسعة حيث اشتغل البهمن من أهل النخبة برعى الأغنام (٤٦) .
وبريت هذه الأراضي إما بمياه النيل ، أو من العيون والآبار ،
كما وجدت السواقي الملحقة بأراضي الأديرة وأوقف على بعضها
أعداد كبيرة من البقر لتدور في تلك السواقي (٤٧) .

لكن هناك بعض المحاصيل التي تأثر إنتاجها بسبب الظروف
الاجتماعية والاقتصادية في مصر الفاطمية ومنها محصول الكتان
الذي انتشرت زراعته في الأراضي الزراعية المنخفضة والتي تفرها
المياه أطول مدة (٤٨) .

لزرع الكتان في مناطق الفيوم وأسيوط والمنيا والدلتا حيث
تكثر مصانع النسيج ويكثر عمال النسيج من الأقباط ، وكان لابد
من الاهتمام بهذا المحصول نظرا للأقبال الشديد على المنسوجات
الكتانية التي زاد الأقبال عليها في ذلك العصر (٤٩) . واستتبع
هذا النمائية يزرعة النيلة التي انتشرت زراعتها في الصعيد

(٤٥) أبو صالح : المصدر السابق ، ص ٥١ ، ١١٢ ، ١٢٠ ، ١٢١ .
- المصدر : المصدر السابق ، ص ١٢ ، ٣٦ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٧١ ، ١٠٧ .
١١٩ -

- ابن فضل الله العمري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

(٤٦) الألفيزي : الخط ، ج ١ ، ص ٥٠٥ .

(٤٧) أبو صالح : المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(٤٨) الليثي : المرجع السابق ، ص ٦٨ .

(٤٩) ابن شهريرة : الفضائل الباهرة في معادن مصر والقاهرة ، تحقيق
مصطفى السقا ، للقاهرة سنة ١٩٦٦ م ، ص ٦٥ .

الأعلى (٥٠) وكان هذا الحبوب لا يقدر على زراعته إلا أغنياء
الفلاحين في الريف (٥١) .

أما قصب السكر فقد توسع المصريون في زراعته وخاصة
في مناطق زراعته في الصعيد والفيوم حيث يكثر الفلاحون من
الاقباط وحيث تكثر معاصر القصب (٥٢) ، وذلك لخدمة الطلب
على انتاج السكر والحلوى بسبب سياسة الحكومة الفاطمية التي
كانت ترمي إلى الاهتمام بالأعياد الدينية والمناسبات العديدة التي
أدخلها الفاطميون أو بسبب التوسع في الاحتفال بهذه الأعياد مع
إقامة الحفلات الفخمة في قصور الخلفاء والوزراء وكبار رجال
الدولة ولسد حاجات أفراد الشعب الذي أقبل يتسفف على
الاستراة في هذه الأعياد وتلك المناسبات (٥٣) .

على أنه في خلافة الحاكم بأمر الله بسيدته علة مراسيم
تتعلق بمنع بيع العسل الأسود وكسر جرار العسل ورميها في
البليل خوفا من أن تصنع مسكرات (٥٤) ، فقل وجود العسل
واختفى من الأسواق وارتفع سعره لندرة وجوده (٥٥) .

(٥٠) سيده كاشف وحسن محمود . مصر في عصر الطولونيين والافطيين ،
ص ٢٢٩ .

(٥١) البراوى : المرجع السابق ، ص ٧٠ .

(٥٢) للصفي : المصدر السابق ، ص ٢٢ ، ٢٩ ، ٦٢ ، ٧١ .

— البراوى : المرجع السابق ، ص ٧٠ .

(٥٣) البراوى : المرجع السابق ، ص ٧٠ .

(٥٤) للقمامي : المصدر السابق ، ورقة ١٨٠ .

سيف بن الجوزي : المسار السابق ، ج ١١ ، ورقة ٤٠٢ .

(٥٥) ابن أبيه : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ١٧٢ .

ونعتقد أن مثل هذه الإجراءات قد أدت إلى نقص المساحات المزروعة قصيا ، على أنه يانتهاء عصر الحاكم بأمر الله ازداد الاهتمام بزراعة هذا المحصول الهام ، وليس أدل على ذلك من قول ناسري خسرو الذي زار مصر في خلافة المستنصر بالله قوله :
« وتنتج مصر عملا كثيرا وسكرا » (٥٦) .

واشتهر الريف المصري بكثرة مزارع الكروم (٥٧) ، وأهتم الفلاحون الأقباط بزراعة الكروم في أراضيهم ، كما اشتهرت أديرة النصارى بزراعة مساحات واسعة منه سواء داخل مساقطه الأديرة أو بالأراضي التي في حوزة هذه الأديرة لسد احتياجات الرهبان سواء للأكل أو صناعة الزبيب والخمور (٥٨) .

لكن هذا المحصول تعرض للإبادة في عهد الحاكم بأمر الله وفقا للقرارات الصارمة التي أصدرها ، فكثيرا ما قطعت أشجار العنب حتى لا يتخذ منه الناس خمرا (٥٩) ، ففي سنة ٤٠١ هـ عندما نضج محصول العنب وأخذ الناس في اجتياعه واعتصامه سرا ، أمر الحاكم برمى المحصول في النيل ومنع الناس من يعبه وأكله (٦٠) ، وفي العام التالي أمر بقطع أشجار العنب وحرق جميع مزارع الكروم بالأراضي المصرية ، وببالغ التعجب في ذلك بقوله أنه في سنة ٤٠٣ هـ « قطعت كروم العنب بأمرها وزميت في الأرض وديست بالبقر ، وجب ما كان من الخمر بالمخازن

(٥٦) ناسري خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٥٧) المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٧ .

(٥٨) أبو صلاح : المصدر السابق ، ص ٥٦ .

— المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٧٩ ، ٥٠٣ .

— ذكر محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٤٤ .

(٥٩) ابن كثير : المستدرك السابق ، ج ١٢ ، ص ٩٠ .

(٦٠) الانطلي : المصدر السابق ، ص ٧٠٢ .

وأمرلوا في البئر . (٦١) . وقد استتبع ذلك الغاء مكوس دار
الفاكية (٦٢) . وكان معنى صدور قرار خاص بالكروم ومنعجاته
أن قيودا قد فرضت على زراعة الكروم .

وبانتهاء عهد الحاكم بأمر الله ، رخص ابنه الخليفة الطاهر
للناس بضمير العنب وشرب الخمر (٦٣) . بل أن الطاهر نفسه
أقبل على شرب المسكرات وإباحتها (٦٤) .

ولم تصدر الخلافة في عهد المستنصر ما يقيد زراعة الكروم ،
بل عاد الاعتماد بزراعة هذه المحصول ، نظرا للتوسع في إنتاج
الخمر مع عودة الإهتمام بالأعياد والمناسبات المختلفة ، والقبال
الناس على شرب المسكرات (٦٥) .

-
- (٦١) النوري : المصدر السابق : ج ٢٦ ، ورقة ٥٧ .
(٦٢) العملي : المصدر السابق : ج ١٩ ، ورقة ٥٩٧ .
(٦٣) سبط بن المؤيد : المصدر السابق : ج ١١ ، ورقة ٤١٠ .
(٦٤) المقرئ : الخط : ج ٦ ، من ٢٥٢ ، ٢٥٤ .
(٦٥) المقرئ : الخط : ج ٦ ، من ٢٥٢ ، ٢٥٤ .

النشاط الصناعي لأهل اللمة

شهدت مصر في العصر الفاطمي الأول نهضة صناعية كبرى لم تشهدها البلاد قبل مجيء الفاطميين إلى مصر ، فقد تنوعت الصناعات وزاد الإنتاج ، واستحدثت الكثير من الصناعات ، كما اعتمد الصانع المصريون بإتقان الصنعة وجمال الفن (٦٦) .

فقد توافر في هذا العصر من الأسباب والظروف ما أدى إلى قيام نهضة صناعية كبرى ، إذ نمت مصر في ظل الخلافة الفاطمية بالاستقلال السياسي التام مما عجل بفتح عجلة التطور والتقدم بخطى ثابتة وسريعة لبناء صرح اقتصاد مصري شامخ في ظل خلافة قوية (٦٧) عملت على استتباب الأمن ونشر العدالة التي شملت جميع فئات الشعب (٦٨) .

(٦٦) سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، ص ١١٨ - ١١٩ .

- مزني : الخزف المصري في الألفية الفاطمية ، ص ١١٨ .

(٦٧) البراوي : المرجع السابق ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٦٨) القلي : المستمر السابق ، ص ٢١٢ .

وكان معظم الصناع من المصريين سواء أكانوا ممن بقي على
حيثه من الأقباط أو ممن اعتنق الإسلام (٦٩) .

على أن سياسة التسامح الديني التي عاشت تحت مظلتها أهل
الثمة في مصر كانت من أهم العوامل التي أدت إلى تقدم الصناعات
وازدهارها ، إذ انصرف العمال إلى أعمالهم في أمن واطمئنان
ما جعلهم يتفانون بإخلاص في خدمة الدولة في شتى مجالات
الانتاج الصناعي ، وخاصة أن الفاطميين حرصوا على توظيف مهرة
الصناع الأقباط وغيرهم في دفع عجلة الانتاج الصناعي إلى الأمام
لبناء صرح اقتصادي مصري قوى يدعم سياسة الفاطميين ومركزهم
في مصر (٧٠) .

ومن خلال نظرة خاصة نجد أن أهل الثمة في مصر كانت في
أيديهم معظم الصناعات المصرية ، وأن الصناع الأقباط كانوا هم
الهيستين على تلك الصناعات ولهم كانت اليد الطولى في كثير من
فنون ذلك العصر (٧١) .

(٢) صناعة النسيج :

من الصناعات التي ازدهرت في مصر الفاطمية صناعة
النسيج ، تلك الصناعة القوية التي حمل لواحقها أقباط مصر للمدة
طويلة (٧٢) .

(٦٩) سيرة كادش : مصر في مجر الإسلام ، ص ٢٤٧ .

(٧٠) زكي مصطفى حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٨٠ .

— للبراق : المرجع السابق ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٧١) مرقس : الزخرفة النسيجية في الأقباطية الفاطمية ، ص ١١٨ ، ١١٩ .

(٧٢) حش : تاريخ العرب ، ج ٧ ، ص ٧٤٧ .

وكانت صناعة النسيج تتمركز في المدن التي كان الأقباط يشكلون فيها غالبية كبرى ، ومن هذه المدن : تنيس ، والإسكندرية ، ودمياط ، وشطا وديق ، ودميرة ، وتولة ، والفرما ، والأشمونين ، والبهنسا ، وأخميم وأسيوط ، وغيرها من مراكز صناعة النسيج في مصر الفاطمية (٧٣) .

وكانت المنسوجات الكتانية تنسج في عديد من المدن المصرية لاسيما تنيس ، ودمياط ، وشنسطا ، وديق ، ودميرة ، وتولة ، والبهنسا (٧٤) وبلغت أخميم درجة كبيرة في صناعة المنسوجات خاصة الصوفية منها والحريرية (٧٥) ، أما أسيوط فكانت شهرتها صناعة المنسوجات الصوفية من الصوف المصري الذي اشتهر به الصعيد الأعلى ، وكانت منسوجات أسيوط الصوفية ذات ملمس ناعم حتى أن الإنسان ليلظن أن تلك المنسوجات من الحرير (٧٦) ، أما الثياب المنسوجة في الإسكندرية فقد اكتسبت شهرة واسعة وكانت تصنع في أغلبها من الكتان (٧٧) .

واتخذ الفاطميون من المنسوجات الفاخرة التي اشتهرت بها مصر وسيلة لتحقيق مكاسب سياسية ودينية ، وذلك بنسج عبارات خاصة على الملابس تشيد بمركزهم الديني والسياسي ، وكان الاكثار من توزيع الكسوات على رعايا الدولة وغيرهم يساعد الى حد كبير على

(٧٣) المقري : المستدر السابق ، ص ٢١٣ .

— المقري : الخط ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

— زكي محمد حسن : كتوز الفاطميين ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٧٤) ابن حوقل : المسند السابق ، ص ١٤٤ .

(٧٥) ابن خلدون : المسند ، ص ٦٢ .

(٧٦) المصري شمس : المستدر السابق ، ص ٧٠ ، ٧١ ، ١١٧ .

(٧٧) المقري : الخط ، ج ١ ، ص ٦٢ .

تفريق هذه الأهداف ، فلقد كانت الخلافة الفاطمية تسمى من وراء ذلك الى مكاسب أدبية ومادية باستمالة الناس واجتذاب قلوبهم واكتساب الراى العام اليوم عن طريق الانعام والتكريم لرجالها (٧٨) .

وما ساعد على تقدم صناعة النسيج تلك العلاقات التجارية النشطة بين مصر والبلاد الأجنبية ، وكثرة الطلب على مختلف أنواع النسيج المصرى (٧٩) ، هنا فضلا عن اهتمام الدولة بالاعتراف الدقيق على هذه المصانع (٨٠) ، واهتمامها بتوفير الخبرة المدرية ، وتوفير الظروف الملائمة للصناع الأجانب الذين كانوا يعملون بها (٨١) . كما كان الخلفاء الفاطميون يشجعون عمال النسيج المهرة بمنحهم المكافآت التشجيعية . ويذكر ناصرى خسرو على سميل المثال : « أن عاملا نسيج عمارة السلطان فامر له بخمسة مائة دينار ذهب مخرى » ، مكافأة له لدية صنعتها وجمال منظرها (٨٢) . كما اهتم كبار رجال الدولة بتشجيع هؤلاء الصناع مما أدى فى النهاية الى زيادة الانتاج وحسن الصنعة (٨٣) .

ولقد اهتمت الدولة بهذه الصناعة نظرا لأهميتها للاقتصاد المصرى ولبيث مال الدولة نظرا الى يجبى عليها من ضرائب (٨٤) .

(٧٨) الليراوى : المرجع السابق . ص ١٢٦ . ١٢٧ .

— زكى محمد حسن : كلوز للفاطميين . ص ١١٧ ، ١١٨ .

(٧٩) ناصرى خسرو : المصدر السابق . ص ٢٨ . ٣٦ . ٤٠ .

(٨٠) الليراوى : المرجع السابق . ص ١٢٦ .

— سبيكة : دليل لكتف القوطى . ج ١ . ص ١١٨ .

(٨١) المقريزى : لظفر الصائق . ج ٤ . ص ٤٤٣ .

(٨٢) لناصرى خسرو : المصدر السابق . ص ٢٨ .

(٨٣) زكى محمد حسن : المصدر السابق . ص ٨٠ .

(٨٤) ناصرى خسرو : المصدر السابق . ص ٤٠ .

وقد ساعد توفر خامات النسيج في مصر على ازدهار هذه الصناعة ، فالكثبان تتوفر زراعته في وادي مصر ، والصوف المصري يتوفر في مناطق القيوم وأخميم ، وأميوط لكثرة تربية الأغنام على أيدي القبائل العربية التي نزلت وسكنت في تلك المناطق (٨٥) .

لكل هذه العوامل ازدهرت صناعة النسيج ، وأنتج النماجون الأقباط أفخر أنواع المنسوجات الكتانية والصوفية والحورية والقطنية التي ليس في « جميع الأرض ما يداينها في القيمة والحسن والنعمه والترف والرقه والدقة » (٨٦) ، وبلغت تلك المنسوجات درجة من الرقي أذهلت المؤرخين والرحالة الذين زاروا مصر في هذه الفترة (٨٧) ، وقد حملت هذه المنسوجات الكثير من أسماء الملن المصرية التي صنعت بها ، فهناك الثياب التنيسية ، والشسوطية ، والحياطي ، والديقي (٨٨) والغرب الاسكندري (٨٩) ، والقماش القيسي والبهنساوي (٩٠) .

فقد اكتسبت مدينة تنيس على سبيل المثال شهرة عالمية بفضل مهاره عمال النسيج الأقباط الذين عرفوا « بحسن زيهم ولطافة صناعتهم (٩١) » ، فقد أضفروا على مدينتهم مكانة مرموقة بين الملن

(٨٥) ناصري خسرو : المصدر السابق . ص ٧٠ .

— البراوي : المرجع السابق . ص ١٢٥ .

(٨٦) ابن حوقل : المصدر السابق . ص ١٤٢ .

(٨٧) المقري : المصدر السابق ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

— ناصري خسرو : المصدر السابق . ص ٧٠ ، ٧١ .

(٨٨) ابن حوقل : أكتسار لولسطة حد الأمصار . ج ٥ . ص ٧٩ .

(٨٩) المقري : الخطط . ج ١ . ص ١٦٧ .

(٩٠) البراوي : المرجع السابق . ص ١٢٢ ، ١٢٤ .

(٩١) ابن حوقل : المصدر السابق . ج ٥ . ص ٧٨ .

الصناعية الكبرى في ذلك العصر - ولا يزال ناصري خسرو عندما يذكر « أن سلطان الروم كان أوفد رسولا ليعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على أن يأخذ تنيس فلم يقبل السلطان ، وكان عقده من هذه المدينة القصب والبوقلمون » (٩٢) ، وهذا من أهم وأقصر منسوجاته تنيس .

وإذا كانت هذه مكانة مدينة تنيس التي كانت تضم حوالي الخمسين ألف نسمة من السكان (٩٣) وآلاف المناسج ، فماذا عن دمياط التي كانت « أحق صناعات وأرقع بزا ، وانظف عملا » (٩٤) .

وأما أسيوط فكان يصنع بها « عمائم من صوف الخراف لا مثيل لها في العالم » (٩٥) ، هذا بينما كانت تصدر منسوجات أخميم إلى أقصى البلاد ، (٩٦) .

ولا يسعنا أمام مهارة هؤلاء النساجين وجودة صناعاتهم إلا أن نذكر أهم أنواع تلك المنسوجات التي أنتجتها آلاف المصانع التي عمل بها الصناع الأقباط ومنها :

الديبلي :

وهو ذلك النسيج الحريري الذي ينسج إلى قرية ديبلي ، التي اشتهرت بالثياب المثقلة والمائم الشرب الملونة التي كان يبلغ طول الصامة منها ذراع وتبلغ قيمتها خمسمائة دينار سوى الحريري

(٩٢) تلمسرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٢٨ .

(٩٣) تلمسرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٢٨ .

(٩٤) المقري : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٩٥) تلمسرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٧٠ .

(٩٦) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ٩٢ .

والغزل (٩٧) . كما كانت الثياب الدبيقية من أهم منسوجات مدينة
اميوط التي غلب على سكانها الأقطاط. (٩٨) .

ولشهرة الثياب الدبيقية (الدبقي) أطلق هذا الاسم على
منسوجات أخرى مثل القميس والنسيج الحرير المشجر والثياب
الكتانية . ولجودة الثياب الدبيقية أطلق هذا الاسم على إحدى قرى
بمقاطعة اسم دبيقية . وكانت منسوجاتها تباع على أنها من إنتاج
مصانع دبيق المصرية ليقبل الناس على شرائها (٩٩) .

القصب :

وهو نسيج من الكتان يمتاز بالنعومة الفائقة . وكان ينسج
بتنيس القصب الملون من عمامات ودوقيات ومما يلبس النساء ،
ولا ينسج مثل هذا القصب في جهة ما غير تنيس (١٠٠) ، أما القصب
الأيضي فقد اشتهرت بصناعته مدينة دمياط ، ويبلغ قيمة الثوب
الأيضي وليس فيه ذهباً ثلاثمائة دينار (١٠١) .

الشرب :

ويطلق على هذا النسيج اسم الشرايبي ، وهو نوع من الحرير
أو الكتان النقي الفاخر . واشتهرت مدينتا دمياط وتنيس بصناعة
أجود أنواع القروب الفاخرة (١٠٢) .

(٩٧) القزويني : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

(٩٨) ياقوت : المصدر للمصنوع ، ج ١ ، ص ٢٥١ .

(٩٩) القزويني : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

- للبراوني : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(١٠٠) القزويني : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

(١٠١) ابن طهيرة : المصدر السابق ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

(١٠٢) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

- كتاب الاستيعار في عمائد الأمصار ، تحقيق د. محمد زاهر ، ص ٨٧ .

كما كان الصنّاع الأقباط يصنعون بديق العمام الشرب
 والمنحبة وفيها رقعات منسوجة بالذهب . وقد استحدثت هذه العمام
 لأول مرة في خلافة العزيز بالله الفاطمي سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥ م (١٠٣) ،
 وكان في « ثياب الاسكندرية ما يباع الكتان منه اذا عمل ثيابا يقال
 لها الشرب ، كل زنة دوهم فضة ، وما يدخل في الطرز فيباع بنظر
 وزنه مرات عديدة » (١٠٤) .

البندنة :

وهو اسم ذلك الثوب الثمين الذي كان يصنع للخلفاء ، ويقوم
 بصنّاعته لساج مهرة تخصصوا في صنع ملابس الخلفاء ، ولا يدخل
 في هذا الثوب من القزل - سلاء ولحمة - غير أوقيتين ، وفيه من
 الذهب اربعمائة دينار ، قد أحكمه صانعه باتقان بالغ بدون حاجة
 الى تفصيل أو خياطة غير الجيب والتباقي ، ويبلغ قيمة الثوب الألف
 دينار (١٠٥) .

وكان ثياب البندنة ينسج في مصانع الحكومة ، ولا يصرح
 ببيعها ، ولقد حاول أحد ملوك فارس أن يشتري بدلة فارسل أعوانه
 الى تيس بعشرين ألف دينار لكي يحصل على ثوب من البندنة ،
 فمكثوا بتيس عدة سنوات ، ولكنهم فلقموا في الحصول على بدنة
 واحدة من كسوة الخلفاء (١٠٦) .

(١٠٣) القزويني : القسطنطينية ، ج ١ ، ص ٢٢٦ .

(١٠٤) ——— : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

(١٠٥) كتاب الاستيعاب ، ص ٨٧ .

(١٠٦) ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص ٢٨ .

القباطي :

وهو نسيج من الكتان أو التيل ، وكان العرب يطلقون على المنسوجات اسم القباطي ، ويرى بعض المؤرخين أن هذه التسمية نسبة الى قبط مصر الذين اشتهروا بمهارتهم في صناعة النسيج (١٠٧) ، ومن القباطي الأبيض كان ينسج أجزاء من كسوة الكعبة (١٠٨) .

البوقلمون :

أحد أنواع المنسوجات التي اشتهرت بها مصر وبخاصة مصانع النسيج في تينيس ، ويذكر ناصري خسرو أن البوقلمون لم يكن ينسج في مكان آخر في ذلك العصر الا في مدينة تينيس . وهذا القماش يتميز باللونه البراق ، ويظهر في ألوان مختلفة حسب تعرضه لضوء الشمس والوضع الذي يكون فيه واختلاف ساعات النهار ، وكان يصدر الى جميع بلدان الشرق والغرب لشدة الطلب عليه (١٠٩) .

العتابي :

وهو أحد أنواع المنسوجات الحريرية ، وكان هذا النوع ينسج بمدينة بغداد حيث كانت تنسج العتابة ، ثم استحدث هذا النسيج في مصر وصنع في عصر الفاطميين (١١٠) .

(١٠٧) سيدة كاف : مصر في عهد الاسلام ، ص ٢٤٩ .

(١٠٨) بيبس للونادار : المصدر للمطابق ، ج ٦ ، ورقة ٢٦٠ .

(١٠٩) ناصري خسرو : المصدر للمطابق ، ص ٢٨ .

ويسمى البوقلمون أيضا باسم القلمون ، وسامعا بعض المؤرخين آير لقون وكتبها آخرون قليمون وهي لغة بربرية الأصل . وهذا النسيج صنع في بلاد اليونان ثم انتقلت صناعته الى مصر (نقولا يوسف : المرجع السابق ، ص ٢٢٤) .

(١١٠) البيروني : المرجع السابق ، ص ١٢٢ ، ١٢٤ .

وكان للاتصال التجارى مع البلاد المجاورة وسفر بعض المصريين الى تلك الدول ، ومجيء التجار الأجانب الى مصر اثره الكبير فى تشجيع الصناع على اقتباس أنواع ممتازة وتقليد أجود أنواع الأقمشة التى كانت ترد الى البلاد المصرية مما يتفق وميول الفاطميين والشعب المصرى . ولذلك عرفت مصر فى العصر الفاطمى أنواعا جديدة من المنسوجات ، مثل الخسروانى ، والطليم ، والأرمنى ، والكردوانى والسندسى ، والتى تدل بعض أسمائها على أصلها الأجنبى (١١١) .

وقد اشتهرت تنيس بعمل قماش الخيام (١١٢) ، كما اشتهرت القيوم بصناعة الخيش ، وسمالوط بعمل المنسوجات من شعر الماعز ، والاسكندرية بالحريى السكندرى (١١٣) .

وكان الرهبان بالأديرة ينسجون الأقمشة ويحكونها وفقا لاحتياجاتهم من أنواع الصوف والكتان اللازمين لعمل الملابس الخاصة بهم ، كما أن الراهبات اشتغلن بتطريز الملابس الكهنوتية ، وكذلك افخر الملابس اللازمة لدفن الموتى كما جرت به عادة الأقباط عند دفن موتاهم (١١٤) .

ولذا كان الخلفاء الفاطميون قد أنشأوا دور الطراز ، مصانع النسيج ، فى كثير من المدن المصرية ، وأنهم استدخلوا الصناع الأقباط فى هذه الدور ، فقد قامت الى جانب دور الطراز الحكومية مصانع أخرى خاصة لنسيج الأقمشة التى يستعملها القبط (١١٥) .

-
- (١١١) الليبى : المرجع السابق . ص ١٢٤ .
 (١١٢) المقرئ : الخط . ج ١ ، ص ٤٦٨ .
 (١١٣) الليبى : المرجع السابق . ص ١٣٦ .
 (١١٤) سبيكة : المرجع السابق . ج ١ ، ص ٦٨ .
 (١١٥) بيليك : اللؤلؤ الاسلامى . ص ٢٨ .

واهتم الصناع الأقباط بالزخرفة المنموجة على الأقمشة في العصر الفاطمي الأول . وكانت أهم الألوان المستعملة وبالثبات على الأقمشة الحمرية الأزرق والأسود والأحمر والأصفر والبني والأخضر . وكانت الوحدات الزخرفية هي بعينها تلك الوحدات التي كان يستعملها النسيج قبل العصر الفاطمي ، وكل ما هنالك من لرق هي أنها صارت ترسم بدقة ومهارة تقل على رقي اللوق وتقدم الفن (١١٦) .

واشتملت هذه الوحدات الزخرفية على رسوم حيوانات أو طيور أو أشكال آدمية (١١٧) ، على نساجي هذا العصر كانوا أميل الى استغلالهم صور الحمامة في زخرفة المنسوجات فأكثروا من رسمها وتفننوا في وضعها ، وترجع أسباب تفضيل هذا الطائر على غيره الى أن معظم عمال النسيج كانوا من الأقباط ، وأن هذا الطائر كان محبوبا اليهم ، ويرمزون به الى الروح القدس ، او الى أنه ربما تكون هناك ثمة علاقة وطيدة بين الأقباط من استئصاله في الزخرفة وبين سياسة التسامح الديني التي عاش تحت مظلتها جموع أهل الامة في ذلك العصر (١١٨) .

وكان الاتجاه العام في زخرفة المنسوجات في بداية العصر الفاطمي الأول يرمي الى العناية بالزخارف الخطية التي كانت تمتاز بجمالها وتنوعها ، بحيث يكون للزخرفة الخطية مكان الصدارة على الأقمشة ، ثم تأتي زخرفة الرسوم في المجل الثاني ، الا أنه في خلافة الحاكم بأمر الله وزعت العناية بين الخط والزخرفة فكانا متساويين تقريبا في الاتساع ، على أن ذلك الحال لم يستمر طويلا .

(١١٦) حزنك : المرجع السابق . ص ١١٦ .

(١١٧) للبراون : المرجع السابق . ص ١٢٨ .

(١١٨) حزنك : المرجع السابق . ص ١١٨ .

قلقه زاد الاهتمام مرة أخرى بالزخرفة ، فرسمت الزخارف أكبر في الحجم من الكتابة ، ووضع النساج الكتابة أسفل الزخرفة ولم يجعلها تمتد امتدادها كما كان الحال عليه من قبل (١١٩) .

واستمر التأثير القبطي على الفن الإسلامي في الزخرفة على المنسوجات قائما ، وظل أثره واضحا حتى القرنين الخامس والسادس الهجري / المئدي عشر والثاني عشر الميلادي وإلى أن كانت السيادة للخط النسخ ، وفقدت رسوم الحيوانات والطيور خواصها ، وصارت اشكالا تقليدية لا تمت إلى الطبيعة بصلة كبيرة (١٢٠) .

وكانت أسماء الخلفاء تنسج في الأقمشة الثمينة بخيوط الذهب والفضة أو الخيوط المتعددة الألوان تمجيدا لهم ودليلا على أنها صنعت في عهدهم ، وشارة من شارات الملك ، ووثيقة لمن خلعت عليه للدلالة على درجته ووظيفته وشارة إلى رضا الخليفة عنه (١٢١) .

كما كان الخليفة يسمح بكتابة اسم وزيره في الطراز تكريما له (١٢٢) ، وأحيانا كانوا يكتبون اسم المشرف على العمل في دار الطراز ، ولكن قلما كانوا يذكرون اسم الصانع نفسه (١٢٣) .

(ب) الصناعات الخشبية :

بلغت الذعة في السفر على الحشب والصناعات الخشبية

(١١٩) — : نفس المرجع ، ص ١٢٢ .

(١٢٠) بيملاك : المرجع السابق ، ص ٧٨ .

(١٢١) زكي محمد حسن - كتوز اللطيفين ، ص ١١٧ ، ١١٨ .

(١٢٢) المرقطة : المخطوط ، ج ٢ ، ص ٧٨٤ .

(١٢٣) للبراق : المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

مرحلة ممتازة على يد الصناع الأقباط في عصر الفاطميين ، إذ كانت الريادة في هذا الميدان لأهل البلاد من القبط (١٢٤) .

وشجع الخلفاء الفاطميون هؤلاء الصناع على الارتقاء بمستوى صناعاتهم نظرا للحاجة الشديدة الى تلك الصناعة وحدا الفن ، ومساعد على تقديم الصناعات الخشبية وازدهارها في عصر الفاطميين ما عرف عنهم من تسامح ديني عظيم (١٢٥) .

ونظرا لعدم صلاحية الأخشاب المحلية كالجميز والسنط والنبق والسرو فقد استوردت مصر الأخشاب الصالحة لهذه الصناعة من أوروبا (١٢٦) ، وذلك عن طريق تجار أمالي وجنوة والبنديقية (١٢٧) ، كما استوردت خشب الأرز والصنوبر من الشام وآسيا الصغرى ، أما خشب الأبتوس فكان مصدره السودان ، كما استوردت مصر خشب الكك من الهند وشبه جزيرة الملايو (١٢٨) .

وبرع الصناع المصريون في استخدام الأخشاب وبخاصة في عمل السقوف والأبواب والنوافذ والمحاريب والقباب وما بها من

(١٢٤) ميخائيل : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

- علي حسني الشربطلي : مصر العربية الاسلامية ، ص ٢٢٩ .

(١٢٥) زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٤٥٦ - ٤٥٢ .

- — : كلوز الفاطميين ، ص ٢٠٦ .

(١٢٦) حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، ص ٢٩١ .

(١٢٧) علي القهس : تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الدولة الفاطمية سنة ٦٥٦ هـ ، رسالة مكتوبة عن جامعة القاهرة سنة ١٩٧٢م ، غير مطبوعة ، ص ٦٦٠ .

(١٢٨) حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، ص ٢٦٤ .

حشوات جميلة (١٢٩) . بجانب تصنيع كافة الأثاث الفاخرة
والمتحف الخشبية الرائعة .

وتقوى الصناع الأقباط في الكنائس القبطية نفس الزخارف
التي نراها على خشب الجوامع والأثاث الاسلامي ، ففي المتحف
القبطي قبة مذهب أصلها من كنيسة الحلقة ، وعلى جزئها السفلي
عقود وصلبان في فروع نباتية مخفورة حفرا دقيقا تذكر بالزخارف
الجصية في الجامع الأزهر ، مما يدل على ازدهار صناعة الخمر
على الخشب ابان عصر الفاطميين على يد الصناع والفنانين من
الأقباط والمسلمين على حد سواء (١٣٠) .

وازدهر هذا الفن ازدهارا يثير الإعجاب في عصرى الظاهر
والمستنصر . وانتجت أيدي الصناع المصريين نماذج لصناعة النقش
على الخشب تدل على أن هذا الفن بلغ أقصى درجات الفن والرفق
في عصر الفاطميين (١٣١) .

وكان للصناع والفنانين الأقباط أربع طرق لزخرفة الأخشاب
منها : النقوش البارزة ، والنقوش بطريقة التفريغ ، وثالثة بتعشيق
الخشب وتطعيمه بالماج ، ورابعة بالخرط ، كما كانوا أيضا مهرة
في التطعيم بالماج والصيف ، وطرقتهم في ذلك أن ينقشوا قطعة
الماج أولا على أفراد ، ثم يشبونها في إطار من الخشب قبل تركيبها
في الموضع المحد لها (١٣٢) .

-
- (١٢٩) البراون : المرجع السابق ، ص ١٧٠ .
(١٣٠) ذكره محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٤٠ .
(١٣١) — : نفس المصدر ، ص ٢٦٧-٢٦٨ .
(١٣٢) حيكارد : المرجع السابق ، ص ١٠١-١٠٢ .

ومن أبدع الأمثلة الباقية للتحف الخشبية - الحفر على الخشب - في بداية العصر الفاطمي حجاب الهيكل في كنيسة السبت بربارة ببصر القديمة - وهو معروض الآن بالمتحف القبطي بالقاهرة - ومع أنه لا مجال للشك في أنه من صناعة الفنانين الأقباط ، إلا أننا نرى في زخارفه خصائص الأسلوب الفاطمي ، فالحجاب يتألف من خمس وأربعين حشوة خلاف دائرة القبة العليا ، والزخارف المحفورة متنوعة الموضوعات لطيور وحوانات ملفتة وغزلان وأشخاص ومناظر للصيد والقنص ، يتخلل تلك الزخارف صلبان ، بجانب تفريعات نباتية تمكمل مع غيرها من الرسوم وحطت زخرفية كاملة ، وتعتبر حشوات هذا الحجاب أجمل ما بقي من صناعة خشبية في العصر الفاطمي ، وأصدق مثال على ازدهار صناعة الحفر في الخشب على يد الصناع من القبط في عصر الفاطميين (١٢٣) .

ولقد بقيت الرسوم الحيوانية والموضوعات الأدبية التي شاعت في الحفر على الخشب في بداية العصر الفاطمي مستمرة خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وفي مجموعة الألواح الخشبية والأبواب التي عثر عليها في مارستان ودية قلاوون وابنة الناصر محمد والتي يرجع تاريخ تصنيعها إلى العصر الفاطمي الأول ، نرى زخرفة حافلة بالرسوم المختلفة ، لكن الحفر والرسوم في تلك المجموعة أقرب إلى الطبيعة ، وأكثر اتقاناً من مثيله في لوائل العصر الفاطمي وأقرب إلى الواقعية ، ونرى تأثير الأسلوب القبطي في القرن واضحا كما هو في استخدام الرسوم الأدبية والحيوانات والطيور (١٢٤) .

(١٢٣) — : للمرجع ، ص ١٤٧ .

— تيممك : للمرجع السابق ، ص ١١٩ .

— زكي محمد حسن : فنون الإسلام ، ص ٤٥٢ .

— — : كتون الفاطميين ، ص ٣٥٤ .

(١٢٤) تيممك : للمرجع السابق ، ص ١١٩ .

وأما كان الكثير من الصناعات الأقباط برعوا في الصناعات الخشبية ، فانه مما يجدر ذكره أن الرهبان بالأديرة قد اشتغلوا بالنجارة لسد احتياجات الدير من الصناعات الخشبية (١٣٥) .

فلما ما اقبلنا الى الريف قاننا نجد ان المهنيين على الصناعات الخشبية يلقون هم النجارون من القبط ، فقد ورت هؤلاء الأقباط عن أجدادهم سر هذه الصناعة واحتكروها مدة طويلة تصل الى القرن الثامن عشر الميلادي / الثاني عشر الهجري (١٣٦) ، وكانوا يستعملون خشب الأشجار المحلية في صناعة ما يلزم أهالي الريف من أثاث البيوت وعمل السواقي والطواحين والمحاريث والتواريخ والحاصر والأترال والمنازل وغيرها من الآلات الريفية (١٣٧) ، والى عهد قريب كاد أن يكون كل نجاري القري المصرية من الأقباط (١٣٨) .

ج ٤ صناعة الحادن والعاج :

يرجع المصريون في صناعة الحادن وسبكها وزخرفتها إذ كانت هذه الصناعة من الصناعات التي عرف دقاتها وأسرارها قبط مصر منذ عهد الفراعنة ، وعلمهم أخذ المسلمون في وادي النيل سر هذه الصناعة التي بلغت ترقى درجات الفن والجمال في القرنين الرابع والخامس الهجريين . فقد عثر على كثير من التحف والأدوات المعدنية ذات الأغراض المختلفة والتي ترجع الى عصر الفاطميين ، وسواء آكانت من عمل الفنانين المسلمين أو الأقباط فانها دليل لا يقبل الشك على

(١٣٥) سيدة كاشف : مصر في عهد الاسلام - ص ٢٥٩ .

(١٣٦) سمكة : المرجع السابق ، ج ٥٦ ، ص ١٤٥ .

(١٣٧) القراوي : المرجع السابق - ص ١٧٦ .

(١٣٨) سمكة : المرجع السابق ، ج ٦ ، ص ١٤٥ .

ازدهار هذه الصناعة في مصر الفاطمية (١٣٩) ، وتوقفا عما كانت عليه في عصر الولاة (١٤٠) .

وعرف عن الصناع من المصريين وبخاصة الأقباط مهارتهم الفائقة في استخدام الذهب والفضة في صنع أدوات الترف والحلي والسروج والسيوف والمصاحف المنحبة والملابس اللوשה وكثير من التحف التي وصلت بالأحجار الكريمة ونقشت عليها زخارف جميلة ، وكلها تنم عن دقة الصنعة وجمال الفن . ورواج صناعة الذهب والفضة وتقسيمها ورقيا في ذلك العصر (١٤١) ، والليل على ذلك ما وجد بخزائن القصور الفاطمية ، وخزائن كبار رجال الدولة من تحف وذخائر من الذهب والفضة .

وكثر استخدام النحاس في صناعة الأواني والأدوات المنزلية . فقد اكتشفت مجموعة من المصنوعات النحاسية في خرائب الفيوم ترجع الى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي تقتل من أدوات نحاسية للمائدة من صينية وأطباق نحاسية ووعاء للفاكهة (عليها رسوم أسماك ونصوص قبطية نقش عليها باسم صاحبها وتاريخ صناعتها) ، كما عثر على دسيت من النحاس (عليه رسوم طيور بارزة وعلى غطاءه صورة السيد المسيح مصلوبا) ، وعلى إبريقين من نحاس نقش على واحد منهما رسم صليب ، وعلى الآخر لشكال نباتية وعلى القطعة وصمت حروف قبطية ، هذا بجانب قنوتين من النحاس أيضا على واحدة منها نصوص قبطية وعلى الأخرى نصوص قبطية وتركية ، وكذلك وجدت عدة مصارج نحاسية .

١٢٢ -

(١٣٩) زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٢٤٢ .

(١٤٠) البراوي : المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .

(١٤١) سمكة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

حسن إبراهيم : التوثيق الاسلامي ، ج ٤ ، ص ٢٩٥ .

ومن بين هذه المجموعة قبة مذبح من نحاس ترتكز على أربعة
 أعمدة على كل منها صليب مفرغ ، وعلى القبة والصليبان نصوص
 قبطية باسم الصانع والتاريخ ، كما وجدت بعض الأبواب وقد
 استخدم الصانع معدن النحاس في عمل النقوش عليها ، وكل هذه
 الأدوات النحاسية والنقوش التي عليها تعطينا دلالة واضحة على
 مهارة الصانع من الأقباط الذين برعوا في هذه الصناعة (١٤٢) .

كما استخدم هؤلاء الصانع البرونز في صناعة المباخر وصناديق
 الألوان وغير ذلك من الأشياء الدقيقة التي عملت بعضها على هيئة
 الحيوان أو الطير (١٤٣) .

وفي خرائب الفيوم عثر على عدة أبواب من الخشب صنعت
 مطاوعاتها من البرونز وعلى بعضها رسوم بارزة من البرونز لصور
 اللائكة والقديسين ، ورسوم صلبان وعليها نقوش بارزة باللغة
 القبطية واليونانية ، وعليها اسم الصانع ، ومعظمها يرجع إلى القرنين
 الرابع والخامس الهجريين ، ويرى علماء الآثار الإسلامية أن التحف
 القبطية المادية لا تختلف عن التحف الإسلامية إلا في إضافة صليبه
 أو نص قبطي إلى زخرفتها (١٤٤) .

وعرف من الصانع المصريين دقتهم ومهارتهم في التكتيف .
 إذ وجدت في القاهرة عدة حوائط لصل الكفت وهو ما تطعم أو تظلي

(١٤٢) سميكة : المرجع السابق ج ١ ، ص ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٢ .

(١٤٣) ذكرى محمد حسن : كلوز. الفلسطينيون ، ص ٢٢٤ .
 — القويون : المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

(١٤٤) ذكرى محمد حسن : كلوز. الفلسطينيون ، ص ٢٤٢ .

به أواني النحاس من الذهب والفضة نظرا لاقبال الناس في مصر على هذا الصنف من المصنوعات (١٤٥) .

واستختم الحديد فيما يلزم صناعة البناء وبعض الصناعات والآلات البسيطة (١٤٦) ، واشتهرت بعض المدن الصناعية الكبرى في ذلك الوقت بصناعة الآلات الحديدية ، ففي مدينة القسطنطينية برغت صناعة الحديد المستورد من أوروبا وصقلية وبلاد المغرب (١٤٧) ، ويتحدث القرطبي عن « المناخ السعيد » وهو الحى الذى سكنته جالية كبيرة من الأجانب ، والذي كان مركزا لصناعة الحديد وآلات الأساطيل من الأسلحة ، المصولة بيد الفرنج القاطنين فيه ، (١٤٨) ، ويذكر ناصري خسروان الصناع فى مدينة تنيس كانوا « يصنعون بها آلات الحديد كالمقراض والسكين » وأنه رأى مقراضا صنع بتنيس بلغ خمسة دنانير مغربية (١٤٩) ولا ننسى أن أغلب سكان تلك المدينة كانوا من الأقباط ، كما استخدم الحديد فى صنع بعض الأشياء البسيطة ، فقد وجد فى كنيسة أبى سيفين كرسى من الحديد يرجع الى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى (١٥٠) .

وقد استخدم الحاج فى صناعة أشياء كثيرة كتقطع الشطرنج والنرد والعلب الصغيرة الثمينة المصنوعة بالحاج (١٥١) .

(١٤٥) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، ص ٣٦٥ .

(١٤٦) البرادى : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(١٤٧) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، ص ٣٩٢ .

(١٤٨) القرطبي : الخط ، ج ١ ، ص ٤٤٢ .

(١٤٩) ناصري خسرو : المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(١٥٠) صليحة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

(١٥١) البرادى : المرجع السابق ، ص ١٧٤ .

وفي القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي يتحدث
ناصرى خسرو عن « أنياب الفيل » المستورد من زنجبار والتي
شاهدتها في أسواق مدينة القسطنطينية ، كما رأى الأمشاط ومقايض
السكاكين والتي عنها ناصرى خسرو من طوائف ما شاهده بأسواق
مصر (١٥٢) .

وكان التطعيم أكثر المجالات التي استخدم فيها العاج على يد
الصناع من القبط ، وكان طبيعياً أن يتأثر الصناع المسلمون بأساليب
الفن القبطي في عمل حشوات العاج الكاملة ، إذ أن صناعة النقش
على العاج التي برع فيها الصناع الأقباط تركزت في الأقاليم التي
يكثر فيها السكان الأقباط (١٥٣) .

(د) صناعة الورق والتجليد :

اشتهرت مصر بصناعة ورق البردي وظلت تحتكر هذه الصناعة
طوال عصر الدولة ، وكان معظم الصناع المشتغلين بصناعة ورق
البردي من القبط ، غير أن صناعة أعداد ورق البردي للكتابة انتهت
في مصر حوالي القرن الرابع الهجري ، وحل الكافد الذي كان يصنع
في سمرقند والصنع محل البردي في الكتابة (١٥٤) .

ومع مجيء الفاطميين إلى مصر انتهت الدولة بالحركة العلمية ،
وجمعت نوادر الكتب والمخطوطات لتضم إلى خزانة الكتب الفاطمية

(١٥٢) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(١٥٣) زكى محمد حسن : كتبخ الفاطميين ، ص ٢٢٥ .

(١٥٤) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ .

— عتر : الحضارة الإسلامية في ق ٤ ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

لتصبح منافسا عملاقا لمكتبات بغداد وقرطبة ، كما شجع الخلفاء الباحثين والدارسين وطلاب العلم ، وكان الجامع الأزهر أعظم جامعة إسلامية في ذلك العصر (١٥٥) ، وأصبحت « دار الحكمة » مقفلة للعصر بما ضمته من كتب ومؤلفات وكل ما يمت إلى الحركة العلمية بصفة (١٥٦) .

وكان لكبار رجال الدولة من أهل النخبة سواء من اعتنق منهم الإسلام حديثا أو ظل على دينه دور بارز في هذا المجال ، فكان للوزير ابن كلس دوره الهام في خلق نواة الجامعة الأزهرية التي كانت مركز اجتماع في مصر الفاطمية (١٥٧) ، كما أنشأ ابن كلس في قصره خزانة للدفاتر ، وجعل على رأسها نائبا للإشراف عليها ، ووفر لها جماعة من النساخ والمشتغلين بتجليد الكتب والدفاتر (١٥٨) .

وقد ضمت المكتبات الخاصة بأهل النخبة وبخاصة الأطباء منهم الكثير من الكتب العلمية والمخطوطات النادرة ، أو الكتب العلمية التي قاموا بتأليفها بتكليف من الخلفاء أو تقريبا إليهم (١٥٩) . كذلك اعتلت كنائس وأديرة الأقباط بنقائس الكتب والمصنفات الدينية والمؤلفات والكتب المترجمة إلى العربية ، هذا بجانب اقتناء البعض من القبط العديد من الكتب ، وعلى الرغم من أن الكثير من الكتب والمخطوطات التي كانت في حوزة الكنائس والأديرة والأفراد قد أُهملت أو كُبدل الكثير منها ، إلا أنه قد بقيت بعض الكتب والمجلدات كاملة ، فقد عثر على بقايا كتب وقطع من

(١٥٥) البراءى : المرجع السابق ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

— ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، ص ٣٢٢ .

— ضرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

(١٥٦) عثمان : تاريخ الجامع الأزهر ، ص ٥٠ .

— ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، ص ٣٢٢ .

(١٥٧) زكي محمد حسن : كتوف الفاطميين ، ص ٣٩ ، ٣٢ .

(١٥٨) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠ .

(١٥٩) ابن خير السبيعي : المصدر السابق ، ص ٥٤٥ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ .

أصل التزمة - ١٢٩

البردى والرقوق محفوظة الآن بمتاحف أوروبا وأمريكا والمتحف
القيطوري بالقاهرة ودار البطركية القبطية بمصر (١٦٠) .

وقد استعمل الأقباط البردى فى الكتابة حتى القرن الثالث
الهجرى / التاسع الميلادى ، ثم استبدل الأقباط البردى بالرقوق
التي استمر استعمالها الى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر
الميلادى ، ويوجد من هذه الرقوق عدة مجلدات كاملة ، ومن أحدث
الكتب المخطوطة على الرق كتاب تكرير الكنائس الجدد بمكتبة
دير السريان ، وتاريخه يرجع الى سنة ١١٨١ م . ثم استعملوا
لتسيير الورق الكتانى (١٦١) ، وهو نوع من الورق المطبوع من
الكتان والقطن . وكانت القسطاط من اعظم مراكز انتساج
الورق (١٦٢) .

وكانت عملية التجليد تشمل الجلد والبطانة والحريز ، كما
استعمل الورق فى البطانة ، بيد أن حل البردى فى الكتابة ،
واستعمل الصناع جلود العجول واستخدموا الحريز والديساج
والأطلس فى التجليد وبخاصة تجليد المصاحف (١٦٣) .

وقد عثر على بعض الجلود التي ترجع الى القرن الرابع الهجرى،
وهى عظيمة الشأن ، لأن تأثير الصناعة والفن القبطى ظاهر فيها ،
ففى بعض الجلود زخارف مجدولة وورقات شجر مهيبة تقليدية
تحتضن أحيانا شكل القلب وفى بطانة جلدة منها نرى آثار رسوم
هندسية ونباتات ورسم طائر صغير ووريدات جميلة . ويرى علماء

(١٦٠) سميكة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(١٦١) — : نفس المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(١٦٢) ليرلوى : المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

(١٦٣) — : نفس المرجع والصفحة .

الأثار الإسلامية أنه من الصعب التمييز بين جلود العصر الفاطمي والجلود التي صنعت في القرن الذي سبق قسوم الفاطميين الى مصر ، لأن التطور كان بطيئا ، غير أن أساليب الصناعة قد استقرت في هذا العصر ، وازدهر الفن طبقا لناموس المرض والطلب (١٦٤) .

(هـ) صناعة الزجاج والبور الصخرى والخزف :

بلغت صناعة الزجاج أرقى درجات الفن في عصر الفاطميين . وكثر الطلب عليها نظرا لضخامة النهضة العمرانية التي عمت البلاد ، ولعدد الأغراض التي استخدم فيها الزجاج ، فقد اشتهرت بعض المدن بصناعة الزجاج ومن أهمها القباط ، والفيوم ، والأشمونين ، والقفيخ عبادة (بكورة البهنسا ، المنيا الآن) . والاسكندرية (١٦٥) ، كما واجت تجارة الصناعات الزجاجية ، فقد عثر على بقايا تحف ونماذج زجاجية في كثير من المدن مثل مدينته حابو ، وكوم بلال ، وقوص ، وأبيموس ، وأخميم ، واسيوط ، والمنيا ، والبهنسا ، واهناسيا المدينة ، وهوارة . وأطفيح ، وسقارة وميت رهينة ، وكوم الأقريب (١٦٦) .

وكانت أرقى المنتجات الزجاجية هي (الزجاج الملعب المزين بزخارف لها يريق معدني ، التي حاول فيه الصناع تقليد البور الصخرى (١٦٧) .

(١٦٤) يذكر محمد حسن : كنز الفاطميين ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(١٦٥) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٣٩٧ .

(١٦٦) البرادى : المرجع للمطبوع ، ص ١٥٦ . وكذلك الحافظي رقم ٢ بنفس الصفحة -

(١٦٧) ————— : المرجع للمطبوع ، ص ١٦٩ .

أما عن صناعة البلور الصخري ، فقد تحدث عن تلك الصناعة ناصري خسرو أثناء جولته « بمسوق القناديل » بالقسطنطين ، فقد رأى معلمين مهرة ينتحون بلورا غاية في الجمال ، وكان يستورد من بلاد المغرب كما كان يستخرج بالقرب من ساحل البحر الأحمر (١٦٨) ، وكان وجود البلور الصخري في عصر سيبيا في انخفاض ثمنه ووفرة انتاج التحف البلورية ، وفي خزان القصور الفاطمية شاهد أحد المستخدمين في بيت المال صندوقا من الصناديق التي نهبت من قصور المنتصر ذات رسوم ، وهو ملوئ بآباريق من البلور النفيس بعضها منقوش بزخارف ورسومات جميلة وبعضها غير منقوش ويبدو أنها كانت لشراب اللعاق (١٦٩) .

وتركت الرسوم والزخارف القبطية أثرها على الخزف ذي البريق المعدني الذي كان فخر صناعة الفخار في عصر الفاطمية ، وقد تفوقت صناعة الخزف ذي البريق المعدني على أيدي الصناع المصريين ، فصنعوا منه الأريال الكبيسار والأواني المستصلحة في حفظ المعلوم والبخور وكثيرا من الأشياء التي يستعملها الناس ، كما امتلأت الخزائن في قصور الخلفاء الفاطميين وكبيسار رجال الدولة بروائع الخزفية (١٧٠) .

وكان لتوفر الطين الأصفر بمصر الذي يصنع منه الخزف (١٧١) ، أن توافر انتاج الأواني الخزفية الممتازة ، وقد شاهد ناصري خسرو في أسواق القسطنطين الاقتراح والصحاف التي

(١٦٨) ناصري خسرو : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(١٦٩) زكي محمد حسن : كتوب الفاطميين ، ص ٤٤ .

(١٧٠) — : نفس المرجع ، ص ١٥٧ .

— : بيملاك : المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(١٧١) أبو صالح الأرمي : المصدر السابق ، ص ٥٢ .

يلخ من جودتها أنه رأى يد بوضوح يظهر الاناء ، وكان التجار يصفون ما يبيعونه في أواني من الخزف يدلا من الورق (١٧٢) .

وكان أشهر صناع الخزف في عصر الفاطمية مسلم وسعد ، وقد اشتهرت مدرسة مسلم وتلاميذه بالخزاف الحيوانية والادمية والنباتية في زخرفة الأواني الخزفية فضلا عن الحروف الكوفية (١٧٣) .

وتبدو الصلة بين ما أنتجه سعد ومدرسته وبين الخزف ذي البريق المدني قبل العصر الفاطمي ، ولاسيما في رسوم الحيوانات (١٧٤) .

ولا غرو فقد كانت رسوم الحيوان والرسوم الادمية العنصر الأساسي في زخارف العصر الفاطمي ، بجانب رسوم الطيور والفروع النباتية والأوراق ، ذلك أن الفن القبطي ترك أثرا واضحا في زخرفة الخزف ، وهناك قطعة من الخزف ذي البريق المدني عليها رسم السيد المسيح ، وحولها اكليل النور المصروف ، كما ظهر في الرسوم الأسلوب البيزنطي واضحا ، وهذه القطعة من إنتاج مدرسة سعد ، وظن ذلك لوجود صورة السيد المسيح على أنه من المحتمل أن صنعها كان من سلالة الأقباط (١٧٥) .

أما عن صناعة الفخار الذي كان يصنع من الطين ، فكانت صناعته واسعة الانتشار في بلاد الصعيد الأعلى حيث يوجد أجود أنواع الطين ، ومنه كانوا يصنعون الأباريق والقلل وأوعية الخل

(١٧٢) لابراوى : المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

(١٧٣) زكى محمد حسن : كتوز للفاطميين ، ص ١٥٧ .

(١٧٤) بيماند : المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(١٧٥) زكى محمد حسن - كتوز للفاطميين ، ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦١ .

١٦٢ ، ١٦٣ .

والنبيذ والسمن وجرار المصل وكثيرا من الأشياء التي كان
يستخدمها العامة (١٧٦) .

على أن الكثير من أواني الخبز والفقاع والنبيذ وجرار المصل
وللوز والنيلة قد تعرضت للكسر والابادة إبان خلافة الحاكم
بأمر الله تعالى لما جاء بالسجلات التي أصدرها الحاكم بشأن
المسكرات (١٧٧) ، وقد أثر ذلك على صناعة الفخار (١٧٨) .

(د) صناعة الخمر :

إن ما ساد الحياة الاجتماعية والاقتصادية في العصر الفاطمي
الأول من ازدهار وانتعاش ، ومن انتشار روح اللهو والمرح وبخاصة
في الاحتفالات والمواسم والأعياد المختلفة التي كثرت في ذلك
العصر ، وما شاب هذه الاحتفالات من المجون والفساد قد أدى إلى
انتشار عادة شرب المسكرات يختلف أنواعها بين كثير من الناس .

لذلك انتشرت صناعة الخمر انتشارا كبيرا لكثرة الطلب
عليها ، وازدهرت تلك الصناعة في المراكز الصناعية والتجارية
الكبرى في مصر ، فكانت القسطنطينية والقاهرة من مراكز صناعة
الخمر ، وكانت الإسكندرية بوجه خاص من أهم مراكز تلك
الصناعة (١٧٩) .

(١٧٦) البيروني : المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

(١٧٧) التذكرة : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

— التذكرة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥٦ .

(١٧٨) ذكر محمد حسن : كثرة الفاطميين ، ص ٤٤ .

(١٧٩) البيروني : المرجع السابق ، ص ١٨٢ ، ١٨٤ .

كما وجدت معاصر الخمور في المدن الصناعية الكبرى
كتنيس حيث تكثر حولها مزارع الكروم ويغلب على سكانها الصنّاع
من القبط (١٨٠) :

وفي ريف مصر كانت الخمور تنصر بكثرة وبخاصة في
موسم نضج محصول العنب ، « ففي شهر مسرى يكون وقاء النيل ،
وفيه يصير قبط مصر الخمر » (١٨١) وكان معظم الانتساج من
النبيذ في الريف يستهلك محليا ولا يصل منه المدن الكبرى
الا كميات قليلة ، ولذلك ارتفعت أسعار النبيذ في المدن لكثرة
الاقبال عليها (١٨٢) .

واشتهرت منطقة شبرا ونواحيها التي يغلب على سكانها
الاقباط من أهل البلاد بأنها كانت واحدة من أكبر مراكز تصير
الخمر في مصر ، وكان فلاحو شبرا يصنعون دانا في ولاء
الخروج على ما ينتجونه من الخمر وما يبيعونه منه في عيبد
الشهيد (١٨٣) .

وفي الأديرة كانت تزرع الأعناب ومنها يصير الرهبان
النبيذ ، ويصنعون الزبيب لاستعمالهم داخل الدير (١٨٤) ،
كما أن بعض هذه الأديرة كان مقصدا للناس للترفة
والتسلية (١٨٥) .

(١٨٠) لين تقيان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٧٨ .

(١٨١) الميرزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

(١٨٢) — : نفس المصدر ، ص ١٢٩ ، ٣١٧ .

(١٨٣) — : نفس المصدر ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

(١٨٤) أبو صالح الأرمي - المصدر السابق ، ص ٩٦ .

— لين تقيان : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .

(١٨٥) — : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

ويعتبر النبيذ الممتزج من الكروم من أجود أنواع الخمر، وكان استعماله يكاد يكون قاصرا على الأثرياء وأفراد الطبقة العليا في المجتمع لارتفاع ثمنه (١٨٦)، أما الغالبية العظمى من المستهلكين للمسكرات فكانوا يحتسون الفقاق، وهو نوع من البيرة كان شائعا في القاهرة إبان عصر الفاطميين (١٨٧)، كما كانوا يشربون المزر والسيدة، وكانا يصنعان من القمح والقمح (١٨٨)، هذا بجانب أنهم كانوا يتخذون من العسل شرابا مسكرا (١٨٩). والواقع أن صناعة عصر الخمر كانت منتشرة في أنحاء مصر وكان الإنتاج وفيرا، وليس أدل على كثرة الخمر وانتشارها في البلاد من تلك الكميات التي كانت تباع في ناحية شبرا وحدها والتي بلغت قبة ما يبيع منها في أحد أيام عيد الشهيد بما يتيف على مائة ألف درهم فضة عنها خمسة آلاف دينار ذهباً (١٩٠).

وعلى الرغم من انتشار صناعة عصر الخمر في بداية العصر الفاطمي، فإن صناعة المسكرات لم تتعرض للحد من الإنتاج والتضييق عليها إلا في القليل النادر أيام خلافة العزيز لدين الله وإبنه العزيز بالله الفاطمي، عندما كانت تصدر الأوامر بالنساء بعض الأعياد أو تقييدها، ثم العودة إليها مرة ثانية.

وكان لكثرة ما ارتكب في بعض احتفالات الأعياد والمواسم من المخاصم والمعوج، وما اقترن بها من كثرة شرب المسكرات وانتشار الفساد بصورة فاضحة وعلى نطاق واسع (١٩١)،

(١٨٦) البراوي : المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(١٨٧) فاضل بن خسر : المصدر السابق ، ص ٤٩ .

(١٨٨) البراوي - المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(١٨٩) سبط بن الجوزي : المصدر السابق ، ج ٦١ ، ورقة ٤٠٣ .

(١٩٠) القريزي : الخطط ، ج ٦ ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

(١٩١) ——— : نفس المصدر ، ص ٣٧٤ .

أن اتخذ الحاكم بأمر الله يطارد صناعة المسكرات وعصر الخمر بصورة لا تعرف الكلل ، وأصدر عدة سجلات قرضت القيود على تلك الصناعة ، وأخذ يصادر الكروم ومخازن النبيذ والنفق والمزر والبدة والزبيب والعسل ويشدد من تعليماته في هذا الشأن بهدف إبادتها ، وكان الباعث على إصدار هذه التعليمات ما املته روح الإصلاح الحق ، فقد كان الحاكم يهدف إلى رفع المستوى الخلقي بين أفراد رعيته (١٩٢) .

ومن هنا صدرت سلسلة من المراسيم والسجلات بين العن والأخير تطارد هذه الصناعة وتطيق الخناق على المشتغلين بها . ففي ربيع الآخر سنة ٣٩٠ هـ منع الحاكم من أكل الزبيب وأحرق كميات منه في جيزة مصر (١٩٣) ، كما صدر الأمر بمنع بيع النبيذ ولا يظهر شيء منه وكسر ما كان للخمارين وأصحاب المواخير منه ، وأمر بإزالة الأماكن التي كان أهل الفساد والفجور يأتون إليها ويجمعون بها وفرق جموعهم (١٩٤) وفي ربيع الأول من سنة ٣٩٢ هـ قرى سجل الحاكم بمنع المسكرات ، كما صاد عدة أماكن وأراق ما بها من مسكرات (١٩٥) .

وتخوفا من عصر الخمر أمر الحاكم بأمر الله في السنة التالية بقطع الكروم في أنحاء مصر وبخاصة في القسطنطينية والقاهرة والصعيد والاسكندرية ودمياط وأباد مظهرها (١٩٦) ، وفي المحرم سنة ٣٩٥ هـ أصدر الحاكم بأمر الله مرسوماً بمنع حمل الفناق والتمرس العفن ، وأمر بالتشدد في تنفيذ أوامره والمبالغة في تأديب

(١٩٢) ابن بول ، المرجع السابق ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(١٩٣) ابن طاهر : المصدر السابق ، ورقة ٥٦ .

(١٩٤) الانطاكي ، المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(١٩٥) المقريزي : اتفاق الحفاظ ، ج ٢ ، ص ٤٤ .

(١٩٦) ميط بن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ٣٧٦ .

المخالفين . وتعقب في كل مكان المشتغلين بصناعة الفقاع وبيعه . وعاقبهم بالضرب والشهر . وقل من نجا منهم من القتل (١٩٧) . وكسر كل ما عثر عليه من ألوانى الخسود وأريق ما بها من مسكرات (١٩٨) .

غير أن الناس وجدوا الفرصة سانحة في العودة إلى شرب الفقاع أثناء انشغال الحاكم بأمر الله بطاردة أمير ركة الذى كان قد خرج على طاعته . ثم إن الحاكم بأمر الله نفسه أقبل على شرب النبيذ بعد أن جنح إلى مشورة طبيبه يعقوب بن نسطاس لما للنبيذ من منافع . فأطمأن الناس وزاد أقبالهم على احضاره الخمر وخاصة أنه لم يزال بما سبق أن أصدره من مراسيم وسجلات في هذا الشأن . بل أنه استلجى إلى مجلسه جماعة المفتين وأصحاب الملاهي ، وشرب على أنفاسهم وخلع عليهم وقربهم إليه . على أنه بوقاة يعقوب بن نسطاس الطبيب احتج الحاكم عن شرب النبيذ . وعاد مرة أخرى إلى سابق عهده يطارد المسكرات وصناعاتها وتجارتها وكسر الألوانى والجرار التى كانت تمبأ فيها (١٩٩)

وفي سنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م منع الحاكم بأمر الله من المظاهر بالفتاء ومن ركوب البحار (لانخفاض النيل) ، وبيع المسكرات ومنع الفقاع . وفي شهر صفر من العام نفسه قبض على بعض المشتغلين بالفقاع وضربهم وشهر بهم لمخالفتهم أوامره (٢٠٠) .

(١٩٧) التويزى : المصدر السابق ، ج ٣٦ . ورقة ٥٦ .

— للمعنى : المصدر السابق . ج ١٩ . ورقة ٧٨٨ .

(١٩٨) التويزى : الخطط . ج ٢ . ص ٢٨٥ .

(١٩٩) التويزى : المصدر السابق . ص ١٨٨ .

(٢٠٠) التويزى : الخطط . ج ٢ . ص ٢٨٦ .

وفي سجل أصله في ربيع الآخر سنة ٣٩٩ هـ أمر بالاحتفال من التبيذ والمزور ولا يتظاهر بشيء منه ولا شيء من الفقاخ والترمس العفن ، وأمر بقتل من يضبط سكرانا (٢٠١) . وفي صفر من العام التالي شهر بجاعة بعدما ضربوا بسبب الفقاخ والترمس (٢٠٢) .

ولقد وصلت إلينا صورة من سجل أصله الحاكم في شهر ذي القعدة سنة ٤٠٠ هـ . فهي فيه الكفاية عن الإلام بالمسكر ، أو شربه ، على اختلاف أصنافه وأسمائه واللوانه وطعمه . قليلة وكثيرة ، كما نهى عن اقتناله أو عمله واعتصامه ، وطالب رجال دولته المسئولين بتعقب المخالفين لأوامره (٢٠٣) .

وفي شهر رمضان سنة ٤٠١ هـ أصدر الحاكم بأمر الله منشورا عاما في سائر أنحاء دولته بشأن المسكرات ، جدد فيه التحذير من عمل التبيذ ومن شربه سرا وجهرا ، وحذر مشددا من إخطائه أو استبقائه شيء منه ، كما أمر بكسر ما عنده الناس من الحرار والظروف الفرج والدنان وأراق ما بها من نبيذ وعسل وزبيب ، وتعقب دور الملاهي فأغلقها وكسر ما بها من لوانى للخمور ، وأمر بتفكي الحفنين وأصحاب الملاهي ، ولما استفتاوا به صفا عنهم شريطة عدم العودة إلى ما كانوا عليه ، وحظر على النصارى تقديم شراب النبيذ أثناء إقامتهم للشعائر الدينية في الأعياد ، على أن الناس لم يلتزموا بذلك ، ففي موسم العتب من هذا العام أخذ الناس في اعتصامه سرا مما دعا الحاكم بأمر الله إلى تفريق العتب في النيل (٢٠٤) .

(٢٠١) ابن أبيه . المصدر السابق . ج ٦ . ورقة ١٧٠ .

(٢٠٢) القرينى : الخطط . ج ٢ . ص ٢٤١ .

(٢٠٣) رسائل الدعاة : مشطوبة بدار الكتب المصرية رقم ٢٧ حائط ونحل .

ورقة ١٠ ، ١١ .

(٢٠٤) الإطلاق : المصدر السابق . ص ٢٠٠ - ٢٠٢ .

وفي المحرم سنة ٤٠٢ هـ قللت الشرطتان ، لمحمد بن نزال ، وصدرت اليه الأوامر بمضاعفة الحزم والرقابة في تتبع المسكرات ومنعها (٢٠٥) . كما جاء في سجل تعيين عين أحد حكام القاهرة في عهد الحاكم بأمر الله والصادر في تاسع ربيع الآخر سنة ٤٠٢ هـ تعقب صناعة النبيذ وجميع أنواع المسكرات (٢٠٦) . وفي شهر شعبان من نفس العام ، أصدر سجلا شاملا يتعقب تلك الصناعة ومصادرها صناعتها في سائر أنحاء الدولة ، وإعداد كميات كبيرة من الزبيب ، وبلغ جملة ما أحرقه من زبيب في خمسة عشر يوما حوالي ألفين وثمانمائة وأربعين قطعة زبيب ، وبلغت تكاليف ما أنفق في أحراقها خمسمائة دينار (٢٠٧) .

رواصل الحاكم بأمر الله حملته على المسكرات أيضا وجدت ، ففي سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م أراق كثيرا من الخمور وأحرق كميات ضخمة من الزبيب ، وكسر جرار العسل ، وكان جملة ما أحرق ما بين ظرف وزير وخاوية عدته إحدى عشرة ألف قطعة (٢٠٨) .

وإذا كانت أنواع المسكرات كالنبيذ والفقاع والمزهر والنبيذ والزبيب والعسل - حيث يصنع من الأخيرين السكر - قد تدهورت صناعتها في خلافة الحاكم بأمر الله الذي أصدر القوانين الصارمة بمنعها وتعقبها. وانزال أقصى العقوبات بالمشتغلين في مجالها . فإن هذه الصناعة قد انتعشت من جديد في خلافة الظاهر لأعزاز

(٢٠٥) حنان : للحكم بأمر الله ، ص ١٢٠ .

(٢٠٦) التويع : الخط ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

(٢٠٧) ——— : نفس المصدر ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٨٦ .

(٢٠٨) التويع : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥٦ .

— ابن أبيك : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ١٧٢ .

دين الله عندما أغفل ما سبق صدوره من التوائين المعركة لشرب
المسكرات ، فأقبل الناس على احتسائها وإتياد الملاهي ، بل لاد
الخليفة الظاهر نفسه أقبل على شرب الخمر ، وجالس الطرب
والغناء ، فازداد حب الناس لحياة اللهو والمضامى وشرب
المسكرات (٢٠٩) .

وشهد عصر المستنصر بالله الفاطمي مزيدا من اقبال الناس
على شرب الخمر ، وبالتالي ازداد الطلب عليها وراجت صناعتها ،

فكان الخليفة المستنصر بالله يشرب الخمر ، ويسقيها
الناس ، وكان يخرج في كل سنة مع النساء والحشم الى جب
عميرة بحيث أنه خارج للحج على سبيل الهزء والمجانة ومعه الخمر
في الروايا عوضا عن الماء ويسقيه الناس (٢١٠) .

هذا مع ما صاحب عصر المستنصر بالله في أيام الرخاء من
اقبال الناس على الحفلات والأعياد والمناسبات وللتنزهات ، وطلب
الناس شرب المسكرات مما أدى الى ازدهار وانعاش صناعه
النبيذ والزبيب والفقاع والمزرد والتينة وكل ما يتخذ منه مسكرا .

(د) صناعة السكر والمسل :

شهدت مصر في العصر الفاطمي الأول الطلاقة كبيرة في
صناعة السكر والمسل ، فقد عرفت البلاد في هذا العصر العديد
من الأعياد والمناسبات والمواسم والاحتفالات التي شملت اهتمام
الناس على اختلاف طبقاتهم ، بجانب ما أدخله الفاطميون من

(٢٠٩) المقريزي الحظا ، ج ٢ ، ص ١٢٩ .

— : الخطوط ، ج ١ ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٤ .

(٢١٠) — : الخطوط ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

تقاليد وما جرت به العادة في شتى المناسبات على عمل الأسطة التي زُخرت بالوان الطعام والشراب وأنواع الحلوى ، كما كانت اللوانم تعتبر من وسائل التسلية في هذا العصر ، وتطلب ذلك الاهتمام بصناعة السكر والعسل والحلوى والقطاير والكنك (٢١١) .

وحيث توجد مناطق زراعة القصب تكثر مراكز صناعته السكر ومعاصر القصب ومعامل العسل ، ومن أشهر مراكز صناعة السكر والعسل في مصر الفاطمي الأول مدينة القسقاط (٢١٢) . والفقوم (٢١٣) ، وقسط (٢١٤) ، وسهمود (٢١٥) . واسيوط (٢١٦) ، وترنوط (٢١٧) ، وفي بعض هذه المراكز كالفيوم واسيوط وترنوط يظلب عليها السكان من القبط .

وكثرت مطابخ السكر ومعامل العسل في مدينة القسقاط ، وكانت بعض تلك المطابخ والمعامل في حوزة عدد من اليهود القبطين في تلك المدينة الصناعية الكبرى (٢١٨) ، واشتهرت مدينة قسط بكثرة ما بها من مسابك السكر ومعاصره (٢١٩) ، كما كانت أسيوط تنتج مسابك أنواع السكر (٢٢٠) ، ويتضح مما

(٢١١) البراوي : المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

(٢١٢) ابن نديم : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢١٣) أبو عثمان الصقلي : المصدر السابق ، ص ٢٩ ، ٤٠ -

(٢١٤) المقريزي : الخط ، ج ١ ، ص ٢٢١ -

(٢١٥) ابن خلدون : المصدر السابق ، ص ٦٤ -

(٢١٦) ياقوت : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

(٢١٧) البراوي : المرجع السابق ، ص ١٧٨ ، حاشية ١ .

(٢١٨) ابن نديم : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢١٩) المقريزي : الخط ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

(٢٢٠) ياقوت : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٦ .

ذكره أبو عثمان الصندي أن معاصر القصب كانت منتشرة في بلاد
الفيوم وأن العديد من تلك المعاصر المحققة ببعض النواحي كان
أصحابها من الأقباط ، وأن تلك المعاصر كانت تكون من حجرتين
وتدور بالأبقار (٢٢١) .

وعرف عن مسجود أنها كانت « كثيرة المعاصر لقصب
السكر » (٢٢٢) . وكان لكثرة مطايخ السكر ومعامل المسيل
ومعاصر القصب ووفرة الانتاج أن رخصت أسعار الحلوى
وكثرتم أسواقها .

غير أن صناعة المسيل تعرضت للتدهور عدة سنوات إبان
خلافة الحاكم بأمر الله ، وانخفض انتاج المسيل بسبب قراراته
بممان تحريم المسكرات ، إذ كان يتخذ من المسيل مسكرا ،
مما دفع الحاكم بأمر الله إلى أن يأمر بإزالة كميات ضخمة من
المسيل وكسر جراره أينما وجدت ، وحددت الكمية المستهلكة
عند الفقراء ، بل قل وجوده في الأسواق ، وارتفع ثمنه لكثرة
الطلب عليه ، بالدرجة التي كان يعادل ثمن أوقية بديار
فلم توجد (٢٢٣) .

وبانتهاء عصر الحاكم بأمر الله زاد الاقبال على الاحتفال
بالمناسبات والأعياد وأقبل الناس على مظاهر الترف واللهو ،
وزاد الطلب على السكر والمسيل ، مما أدى إلى انتشار تلك
الصناعة ، وانتاج كميات كبيرة منها ، ويؤكد هذه الحقيقة في
عصر المستنصر بالله الرحالة ناصر بن خسرو بقوله « وتنتج مصر
عسلا ومسكرا كثيرا » (٢٢٤) .

(٢٢١) للمصنف - المصدر السابق ، ص ٢٩ ، ٤٠ .

(٢٢٢) ابن خلدون - المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٢٢٣) ابن خلدون - المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ١٧٢ .

(٢٢٤) ناصر بن خسرو - المصدر السابق ، ص ٦٠ .

النشاط التجارى لأهل البلد.

كان لاهتمام الخلفاء الفاطميين بالتجارة أثره فى ازدهار الحركة التجارية فى مصر فى العصر الفاطمى الاول ، ففى هذا العصر كثرت المحاصلات الزراعية نتيجة للاهتمام بالزراعة ، وازدهر الكثير من الصناعات ، وزاد الطلب عليها ، كما توفر عمصر الأمن وشمل الجميع العدل والطمأنينة ، واحكمت الرقابة على الاسواق ، ومنح الخلفاء الفاطميون التجار الأجانب الذين يصلون الى مصر العديسة من الامتيازات ، كما منحهم حق الإقامة فى فنادق خاصة بهم ، بل والسكن فى أحياء خاصة (٢٢٥) ، وكذلك شجعت الحكومة بناء الوكالات والقياسر والمخازن ، عند بجانب انشاء أسطول تجارى مصرى ساعده على تنظيم الحركة التجارية (٢٢٦) ، ومما ساعده على ذلك أيضا نشاط أهل النمة من التجار الذين استحدثوا رؤوس أموالهم الضخمة وسفنههم التجارية فى خدمة الحركة التجارية المحلية والمالية (٢٢٧) .

(٢٢٥) سحر : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٢٢٦) الميراثى : المرجع السابق ، ص ٢١٤-٢٠٩ .

(٢٢٧) القمص : تجارة مصر فى العصر الأحمر ، ص ٦٠ .

وكان التجار من أهل النقة في مصر على درجة كبيرة من المهارة في الأعمال التجارية ، كما وجأوا في سياسة التسامح الديني واهتمام الدولة بالتجارة ما يشجعهم على القيام بهذا الدور الهام في هذا المجال .

ففي مجال التجارة الداخلية زحرت القرى التي يطلب عليها السكان الأقباط بالأسواق الماهرة بما يسد حاجة سكانها ، فكانت « منية الأمراء » على مقربة من شبرا يصل بها سوق كل يوم أحد يباع فيه البقر والغنم والفلال والبضائع وكان سوقها من أسواق مصر المشهورة (٢٢٨) .

كما كان سوق بلدة « بسوية » بالفيوم يقام يوم الخميس من كل أسبوع ، وكانت تلك البلدة زاخرة بالطيارين ودكاكين البزازين (٢٢٩) .

ويذكر ناصري خسرو أن مدينة تنيس - تلك المدينة الصناعية الكبرى التي يقاب على أهلها السكان الأقباط - كان بها ما يزيد على عشرة آلاف دكان منها مائة دكان عطار ، ويرابط في مرفأها حوالي ألف سفينة (٢٣٠) ، أما في المدن الكبرى فقد كان في بعض الأحياء الخاصة التي سكنها أهل النقة سوق لسد حاجة القاطنين بها (٢٣١) .

واشتغل كبار التجار من أهل النقة بتجارة الفلال . ويذكر ناصري خسرو أن البخيلة المستعصر بالله أرسل إلى أحد التجار

(٢٢٨) القزويني : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٦٦ .

(٢٢٩) الصقلي : المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(٢٣٠) ناصري خسرو : المصدر السابق ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢٣١) القزويني : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٠ .

النصارى الأثرياء أثناء إحدى المجاعات التى انتشرت بالبلاد ، يطلب منه اعتماد المخازن الحكومية بالفلال « أما قننا ، وأما قرضا » . فرد هذا النصرانى على الخليفة بقوله : « ان لدى من القنلة ما يمكننى من أطعام أهل مصر بالخبز ست سنوات » . ويتعجب قاضى خسرو من مقدار ثروة هذا التاجر النصرانى بقوله : « ان كل من يستطيع الحكم يلزمكم بيبقى أن يكون لهذا الثرى لتبلغ غلاته هذا المقدار (٢٣٢) . ويذكر أبو صالح الأرمنى أنه المعلم اسحق كان من كبار التجار الأثرياء بمدينة قنط (٢٣٣) .

ولما كان بيع الحبوب محرما على المسلمين بحكم الشريعة الإسلامية فإن أهل النعمة استغلوا بتجارة وبيع المسكرات ، كما كان فلاحو شبرا يعتمدون فى سداد ما عليهم من الخراج على ما يبيعونه من خمر وخاصة فى يوم الاحتفال بعيد الشهيد ، فكان يباع فى هذا اليوم ما يتيف على مائة ألف درهم فضة منها خمسة آلاف دينار ذهباً . ويذكر القريزى أن أحد التجار النصارى باع من الخمر فى يوم واحد بأثنى عشر ألف درهم فضة (٢٣٤) .

ووفقا لسياسة الإصلاح الاجتماعى التى اتبناها الخليفة الحاكم بأمر الله فإن الخليفة أخذ يطارد تجارة المسكرات كالنبيذ والمزور والذبيبة والفقاع ، وكل ما يصل منها . وتكررت السجلات التى تحرم بيع المسكرات بجميع أنواعها . وحددت بعض السجلات التى أصدرها الخليفة الحاكم بأمر الله الكميات المبيعة من العنب والرطب والمسل بحيث لا يباع للمستهلك منها الا ما يكاد يكفى حاجته : وفى سنة ٤٠٢ هـ منع الحاكم بيع الزبيب الا خمسة أوطال فما دونها (٢٣٥) ، كما منع بيع العنب الا أربعة أوطال فما دونها . وفى

(٢٣١) قاضى خسرو المصدر السابق . ص ٦٣ .
(٢٣٢) أبو صالح الأرمنى : المصدر السابق . ص ١٤١ .
(٢٣٤) القريزى : الخطط ج ١ . ص ٦٨ . ١٢٩ .
(٢٣٥) حنن : الحكم بأمر الله . ص ١٢٠ .

وبيع الآخر من نفس العلم أمر بالامتناع عن بيع العسل والا يتجاوز في بيعه أكثر من ثلاثة أوطال لمن لا يستت من أمره ان يتخذ منه مسكراً (٢٣٦) ، ولا أمر بمصادرة مخازن العسل وإهراقه في النيل عند وجوده في الأسواق وارتفع سعره حتى عادوا طلب أوقية بديار قلم توجد (٢٣٧) .

ونتيجة لتلك القرارات أخير التجار من أهل النمة المشتغلين بتجارة المسكرات وما يصنع منها ، بل ان المحاكم تشدد في تلك الفترة مع أهل النمة فمنع من التعامل معهم بالبيع أو الشراء ، مما أثار استياء التجار والباعة من أهل النمة ولجأ كثير منهم إلى النظام بالإسلام والتشبه بالمسلمين ، ليظن من يراهم أنهم قد أسلموا ، ولكن بعد مدة خرج أمر الحاكم بأمر الله بالتعامل مع أهل النمة بالبيع والشره كما جرت به العادة (٢٣٨) .

واشتغل أهل النمة بتجارة الرقيق ، إلا أنه في سنة ٢٩٥ هـ / ١٠٠٤ م أصدر الحاكم بأمر الله سجلاً حرم بمقتضاه على أهل النمة تجارة الرقيق ، وشدد على الخصامين وتجار الرقيق في المنع من بيع العبيد والامراء لأهل النمة (٢٣٩) ، ثم كرر هذا الأمر في السجل الذي أصدره في عام ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، وأمر بتتبع آثار المخالفين لأوامره (٢٤٠) .

(٢٣٦) المروزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ ، ٢٩٦ .

(٢٣٧) ابن أبيه : المسافر السابق ، ج ٦ ، ورق ١٧٢ .

(٢٣٨) الأتيا عيضايل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورق ٥٧ .

(٢٣٩) المروزي / أنصار الحلفاء ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

(٢٤٠) المروزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ .

وبوفاة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م الغيت جميع القيود التي تحد من حرية التعامل التجاري مع أهل الفقة ، فمارسوا نشاطهم التجاري في حرية مطلقة ، وكان بعضهم مقربا من حار الخلافة ، ويذكر ناصر خسرو الذي زار مصر في خلافة المستنصر أن أبا سعيد التستري التاجر اليهودي « كان مقربا من السيلطان ، الذي كان يعتمد عليه في شراء ما يريد من الجواهر الكريمة » (٢٤١) . وكانت أعمال الصيرفة وتجارة الذهب والجواهر من الأعمال التجارية التي نجح فيها أهل الفقة ، وخاصة اليهود .

فقد نبغ في أيام الحاكم بأمر الله الأخوان اليهوديان أبو سعيد ابراهيم وأبو نصر هارون ابنا سهل التستري ، إذ نبغ أبو سعيد في الأعمال التجارية ، وكان واحدا من كبار التجار الأثرياء الذين اشتغلوا بتجارة الجواهر والآثار والتحف الثمينة وتجارة الرقيق ، وكثيرا ما استخدم الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبا سعيد هذا في ابتياع ما يحتاج اليه من صنوف الأمتعة . أما أبو النصر هارون فقد برع في أعمال الصيرفة واستيراد البضائع من العراق . وقد اكتسب هذان الأخوان ثقة التجار في الداخل والخارج لأمانتهما ، واطهار ما يكون عندهما من الودائع لن يفقد من التجار (٢٤٢) .

ومع ذلك فقد وجد بين تجار الذهب والصيرفة اليهود من كان مثالا سيئا في المعاملات بأنكار ما لديهم من ودائع . فيروي أن أحد اليهود من تجار الذهب كانت امرأة كافور الانخشيده قد أودعته قباه لؤلؤ منسوج بالذهب ، فلما طالبت به أنكر القيام ، فلما بلغ الخليفة المعز لدين الله ذلك ، أمر بالحضار الصائغ اليهودي ، وأمر برد

(٢٤١) ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢٤٢) القزويني : الضبط - ج ١ ، ص ٤٧٣ .

ما في قمته من ونازع لزوجة كافور ، فأصر على انكاره ، مما دعا الخليفة المنز الى ارسال وجاله الى دار اليهودى ، فاستخرجوا منها القبة وسلموه لصاحبه (٢٤٣) .

وقد تمتع تجار الجواهر والمصارفة بالأمن والعناية في عصر الفاطميين ، وكانوا « لا يفلقون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر » ولم يكن أحد يجزؤ على مد يده الى شيء منها (٢٤٤) ، ولم يكن يتأتى ذلك الا باستقرار الأمن وقوة الحكومة المركزية (٢٤٥) .

وصاحب انتعاش الحركة التجارية بالأسواق نشاطا ملحوظا للأسطول التجارى ، ولقد تعجب الفلاس من كثرة المراكب التى تجوب نهر النيل ، كما تعجب من كثرة المراكب الراسية أمام ساحل القسطنطينة ، أما فاضل بن خضر فانه كان يقدّر عدد السفن الراسية حول مدينة قيس بألف سفينة منها « ما هو ملك للتجار وكثير منها للمسلطان » (٢٤٦) ، كما يذكر انه رأى في القسطنطينة نصرايا من كبار أثرياء مصر يمتلك أعدادا من السفن ، وقيل ان مراكبه وأمواله ، وأملأكه لا يمكن أن تعد ، وأن سفنه كانت تسير في النيل حاملة الحاصلات الزراعية والسلع والبضائع الى كثير من الموانئ والمراكز التجارية الواقعة على النيل (٢٤٧) .

(٢٤٣) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٢٧٤ .

— السيرى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢ .

(٢٤٤) فاضل بن خضر ، المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٢٤٥) المصنف : المصدر السابق ، ص ٢١٢ .

(٢٤٦) فاضل بن خضر : المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٢٤٧) ————— : المصدر السابق ، ص ٦٤ .

دور أهل النعمة في التجارة الخارجية

من الجدير بالذكر أن مصر في العصر الفاطمي الأول احتلت مركزاً ممتازاً في مجال التجارة الخارجية ، واضمحلت لها المكانة التجارية الأولى في العالم الإسلامي (٢٤٨) . ولذلك أصبحت موانئها على البحرين الأحمر والمتوسط ملتقى التجار من الشرق والغرب نتيجة ظروف وعوامل داخلية ودولية (٢٤٩) .

ولما كان المصريون لا ينزحون عن مصر للتجارة مع العالم الخارجي إلا في القليل النادر ، فإن أهل النعمة وخاصة جهود مصر قاموا بنشاط ملحوظ في هذا الميدان (٢٥٠) ، وذلك أن التجارة كانت من أهم

(٢٤٨) زكي محمد حسن : كثر الفاطميون : من ٢٢٠ - .

(٢٤٩) البدراني : الفرج الساجد ، من ١٤٦٩-١٤٧٠ .

- حاجد : ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها ، من ٢٦٩-٣٠٤ .

(٢٥٠) سيدة كاشف وحسن محمود : مصر في عصر الطولبيين والافقيديين

- للقاهرة ١٢٧٩/١٢٨٠م . من ٢٢٠ .

- سيدة كاشف : مصر في عصر الافقيديين ، من ٢١٢ .

الأعمال التي في أيدي اليهود ، وحرصوا على الاشتغال بها (٢٥١) ، وكان ليهود مصر صلات تجارية وثيقة مع يهود الشرق والغرب . فاستثمروا برؤوس أموالهم في تجارة الهند عموماً وبنوهم اليهود الرأبانية (٢٥٢) ، وهؤلاء هم تجار البحر الذين كانوا يسافرون بين الشرق والغرب ، ويصلون منهم من الغرب إلى مصر وبلاد الشرق السلع والبضائع القيمة كالحرير والفضة والجلود والخز والفراء والسمود ، كما كانوا يستأثرون بأنهم ما تصدده أوروبا وهو الفيلان والجواري البيض ، وعند عودة هؤلاء التجار من الشرق الأقصى كانوا يصلون معهم المسك والعود والكافور والبهار والمواصين وغيرها من السلع (٢٥٣) .

وكان يهود الشرق من أنشط تجار العالم الإسلامي في هذه الحركة التجارية بين الشرق والغرب ، إذ كشفت وثائق الجنييزة من امتلاكهم للسفن التجارية (٢٥٤) ، وكما كانت لهم جاليات في كثير من موانئ الشرق وبنسخ التجارية ، كما وفد إلى مصر كثير من يهود الشرق المستغلين بالتجارة لممارسة نشاطهم بها (٢٥٥) . واتخذ بعضهم من مصر مستقراً له ، وعلى ميبيل المثال ، فان يعقوب بن كلس اليهودي الأصل عمل وكيلاً للتجار بمدينة الرملة بفلسطين قبل سقوطه

(٢٥١) بلوتود : تاريخ السفينة الإسلامية ، ص ٢٢ .
 - سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر صلاح الدين الأيوبي ، الطبعة الأولى ، ص ٨١ .

(٢٥٢) القوس : المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٢٥٣) عز : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .
 - حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
 (٢٥٤) Goitein : Jewish Arabs New York, 1955, p. 107.

(٢٥٥) بنيامين الطيبي : الجبل السابق ، ص ١٦١ .
 - عز : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

الى مصر . ثم رحل اليها في عهد كافور الاخشيد ، وواصل احتراؤه
 للتجارة ، فاشتهر أمره ، حتى أصبح أول من تولى منصب الوزارة
 في مصر في عهد الفاطميين (٢٥٦) . كما أن الأخوين اليهوديين أبا
 سعيد ابراهيم وأبا نصر هارون ابنا سهل التستري كانا من أشهر
 وأنجح تجار الشرق الذين استوطنوا مصر ، ورجع أصلهما الى
 مدينة تستر بخوزستان تلك المدينة التي كان معظم تجارها من
 اليهود ، واشتغل الأخوان في تجارة الشرق وبخاصة في تجارة
 الرقيق والتحف والجواهر ، وعرف عن الخليفة الظاهر أنه
 استنظم أبا سعيد في ابتياع ما يحتاج اليه قصر الخلافة من سلع
 الشرق (٢٥٧) ، كما أنه كان يمد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي
 بما يلزم قصر الخلافة من صنوف الأمتعة والسلع . ولقد ربح
 أبو سعيد من تجارته ثروة طائلة . وقيل أنه لم يكن يعرف معنى
 غناه إلا الله ، (٢٥٨) .

ويبدو أن ثروة مصر واتساع تجارتها اجتذبت كثيرا من يهود
 الشرق والغرب (٢٥٩) ، فقد قام يهود الشرق برحلات تجارية الى
 مصر . كما كانت السفن التجارية من الممالك النصرانية كافة
 تفتد الى الموانئ المصرية وبخاصة الاسكندرية ، ولقد شاهد بنيامين
 التيطيل في ميناء الاسكندرية تجارا من جميع المدن التجارية والنول
 الأوروبية المعروفة في ذلك الوقت ، كما شاهد التجار الواقديين الى
 مصر من شمال أفريقيا ، وجزيرة العرب ، وبلاد الهند ، والحبيشة ،
 واليمن ، والعراق ، والشام ، وبرزقة ، مع تكتال التجار النصارى
 على شراء التوابل والطور وجميع السلع التي يحصلها تجار الشرق

(٢٥٦) النويري : المصدر السابق : ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

(٢٥٧) الكريزني : القبط ، ج ١ ، ص ٤٢٢ .

(٢٥٨) تاريخ مصر : المصدر السابق ، ص ٦٥ .

(٢٥٩) سعيد حفيد : المرجع السابق ، ص ٤٩ .

الى مصر (٢٦٠) • كما وجد أثناء زيارته لمصر أعلاما شخصه من اليهود الذين يقطنون في الموانئ المصرية والمراكز التجارية والصناعية، وأن بينهم عددا من كبار الأغنياء (٢٦١) •

ويذكر ابن ميسر أن بلخ الجمال عند قفومه الى مصر سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٢ م نزل دمياط وتنبس • واقترض من تجار تنيس • وكان معظمهم من القبط - أموالا كان في حاجة اليها (٢٦٢) •

وإذا كان أهل النعة قد امتلكوا رؤوس الأموال • فأيهم قد امتلكوا - أيضا - القياس • وأن بعض هذه القياس قد أوقفت على الأديرة • ويستدل على ذلك من عبارة وردت في مرسوم أصدره الخليفة الحاكم بأمر الله في سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٢٠ م بتجديد عمارة دير القصر ورد الأوقاف التي كانت محبسة على الدير من ضياع وقواس (٢٦٣) •

كذلك وجد من التجار النصارى من اشتغل في مجال التجارة الخارجية فقد كان الأنبا ابراهيم السورياني - قبل أن يصبح البطريرك الثاني والسبعين للكنيسة القبطية - من كبار التجار الأثرياء • وتردد الى مصر عدة مرات للتجارة ثم استقر بها • وكان يمد الخليفة المعز لدين الله وكبار رجال الدولة بما يحتاجون اليه من بضائع وأمتعة • ومن ثم نشأت صلاتات وثيقة بين الأنبا ابراهيم والخليفة المعز ورجال دولته (٢٦٤) •

(٢٦٠) بلخمين الشكلى : المصدر السابق • ص ١٧٨ • ١٧٩ •

(٢٦١) ————— : نفس المصدر • ص ١٧٢ •

(٢٦٢) ابن ميسر : المصدر السابق • ج ٢ • ص ٢٢ •

(٢٦٣) الانتفاكي : المصدر السابق • ص ١٢٠ •

(٢٦٤) ساويرس : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية • المجلد الثاني • الجزء

الثاني • ص ١٠٠ •

ويرى المؤرخون أن التجار من اليهود في مصر قد أسهموا
 بنصيب كبير في تجارة الكارم طوال عهد الفاطميين ، جنبا إلى جنبه
 مع التجار المسلمين ، إذ كانت روح التعاون سائدة بين كل من احترف
 هذه المهنة من كل الأديان . كما كان لهؤلاء اليهود نشاط تجاري
 واسع بين مصر والهند واليمن والمغرب والأندلس (٢٦٥) ، وكانت
 سفنهم تجوب الموانئ التجارية الكبرى التي تقع على سواحل البحر
 الأحمر والمحيط الهندي والبحر المتوسط . فكان يهود الشرق يقدون
 إلى -- لأعمال تجارية (٢٦٦) . كما كان تجار مصر يحضرون بسفنهم
 إلى موانئ البحر المتوسط التجارية (٢٦٧) . مما أدى إلى قيام صلات
 تجارية وثيقة بين مصر والجزائريات اليهودية التي وجدت بتلك
 الموانئ ، وأرتبط كثير من يهود مصر برباط المصاهرة مع يهود تلك
 الجزائيات ، وقامت علاقات تجارية نشطة بين ممثلي التجار اليهود
 بالقاهرة وغيرهم من تجار يهود الشرق المشتغلين بتجارة الكارم .
 بل كانت هناك مشاركة في الأعمال التجارية ورؤوس الأموال اللازمة
 للتجارة بين يهود مصر ويهود تلك البلاد في كثير من الأحيان (٢٦٨) .
 وحقق هؤلاء التجار أثرا كبيرا وأموالا طائلة من اشتغالهم بتجارة
 الكارم . وكان الفلفل والبهار من أهم سلع تجار الكارم ، بجانب
 السلع الأخرى مثل الحاصلات الزراعية والملبوسات والحديد الخام
 فطسلا عن الرقيق الذي كان يصدر إلى أوروبا حيث يساع بأسعار
 مضاعفة (٢٦٩) . كما كانت مصر من أعظم أسواق الرقيق الأسود

(٢٦٥) القوس : المرجع السابق : ص ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٤ .

(٢٦٦) بولسيف التقي : المصدر السابق . ص ١٦٩ .

(٢٦٧) — : نفس المصدر . ص ٥٠ ، ٧٧ ، ٩٠ .

(٢٦٨) القوس المرجع السابق . ص ٢١٤ .

(٢٦٩) — : نفس المرجع . ص ٩٤ ، ٢١٢ .

في ذلك الوقت (٢٧٠) ، فقد اشتهر في تلك التجارة يهود مصر (٢٧١) .

ولقد عرفت أسواق مصر بسلع الشرق ، ولم تكن تلك السلع تستهلك جميعها محليا ، بل احتفظ التجار المصريون بكميات كبيرة منها لبيعها للتجار الفرنج وتجار الروم بأسعار عالية ، وبذلك كان تجار مصر يقومون بنوع الوسيط التجاري بين الشرق والغرب . كما كان التجار الفرنج يقومون بشراء الحاصلات الزراعية والصناعات المصرية التي اكتسبت شهرة في الأسواق العالمية (٢٧٢) .

ويرى المؤرخون - من واقع وثائق البعثة - أن غالبية اليهود الرأسمالية الذين انخرطوا في تجارة الشرق قد قل دورهم في مجال التجارة الخارجية مع بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي . وأن دورهم أخذ في الانحطاط بعد أن دخلت الحكومة الفاطمية في علاقات وصاحبات تجارية مع المشرق والمغرب الأوروبي (٢٧٣) ، فضلا عن ذلك فقد استقرت أعداد من هؤلاء التجار اليهود زمن الفاطميين في مصر والهند واليمن (٢٧٤) ، ويبدو أن اليهود الذين استقروا في مصر قصروا نشاطهم على التجارة الداخلية والنشاط المصرفي والأعمال المالية (٢٧٥) . كما اتفق

(٢٧٠) مدينة كاشف وحسن معهود : المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

(٢٧١) القوس : المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

(٢٧٢) — : المرجع السابق ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٢٧٣) *Oréda : Op. Cit., p. 187.*

(٢٧٤) عزز : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٢ .

— القوس : المرجع السابق ، ص ٩٠ ، ١١٤ .

(٢٧٥) خلاص : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

يعتبرهم الإسلام حلقاً على مكاسبهم المالية التي كانوا يحققونها من
الاشتغال في هذه الأعمال ، واجتماع بالاسلام مما قد يتعرضون له
من وقت لآخر - من اضطهاد (٢٧٦) .

وهكذا يتضح مما سبق أن أهل النخبة في مصر قد شاركوا في
الحياة الاقتصادية ، وأسهموا بنصيب وافى ودور له أهميته في
مجالات الزراعة والصناعة والتجارة في العصر الفاطمي الأول . .

الباب الثالث

الحياة الاجتماعية والدينية لأهل النمة

(١) الحياة الاجتماعية لأهل اللمة

— القبط واليهود في مصر في العصر الفاطمي الأول :

عندما فتح العرب مصر كان معظم أهلها في ذلك الوقت من الأقباط ، وإلى جانبهم أقلية من اليهود * كما كان يعيش فيها بعض الطوائف التي تنتمي إلى شعوب أخرى كانت أمها طائفة الروم الملكانيين (١) .

وفي السنوات الأولى من الفتح سكن العرب المدن الكبرى ، وتركوا سائر قرى مصر بإحدى القبط ، ثم بدأوا ينزلون إلى الريف ، ويتشرون في ريف مصر ورويدا وريدا * وعلى الأخص ابتداء من القرن الثاني للهجرة حيث كثر انتقارهم بقرى مصر وتواحيها ، ومشاركتهم الأقباط سكنى الريف والمدن الصغيرة .

(١) سيدة كلثوم : مصر في نور الإسلام ، ص ١٦٨ .

وقد قام الأقباط في ريف مصر بمئة ثورات في سنوات ١٠٧ هـ .
 ١٢١ هـ . ١٣٢ هـ . ١٥٠ هـ . ١٥٦ هـ ، وكان الدافع إلى قيامهم
 بتلك الثورات ، علم وضاهم عن سياسة الولاة المالية (٢) ، وعادة
 ما كان يتبع اخساد تلك الثورات تحول كبير من الأقباط إلى الدين
 الاسلامي ، كما كان لقرارات الخلفاء والولاة - في القرون الثلاثة
 الأولى للهجرة - من تعريب النصارى ، واحلال المسلمين محل المواطنين
 من أصل اللمة في الوظائف (٣) ، واسقاط الجزية عن كل من
 يمتنع الاسلام اثر كبير في تحول كثير من القبط إلى الاسلام (٤) .

ثم كانت ثورة ٢١٦ هـ - في عهد الخليفة المأمون - التي قام
 بها الفلاحون الأقباط في الوجه البحري - وخاصة أمالي البشمور -
 والتي اشترك فيها العرب الذين زاد عددهم في الريف تضامنا مع
 الأقباط بسبب سوء سيرة العمال وفداحة الأعباء المالية الملقة على
 عاتقهم . ولما استفسل أمر هذه الثورة ، وجه الخليفة المأمون إلى مصر
 للعمل على تهدئة الثورة واخمادها باللين ، ولما لم يستجب الأقباط
 لنداء الخليفة ، سار بنفسه على رأس قواته التي نجحت في اخماد
 الثورة في صفر سنة ٢١٧ هـ (٥) .

وبانتهاء تلك الثورة التي كانت أكبر وآخر الثورات التي قام
 بها الفلاحون الأقباط ، أخذ الأقباط إلى السكينة والهدوء ، ودخل

(٢) المازيزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ - ٢٦١ .

- البراون : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٣) سيرة كافك : المرجع السابق ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٤) — : نفس المرجع ، ص ٢٦١-٢٦٢ .

(٥) المازيزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

- سيرة كافك : مصر في فجر الاسلام ، ص ٢٠٩ - ٢١١ .

كثير منهم في الاسلام (٦) ، واختلطت انسابهم بأنساب المسلمين .
كما اتخذ العرب الذين يسكنون الريف الزراعة حرفة لهم (٧) .

ثم جاء قرار الخليفة المعتصم سنة ٢١٨ هـ بإسقاط العرب من ديوان المطاء ، وقطع أعطيات من في الديوان منهم ، فأصبح العرب لا يتميزون عن أهل البلاد الا من الناحيتين الدينية واللغوية ، وقعدوا مركزهم السامي في الدولة الاسلامية ، مما اضطرهم الى الانتشار في الريف بصورة أكثر مما كان عليه الأمر في القرنين الأول والثاني الهجريين واشتغالهم بالزراعة والصناعة والتجارة ، وغيرها من الأعمال التي كانوا يترفعون عن الاشتغال بها . وقد ترتب على تعايشهم مع المصريين على هذا النحو الواسع أن اتخذ اقبال المصريين على اعتناق الاسلام ، وهو ما ترتب عليه أيضا ازدياد اختلاط العرب بهم عن طريق الزواج . وقد شهدت نهاية القرن الثالث الهجري تحول الغالبية الكبرى من القبط الى الاسلام مع ما ترتب على ذلك من التعميم (٨) .

غير أنه - في القرون الرابع الهجري - يذكر ابن حوقل أن معظم رسلتيق مصر وقراها في العوف والريف ، وأهلها نصارى قبط ، ولهم البيع الكثيرة العزيزة الواسعة ، وأنهم أهل يسار وذخائر وأموال (٩) . كما يذكر أبو الصلت أن : « سكان ارض مصر احلاط

(٦) المقريزي : المرجع السابق ، ص ٨٩ .

(٨) مدينة كاشف المرجع السابق ، ص ٢٢٩-٢٣٠ .

-- حسن محمود : حضارة مصر الاسلامية ، العصر الطوائفي ، ص ٢١٤ .

(٩) ابن حوقل - صورة الأرض ، مطبعة دار الحياة ببيروت ، ص ١٢٠ .

من الناس مختلفوا الاصناف والاجناس من قببط . وروم . وعرب .
وأكراد . وديلم . وجيشان . وغير ذلك من الاصناف . إلا ان جمهورهم
قببط ، (١٠) ، اما النقسى الذى رار اقليم مصر فى النصف الثانى
من القرن الرابع الهجرى فيقول ان « عامه ذننه نصارى يقال لهم
القببط . ويهود قليل » (١١) .

وهكذا نرى الاقباط فى مصر الفاطمى الاول يمثلون اقلية
كبيرة غنية من اهل مصر . وياللات فى الصعيد الذى كان معظم اهله
منهم (١٢) ، فقد كان يوجد وقتذاك كثير من « قبرى النصارى
الصحيحة » التى كان يتكلم اهلها اللغة القبطية ويفسرونها
بالربية (١٣) ، كما كان النصارى يشكلون غالبية سكان بعض
القرى مثل « ابنوب » و « طنبدى » من قرى الصعيد (١٤) ، فضلا
عن كثير من قرى الفيوم التى غلبوا على سكانها (١٥) . وفى الوجه
البحرى وجدت ايضا بعض القرى التى كان النصارى أكثر
سكانها (١٦) .

(١٠) القريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٧ .

وابو الصلت هو أمية بن عبد العزيز ابي الصلت الملامة الانطس الذى زار
مصر فى أيام وزارة الأفضل شاهنشاه بن بصر الجسمى فى خلافة الامر بإحكام
اله ، وتولى سنة ٥٢٨هـ . (حنان - تاريخ المجتمع الأزهر ، ص ٥٧) .

(١١) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(١٢) غرس الدين خليل : زبدة كشف الممالك وبين الطرق والممالك ، طبعة
باريس سنة ١٨٩٢م ، ص ٣٢ .

(١٣) القريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠٦ .

(١٤) التسم عنه : المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

(١٥) أبو عثمان المقدسى : المصدر السابق ، ص ١٢ ، ٦٢ ، ١٠٥ .

- ١٠٧ -

(١٦) القريزى : المصدر السابق ، ص ٣٩ .

فإذا انتقلنا الى المراكز الصناعية والتجارية ، نجد أن الكثير من أهل ابيه قد سكنوا على تلك المراكز - مدينته ميس التي يفسر مصرى خسرو سكانها بخمسين ألف نسمة كان القبط يشكلون أكثر سكانها (١٧) ، كما كانت مدينته دمياط يسكنها الكثير من القبط الذين كانت تقع أكثر دورهم على شاطئ البحر (١٨) ، أما شطا تلك القرية الصناعية الكبرى - والتي تقع بين تينيس ودمياط - فقد كان أكثر سكانها عمال النسيج من الاقباط (١٩) .

كما ان أكثر مدن الصعيد الكبرى كسيوط واخميم - على سبيل المثال - كانت غالبية سكانها من القبط نظرا لما كانت تتمتع به هذه المدن من أهمية صناعية وتجارية في مصر الفاطمية (٢٠) .

وعلى الرغم من أنه ليس لدينا بيان شامل بتمدد أهل النخبة في مصر في العصر الفاطمي الأول ، إلا أنه كما سبق أن أوضحنا ، فإن نصارى مصر كانوا يشكلون أقلية كبيرة العدد تقدر بحوالى ثلث سكان اقليم مصر (٢١) .

هذا بينما نجد بنيامين التبريل الذي زار مصر حوالى سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٥ م ، رأى في أواخر العصر الفاطمي يقدر تعداد اليهود في مصر ببضعة آلاف . لحسب تقديره كان في المحلة حوالى خمسمائة يهودى ، وفى بلبيس ثلاثة آلاف ، وفى أبى تيج مائتان ، وفى الفيوم مائتان ، وفى دمنيرة سبعمائة ، وفى الاسكندرية ثلاثة آلاف ، وفى دمياط مائتان ، وفى حلوان ثلاثمائة ، وفى قوص ثلاثمائة ، كما

(١٧) نصارى خسرو : المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(١٨) المقص : المصدر السابق ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(١٩) المقص : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٢٠) زكى محمد حسن : كتوزع المسلمين ، ص ١١٦ .

(٢١) عابد ، شهر للثقافة الفاطمية وسبقها في مصر ، ص ٢٩٠ .

قام عدد يهود القاهرة والفسطاط بألقى يهودى كان من بينهم عدد كبير من الأثرياء وكبار العلماء (٢٢) . ولا بد أن عدد يهود مصر فى العصر الفاطمى الأول كان أكبر بكثير مما قدره بنيامين ، إذ يذكر ابن اياس أن عدد من ارتد من اليهود - بعد أن تظاهروا بالاسلام - فى يوم واحد فى عهد الحاكم بأمر الله كان أكثر من سبعة آلاف يهودى (٢٣) .

كما كشفت وثائق الجنييزة عن حقيقة عامة ، وهى أن اليهود لم يعيشوا فى المساكن وللمن الرئيسية السالصة الذكر فقط ، بل عاشوا فى الريف المصرى أيضا ، ولعبوا دورا هاما فى التجارة والأعمال المالية (٢٤) .

أما فى الواحات ، فقد كان الغالب على الغفرون (الفرازة) السكان من القبط ، ولم يكن يوجد بالواحات من اليهود أحد (٢٥) .

ولم تمدنا المصادر التاريخية التى وصلت إلينا من العصر الاخشيدى بما يشير الى وجود أحياء مخصصة لأهل النعمة فى مدينة الفسطاط ، وإن كان طبيعيا أن يفضل أهل كل دين أن يعيشوا بمقاربتهم (٢٦) .

أما فى القاهرة الفاطمية فقد وجدت أحياء خاصة بأهل النعمة . فعندما اختطت القاهرة فى صنادى الآخرة سنة ٢٥٩ هـ ، اختطت كل قبيلة خطة عرفت بها ، واختط الروم الواصلون صحبة جوهر القائد

(٢٢) بنيامين للتطيل . المصدر السابق . ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٥ .

١٧٦ .

(٢٣) ابن اياس . المصدر السابق . ج ١ . ص ٥١ .

(٢٤) قسم عبده . المرجع السابق . ص ٦٤ .

(٢٥) ابن حوقل . المصدر السابق . ص ٢٤٥ .

(٢٦) سيفه كاشف وجنن محمود : مصر فى عصر الخوارج والاشقيين .

ص ٢١٤ .

حارة عرفت بهم ونسبت اليهم (٢٧) ، ويذكر الأتطاكي أنه كان للروم الملكانية حارة بالقاهرة يسكنون بها فأخرجوا منها ، وحلبت مبانيتها ، وحولوا منها الى الوصف المعروف بالحراء ، فعملوا لهم بها حارة ، واتخذوا منها موطعا لسيدهم (٢٨) .

أما اليهود فقد سكنوا حارة الجردية - نسبة الى إحدى طوائف المسيحية في أيام الحاكم بأمر الله - ، وظلوا مقيمين بها ، الى أن بلغ الحاكم بأمر الله أنهم يجتمعون بها أوقات خواتمهم ، ويهزؤون بالمسلمين ، ويسخرون منهم ، ويخوضون في الدياسة الإسلامية . ويتمرضون الى ما لا ينبغي سماعه . فغضب الحاكم بأمر الله أبواب الحارة عليهم ليلا وأحرقها . ثم أفرد لهم حارة زويلة (٢٩) ، وأمرهم في سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م بأن يلزموا حاراتهم . والا يخالطوا المسلمين في حاراتهم (٣٠) .

وكان الصناع الأجانب يسكنون في المناخ السعيد بالقاهرة . ويظهر أن هؤلاء الصناع اجتذبهم الفاطميون بالرواتب المغرية والمعاملة السمحة . أو أنهم كانوا من الرقيق أو الأسرى الذين علموهم مختلف الصنائع والحرف (٣١) .

أما مدينة الإسكندرية فكان يسكن بها كثير من الأجانب المستقلين بالتجارة والذين ينتمون الى جاليات أجنبية مختلفة ، وكان لكل جالية فناء خاص بها (٣٢) .

(٢٧) القلشندي - المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٥٧

(٢٨) الأتطاكي - المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(٢٩) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٠٤ .

(٣٠) ابن أبي عمير - المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٦ .

(٣١) المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٤٢ .

(٣٢) سرور : مصر الى عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٠ م ، ص ٢٠٢ .

وكان الفتح العربي لمصر عاملا مساعدا على احياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية التي كانت منتشرة في مصر في ذلك الوقت . فاصبحت المروسة تقرأ في الكنيسة باللغة القبطية بعد ان كانت تقرأ باليونانية وتشرح بالقبطية . وبعد اقل من نصف قرن من الفتح تقريرا بدأ العرب يحضون الى تعريب البلاد والى جعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية وذلك لتعريفهم باللغة القبطية . وقد بدء في تعريب النواوين في مصر سنة ٨٨ هـ / ٧٠٦ م في ولاية عبد الله بن عبد الملك ، مما اضطر المصريين العاملين في دواوين الحكومة الى تعلم اللغة العربية حفاظا على الوظائف التي كانت بأيديهم (٢٣) . وفي القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي بدأت اللغة القبطية في الاضمحلال والتلاشي امام اللغة العربية نتيجة لما حدث من اتمام حركة التعريب في مصر (٢٤) .

وعلى الرغم من ان اللغة العربية اخذت في الانتشار ، وأن المصريين اقبلوا على تعلمها ، الا أن عامة أهل مصر - على حدة صغير القلسي - كانت لغتهم عربية ركيكة ... وذهمت يتحدثون القبطية (٢٥) .

وكان القبط يتكلمون القبطية بلهجات متعددة ، فاللهجة البحرية كانت تستعمل في الاسكندرية وما جاورها والدلتا ووادي المنطرون ، ثم اصبحت هي اللهجة الرسمية للكنيسة القبطية منذ ان نقل البابا خريستودولوس البطريركية الى القاهرة في اوائل القرن الحادي عشر الميلادي / الخامس الهجري (٢٦) .

(٢٣) مدينة كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ١٧٩ .

(٢٤) زكي الشومرة : موسوعة تاريخ القبط ، الطبعة الثالثة - الجزء الاول .

ص ٩٠ .

(٢٥) القلسي : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

(٢٦) زكي الشومرة : المرجع السابق ، ص ٩٠ .

ويذكر القرينى أن نصارى قرى الصعيد الأعلى كانوا يتكلمون
 • القبطى الصعيدى • - اللهجة الصعيدية - وإن نساء نصارى
 الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا القبطية الصعيدية ، وأن لهم
 أيضاً معرفة باللغة الرومية • اليونانية • (٢٧) •

وكان من عادة نصارى مدينة سينا أنهم كانوا يحضرون أفراح
 المسلمين ويطوفون فى أسواق المدينة وشوارعها أمام العرائس وهم
 يهتلون ويغنون بصارات قبطية صعيدية (٢٨) •

وفى الصعيد كانت هناك أيضاً لهجات قبطية فرعية مثل
 اللهجة الاخميمية التى كانت تستعمل فى أخميم واللهجة الأسبوطية
 التى كانت تستعمل فى أسبوط • واللهجة الفيومية التى كانت
 تستعمل فى العيوم • ولما فى شرق الدلتا فقد كان القبط يتحدثون
 باللهجة البشوية (٣٩) •

وفى القرن الرابع الهجرى / الماشر الميلادى اخذ بعض علماء
 الأقباط يكتبون مؤلفاتهم باللغة العربية • فقد كتب البطريك المكنانى
 سعيد بن بطريق (ت ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م) كتابه فى التاريخ باللغة
 العربية • كما أن ساليوس بن المقفع (ت أواخر القرن الرابع الهجرى/
 أواخر القرن الماشر الميلادى) استقفه الأشمونيين كتب مؤلفه • سير
 الآباء البطارقة • باللغة العربية أيضاً • هنا بجانب القيسام يجمع
 الوثائق اليونانية والقبطية وترجمتها الى العربية (٤٠) •

(٢٧) القرينى : الخط ، ج ٢ ، ص ٥٥٦-٥٥٥ •

(٢٨) جاك تلجر : المرجع السابق • ص ٢٠٥ •

(٢٩) زكى شتوتة • المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١ •

(٤٠) سيدة كلف • مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٨٠ •

غير أن اللغتين القبطية واليونانية ظلتا مستعملتين في المعاملات الخاصة إلى أن بطل استعمالهما في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي . ففي هذا القرن أمجد السخنة العربية لغة التخاطب السائدة (٤١) .

سـ المكانة الاجتماعية لكتاب أهل النخبة :

كان لسياسة التسامح الديني التي اتبناها الفاطميون ازاء أهل النخبة أثرها الكبير عليهم كطبقة اجتماعية عاشت في المجتمع المصري، إذ كان منهم الوزراء والوسطاء وكبار رجال الموازين ، والكتاب والأطباء والمتقنين ، والفسان . والصناع المهرة ، والتجار الأثرياء ، والملوك أصحاب الضياع في مصر . ووصل الكثيرون منهم إلى مكانة اجتماعية سامية ، فكانوا من الطبقة العليا في المجتمع ذات الصلة الوثيقة بالخلفاء الفاطميين الذين أجزلوا لهم الاقطاعات والضياع والمنح والأموال والعطايا في شتى المناسبات .

ففي سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م ولد للوزير ابن كلثوم ولد . فارسل إليه العزيز بالله مهنا من صندل مرصع وثلاثمائة ثوب ، وعشرة آلاف دينار ، وخمسة عشر فرسا يسرجها ولجمها ، منها اثنان لها ، كما اشتملت الهدية على كبير من الطيب ، وقد بلغت قيمة هذه الهدية مائة ألف دينار (٤٢) .

(٤١) زكي شوقية : المرجع السابق . ج ١ . ص ١٢ .

ويذكر المؤلف أن اللغة القبطية ظلت لغة التخاطب في القرى البعيدة في الصعيد الأعلى حتى القرن السابع عشر الميلادي (القرن الحادي عشر للهجري) ، وفي القرن الثامن عشر لفيلاحي بنا الاقباط يكتبون باللغة العربية بحروف عربية ، وفي القرن التاسع عشر انتهى للكلام والتخاطب باللغة القبطية وأن كلمات الله ظلت لغة الكنيسة حتى القرن العشرين (زكي شوقية نفس المرجع ، نفس الصفحة) .

(٤٢) المقرئى اتعاط الحظا . ج ١ . ص ٢٥٢ .

وقد أغلق الخلفاء الفاطميون على كثير من الأطباء من أهل النمة
 — الذين سبقت الإشارة إليهم — بالأموال والهبات تشجيعا وتكريما
 لهم (٤٣) ، وكان لبعضهم المكانة المرموقة من أصحاب القصر ، وكما
 شمل الخلفاء أولاد أطباؤهم بالرعاية فأطلقوا لهم الأموال الوفيرة
 والهبات ف عاشوا في رغد من العيش (٤٤) .

وحسب مجلس الخليفة المزمكبار رجال الدولة من اليهود
 والنصارى ، إذ كانوا هم الطبقة التي اعتمد عليها في إدارة دواوين
 الحكومة . ففي عهد بلخ ابن كلث من كلث منزلة رفيعة في بلاط الخلافة
 وتولى الاشراف على الإدارة المالية في الدولة ، وليس هناك أدل على
 علو المنزلة الاجتماعية لرجال الدولة منهم ، من تلك الملاقة والصدائقة
 التي وجدت بين العزيز بالله ووريه ابن كلث ، وفي كلمات العزيز
 له وقت احتضاره ، ما يؤكد حب الخليفة له ، ومكانته الاجتماعية (٤٥) ،
 وفي رسالة العزيز الى طبيبه ابن مقشر ما يشير الى علو منزلة
 الطبيب عند الخليفة وتقديره له . كما أن الحاكم بأمر الله زار
 ابن مقشر عتلهما مرض ، واتصم على أولاده بالأموال والهبات بصد
 وفاته (٤٦) .

وحالس ابن تسطاس الطبيب النصراني الخليفة الحاكم بأمر
 الله ، وشرب معه عندهما أشار عليه بذلك ، وكان من خواصه
 ونعمائه ، وواحد من القلائد الذين يفضي اليهم بأسراره ، كما جالس

(٤٣) ابن العبري : المصدر السابق ، ص ٢١٦ .

(٤٤) للقطي : المصدر السابق ، ص ٤٢٨ .

— ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٥٤٨ .

(٤٥) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(٤٦) للقطي : المصدر السابق ، ص ٤٢٨ .

— ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٥٠ .

ابن نسطاس كبار رجال الدولة الفاطمية أمثال قائد القواد الحسين
ابن جوهر ، وأبو الحسن الرسي ، والمسبحي ، والقاضي عبد العزيز
ابن محمد بن النعمان ، وكان يخالطهم ، ويحضر مجالسهم
الخاصة (٤٧) .

وامتلك كثير من أهل النخبة الأموال الطائلة والقصور الفخمة
التي امتلأت بالخدم والمبيد . واكتظت بأئمن ما عرف في هذا العصر
من موجودات وتحف وذخائر ومقتنيات .

فقد بلغت ثروة قرمان بن عينا عامل الخراج بفلسطين في عهد
الخليفة المعز ما يزيد على تسعين ألف دينار (٤٨) ، كما امتلك الوزير
يعقوب بن كلس الاقطاعات والضيايع والأموال ، وكان قصره واحدا
من أعظم قصور القاهرة الفاطمية ووجد في تركته بعد وفاته (ت
٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) من الجواهر أربعمائة ألف دينار ، ومن الثلبوس
والمركوب ما قيمته خمسمائة ألف دينار ، ووجد له من المبيد
والماليك أربعة آلاف غلام ، سكنوا في المكان المعروف بالحارة
الوزيرية التي اتخذها سكنا لحاشيته وعبيده وماليكه وحشمه ،
ولما مات ابن كلس كهن بما قيمته عشرة آلاف دينار (٤٩) .

كذلك عرف عن عيسى بن نسطورس أنه كان مجبا لجميع المال
فالكل قد اتخذ من الوزارة أو الوساطة وسيلة للثراء (٥٠) ، وليس
أدله على ثرائه الضاحش غير المشروع من تلك الغرامة التي بلغت

(٤٧) ابن حجر العسقلاني ، رفع الأمر عن قضاء عمر ، القسم الثاني ، ص

ص ٣٦٢ ، ص ٣٦٢ .

(٤٨) الأتيا عيضايل ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٤٤ .

(٤٩) للعتبي : المصدر السابق ، ج ٩٩ ، ورقة ٤٢٠ .

(٥٠) المنلاوي : المرجع السابق ، ص ٨٦ .

ثلاثمائة ألف دينار . والتي دفعها الى خزانة الدولة عندما غضب عليه العزيز بالله لسوء سياسته (٥١) .

أما منشأ بن ابراهيم القزاز اليهودي الذي كان عاملا على الشام . فقد جمع ثروة بالابتزاز . مما اضطر الخليفة العزيز الى مصادرته (٥٢) . كما استحوذ فهد بن ابراهيم النصراني على كثير من الاقطاعات والضيايع والأموال وبلغ راتبه السنوي ستة آلاف دينار (٥٣) .

وكان سهل بن يوسف أخ يعقوب بن كلثوم الوزير واسع الثراء . وعندما أمر الحاكم بأمر الله بقتله في سنة ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣ م بسبب طمعه وجشعه عرض أن يدفع ثلاثمائة ألف دينار عينا يفدى بها نفسه فلم يجب الى ذلك (٥٤) .

ويحدثنا ناصري خسرو عن ثروة أبي سعيد التستري بقوله أنه « يهودي وافر الثراء » وقيل أنه لا يعرف معنى غناه إلا الله . فقد كان على سقف داره ثلاثمائة جرة من الفضة . تدع في كل منها شجرة . كانتا حديقة . وكلها أشجار مثمرة » (٥٥) . وعندما قتل أبو سعيد كتب أخوه لما ملكه الفزع رسالة للخليفة المستنصر بأن يقدم فوراً لخزانة الدولة مائتي ألف دينار . غير أن المستنصر بالله أمر بعرض الرسالة على الناس . وتمزيقها على الملأ . وخاطب الجميع قائلاً : « كونوا آمين . وعودوا الى بيوتكم . فليس لأحد شأن بكم . ولنسنا بحاجة لآله أحد » (٥٦) .

(٥١) القزويني : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

(٥٢) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(٥٣) ابن اللاتني : المصدر السابق ، ص ٤٩ .

(٥٤) القزويني : اتصال السنان ، ج ٢ ، ص ٥١ .

(٥٥) ناصري خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٥، ٦٤ .

(٥٦) ——— : المصدر السابق ، ص ٦٥ .

كما يذكر ناصري خسرو أنه رأى بمدينة القسطنطينية نصرايا من كبار أغنياء مصر . قيل إن حراكبه وأمواله وأحلافه لا يمكن أب تعد ، وأن لدى هذا النصرايين من الفلال ما يمكنه من إطعام أهل مصر . القسطنطينية « ست سنوات (٥٧) » وعلى الرغم من أن ناصري خسرو كان مبالغاً فيما رواه ، إلا أن في روايته الدليل القوي على ثراء الكثير من أهل الفقة في مصر الفاطمية .

وكان أبو المليح الملقب بمماتي واحداً من نصاري أسبوط الأثرياء ، وأنه كان يمتلك أيام الفناء والشدة العظمى في عصر المستنصر بالله قصداً كثيراً ، وكان يوزعه على فقراء المسلمين الذين أحبه وشكروه لحسن صنيعه (٥٨) .

ويذكر أبو صالح الأرمني أن واحداً من نصاري مصر ويدعى المعلم سرور الجلال كان ذا مال وجاه ، وكانت علاقته وثيقة بالخليفة المستنصر وكان يقدم للخليفة وحاشيته أثناء الاحتفال بكسر سد الخليج أنواع الأطعمة والأشربة والحلاوى فيقبلها منه ، ويخضع عليه ويقضي حوائجه (٥٩) . أما المعلم له حق الذي كان واحداً من كبار أثرياء التجار بمدينة قفط ، فقد امتلك من الأراضي والأموال والمناشئة الشيء الكثير (٦٠) .

ولم تكن الدولة تصادر ممتلكات وثروات والطاعات كبار موظفيها من أهل الفقة طمعاً فيها ، وإنما كانت تصادر هذه الثروات بسبب سوء سبلتهم الإدارية والمالية أو استنفال نفوذهم .

(٥٧) ——— نقش المصغر ، ص ٦٢ .

(٥٨) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

(٥٩) أبو صالح الأرمني المصغر السابق ، ص ٢٢ .

(٦٠) نقش المصغر ، ص ١٢٠ .

(٦١) الميني : المصغر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤٢٠ .

وانحيازهم لبني ملتهم . وجميعهم الثروات بطرق غير مشروعة ،
أو بسبب ترفعهم وشكوى الراى العام الاسلامى منهم .

وقد امتلك أهل النعمة - وبخاصة الأثرياء - الرقيق ، ليصلوا
خلفا فى التصور . فقد وجد فى تركه ابن كس اربعة آلاف عبده
ومملوك (٦١) ، كما امتلات قصورهم بالجوارى والقيئات ، وكان
اليهود المشتغلون فى تجارة الشرق يشترون الجوارى لاتخاذهم خلفا
لهم (٦٢) . ومن البهير بالذكر أن زوجة العزيز بالله ام بنت الملك
كانت حارية رومية (٦٣) ، كما كانت ام المستنصر بالله جارية لأبى
سعيد التستري أحداهما للخليفة الظاهر لاعرارز دين الله (٦٤) .
وكان من نتيجة اختلاط اقباط مصر بغيرهم من طوائف الشعب أن
تهافت الأقباط - وحاشية الموطعين منهم - على تعدد السرارى فى
بيوتهم بلون عقد شرعى مما يتنافى مع روح الديانة المسيحية (٦٥) .

ونتيجة لهذا الثراء وتلك المكانة الاجتماعية ، كان أهل النعمة
يحبسون الملابس الجليلة ، وكان عمال النصارى ينسبون اتوايا
كاثواب عظماء المسلمين ، ويركبون البغال ويمتطون الخيول (٦٦) .
على أن الكثيرين من أهل النعمة كانوا يجعلون لأنفسهم مقاما
عاليا أمام الطبقة الدنيا ، وكانت مغالاتهم وترفهم على هذه الصورة
أمام جهود المسلمين تؤدى الى ارتعاج أصوات المسلمين

(٦١) القوس : المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

(٦٢) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٢١٠ .

(٦٣) ابن خيبر : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٦٤) مقدر : تاريخ الامة العظيمة وكتبتها ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ .

(٦٥) القرئى : الخط ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .

بالاستنكار (٦٧) ، فتصيح أوامر الخلفاء الفاطميين يفرض قيود
اجتماعية ضلهم - سنوضحها فيما بعد . وكانت هذه القيود تطبق
بمنتهى الصرامة في حينها . ثم لا تلبث أن تخفف شيئا فشيئا ،
ولذلك كان الأمر يستلزم تكرار فرض تلك القيود في صورة مراسيم
متتالية صادرة من دار الخلافة .

وقد أتمم الخلفاء الفاطميون على كبار رجال دولتهم من أهل
المنعة بالألقاب تكريما لهم ، ودلالة على مكانتهم في الدولة . فابن
كلثوم الوزير لقب « بالوزير الأجل » (٦٨) ، ولقب عيسى بن نسطورس
« بسيدنا الأجا » (٦٩) ، أما ابن عيلون فقد منحه الخليفة الحاكم
بأمر الله لقب « الكافي » (٧٠) ، كما أكرم على ورعة بن عيسى
ابن نسطورس بلقب « الشافي » (٧١) ، ولقب أخوه صاعد بن عيسى
ابن نسطورس « بالأمير الظهير شرف الملك تاج المعالي ذو الجدين » (٧٢) .
أما المستنصر بالله الفاطمي فقد منح أبو نصر صدقة بن يوسف
الغلامي اليهودي الأصل لقب « الوزير الأجل تاج الرئاسة فخر الملك
مصطفى أمير المؤمنين » (٧٣) ، كما منح أبو علي الحسن بن أبي سعد
ابن إبراهيم بن سهل التستري لقب « السيد علم الكفاة » ، وخطب
أبو سعد منصور بن زنبور الوزير النصراني الأصل - في خلافة

- يقرأ : تاريخ الحضارة الإسلامية . ترجمة حمزة طاهر ، ص ٢٤ .

- (٦٧) : نفس المرجع والمصلحة .
(٦٨) المقرئ : المرجع السابق . ج ٢ . ص ٥ .
(٦٩) المقرئ : المرجع السابق . ص ٢٤٤ .
(٧٠) الانطاكي . المصدر السابق . ص ١٩٦ .
(٧١) ابن القلانسي . المصدر السابق . ص ٦٤ .
(٧٢) المقرئ : المرجع السابق . ص ٢٥٠ .
(٧٣) المقرئ : لتمام الخلافة . ج ٢ . ص ١٩١ .

المستنصر - يلقب « الأجل الأوجن » السيد الأبيض الأوجن شريف
الكنانة عميد الخلافة محب أمير المؤمنين « (٧٤) »

وعلى الرغم من أن هذه الألقاب تدل على نفوذ هؤلاء الوزراء
والوسطاء إلا أن في الألقاب الأخيرة ما يشير إلى إردباد نفوذهم .
واستفحال أمرهم ، وعلو مكانتهم الاجتماعية وبخاصة في عهد
المستنصر بالله خامس الخلفاء الفاطميين في مصر .

ـ القيود الاجتماعية التي فرضت على أهل الفحة :

التزم أهل الفحة في الدولة الإسلامية من الناحية الشرعية
بعدة قيود تتعلق بالمظهر الاجتماعي ، وتشكل جانبا مما اصطلح على
تسميته « بالمهذبة العمرى » أو « الشروط العمرية » المنسوبة إلى
الخليفة عمر بن الخطاب .

وتمثلت تلك القيود الاجتماعية في إلزام أهل الفحة بلبس
الغيار فإن كان يهوديا وضع على كتفه خيطا أحمر أو أصفر . وإن
كان نصرانيا شد في وسطه ذنارا وعلق في عنقه صليبا ، وإن
كانت امرأة لبست خفين أحدهما أبيض والآخر أسود ، وإذا دخل

(٧٤) المناوى المرجع السابق ، ص ٣١٢ ، ٣١٦ .

اللمى الحمام ينبغي أن يكون فى عنقه طوق من حديد أو نحاس أو
رصاص تميزا له من المسلم (٧٥) -

كما اشترط على أهل الذمة ألا تملأ أصوات نواقيسهم وتلاوة
كتبهم . ولا تملأ أبنيتهم فوق أبنية المسلمين ، ولا يتجافروا بشرب
الخمر وإظهار الصلبان والخنازير ، وأن يخفوا دفن موتاهم ولا
يجاهروا بالنسب عليهم ولا نباحة وإن يمتدوا من ركوب الخيل (٧٦) .

تلك هى بعض الشروط التى وردت « بالمعهد العبرى » أو
« الشروط العبرية » التى تنظم تصرفات أهل الذمة فى المجتمع
الإسلامي . ولم يكن أغلب الحكام المسلمين يلجأون الى إلزام أهل
الذمة بهذه الشروط الا فى حالات الاضطهاد والحروب (٧٧) .
ويرى البعض أن تلك الشروط المشددة اليها والتى عرفت باسم
« الشروط المستحبة » إنما هى من وضع الفقهاء فى مرحلة متأخرة .

(٧٥) الشيخيزى . نهاية الرتبة فى طلب النسيبة . ص ١٠٦ .

وروى أن لعماري الضلع شربوا على أنفسهم فهدم كتابهم الى عمر بن الخطاب
أن لا يقتلوهوا بالمسلمين فى شهره من ملابسهم من القنوس ولا عمامة ولا نظلين
ولا ينفذوا على خواصهم بالعربية مؤلف يلزموا زهم حيثما كانوا ، وأن يشعروا الزنار
على أوساطهم . ويرى أصحاب الامام الشافعى أن أهل الذمة يلزمهم أن يتميروا
فى اللباس من المسلمين . وأن يلبسوا قلائد تميزهم عن القلائد المسلمين بالمصرة
ويشعروا الزنار على أوساطهم . ويكون فى رقابهم خاتم من نحاس أو رصاص
أو جرس يدخلون به المعلم ، وليس لهم أن يلبسوا العمامة أو الخيلسانات ، وأما
المرأة فأنها تعد الزنار تحت الأزار ، وتقبل فوق الأزار ، وهو الأولى ، ويكون فى
عقلها خاتم تدخل به الحمام . ويكون أحد خفيها أسود والاخر أبيض (الأبيهي :
المستطرف فى كل فن مستطرف . ج ١ . ص ١١٠-١١٢) .

(٧٦) قاسم عبيد - المرجع السابق . ص ٢٠ ، ٢١ . (نقل عن ابن عيم الجوزية

أحكام أهل الذمة . ج ١ . ص ٢٣٦) .

(٧٧) مانج - الحكم بامر الله . ص ٩٥ ، ٩٦ .

متألة منهم في فرض القيود على أهل الذمة الذين لم تفرض عليهم هذه الشروط في عهد النبي صلى الله عليه وسلم (٧٨) .

وفي بداية العصر الفاطمي الأول لم يلجأ الخليفةان الحز لدين الله وولده العزيز بالله الى فرض أية قيود على أهل الذمة وبخاصة فيما يتعلق بالملابس ، والركويات ، والعمائم ، واستخدم المسلمين لدى أهل الذمة ، فالتسامح كان أساسا لمساكنتهما تجاه أهل الذمة . .

لكن الخليفة الحاكم بأمر الله بعد عدة سنوات من توليه الخلافة أصدر عددا من المراسيم والسجلات التي نصت على فرض قيود اجتماعية على أهل الذمة - باستثناء الخيابة - (٧٩) ، وتلزمهم بالتميز عن المسلمين بعلامات عرفت بالفيار ، وذلك تنفيذا لما اصطلاح على تسميته ، بالشروط العمرية ، ولكن الحاكم بأمر الله بالغ في هذه الشروط وزاد عليها ، لذا اعتبر أهل الذمة عودة الحاكم الى تطبيق هذه الشروط وزيادته عليها امتحانا لهم من قبل الله يذكرهم بما عانوه في عهود الاضطهاد السابقة (٨٠) . ذلك أن الحاكم بأمر الله قد أخطم بالشفقة في تطبيقها بالدرجة التي فاقت احتمال الكثيرين منهم (٨١) .

ففي النصف الأول من شهر المحرم سنة ٣٩٥ هـ أصدر الحاكم بأمر الله مرسوما ألزم النصارى ، واليهود - دون الخيابة - بشدة الزناير في أوساطهم ، ووضح العنائم السود على رؤوسهم - إذ كان السود هم شعار العباسيين وهم المصفاة في نظر

(٧٨) القسم عبيد : المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٧٩) وهم يهود يريخ أصلمهم الى خيبر وما جاورها ، الذين أمر عمر بن الخطاب بقتلهم من شبه الجزيرة العربية الى مصر ، وذلك جوارحا للمنة الأولى منذ أيام النبي صلى الله عليه وسلم (ملحق : الحاكم بأمر الله ، ص ١٦) .

(٨٠) ملحق : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، ص ٢٥٤ .

(٨١) الانبا حيفائيل : المسير المشرق ، ج ٣ ، ورقة ٤٩ .

الفاطميين - وأعلن هذا السجل في جوامع مصر ، فامتثل لأمر الخليفة سائر أهل النعمة في اتحاد الدولة (٨٢) .

وفي سنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م اشتد القيود صرامة ، ففي هذا العام أمر النصارى ، واليهود - دون الخيابة - بلبس السواد ، وأن يحمل النصارى الصليبان في أعناقهم ، وأن يحمل اليهود في أعناقهم قرامى الخشب والجلجل (٨٣) .

وفي العام التالي أخذ الحاكم بأمر الله أهل النعمة بالشدّة فيما يتعلق بالقيود ، واشترط على من يقيم في دولته منهم في مصر أن يلتزم بما شرط عليهم من الشروط التي زاد فيها على الشروط العمرية ، فشرط على النصارى تعليق الصليبان ظاهرة ، وعلى اليهود قرامى الخشب على هيئة رأس المجل . فأتخذ النصارى صليبان النصب والفضة ، فأنكر الخليفة ذلك ، وأمر المحسبين أن يأخذوا النصارى بتعليق صليبان الخشب واليهود بتعليق القرامى ، كما أمر بالنداء في أهل النعمة بأنه من أراد النحول في الاسلام فله ذلك ، ومن أراد الانتقال إلى بلاد الروم كان آمناً إلى أن يخرج ، ومن أراد المقام بمصر فعليه بلبس الغيار والالتزام بما شرط عليه ، فاضطر كثير من أهل النعمة تحت وطأة تلك القيود الصارمة إلى النحول في الاسلام (٨٤) .

كما نودى في سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م بأن لا يمشى اليهود والنصارى إلا بالنيار ولا ضربوا على ذلك . ويذكر القرطبي أنه في

(٨٢) الاتفاقى : المصدر السابق . ص ١٨٧ .

- القروى : انعط المجلد ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

(٨٣) النويرى : المصدر السابق . ج ٢٦ ، ورقة ٥٢ .

(٨٤) ابن العبرى : المصدر السابق . ص ٢١٢ .

- ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٧ ، ص ٢٢٩ ، ٢٤٠ .

سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م اشتد الأمر على أهل النمة في إلزامهم لبس الخيار (٨٥) ، وفي العام التالي أمر الحاكم بأمر الله أن تؤخذ النمة إلزامهم لبس الخيار (٨٥) ، وفي العام التالي أمر الحاكم بأمر الله أن تؤخذ النمة من النصاري واليهود بتغيير الزناير الملونة التي يلبسونها والاقتصار على لبس الزناير السود فقط دون غيرها من الألوان مع وضع العمام السود على رؤوسهم (٨٦) .

وفي سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م أمر النصاري واليهود - دون الخيابة - بلبس العمام السود ، وأن تحمل النصاري في أعناقهم الصلبان ما يكون طوله ذراعاً ووزنه خمسة أربال ، وأن تحمل اليهود في أعناقهم عند خروجهم إلى الأسواق قرامى الخشب على وزن صليبان النصاري (٨٧) .

ويذكر ابن أبياس أن الخليفة الحاكم بأمر الله ألزم النصاري أن تكون الصلبان من حديد بطول ذراع وأن يلبسوا المآزر الفسيحة ، فأقاموا على ذلك مدة ثم أعادهم إلى ما كانوا عليه (٨٨) .

وجدد الحاكم بأمر الله هذا للرسوم في سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، فأمر أن تلبس النصاري واليهود - دون الخيابة - طيالة سود ، وعمائم شديدة السواد وأن يعلق النصاري في أعناقهم صليبان

(٨٥) المقرئى : انحاط الخطا ، ج ٢ ، ص ٧٦ ، ٨١ .

(٨٦) الإطلاقى : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

- المقرئى : انحاط الخطا ، ج ٢ ، ص ٨٥ .

(٨٧) للقشامى : المصدر السابق ، ورقة ١٤٠ .

- ابن خلکان : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ .

- العيني : المصدر السابق ، ج ١٦ ، ورقة ٦٧٨ .

(٨٨) ابن أبياس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٢ ، ٥٢ .

والخشيب مضافا الى الزنار في أوساطهم ، فلبسوا صلبانا طولها
 فتر . ثم أمر بعد شهر وجعلها قنر شبر في شبر . فلما كان يوم
 الأحد النصف من شهر ربيع الآخر من نفس العام أمر النصارى
 بتعظيم الصليبان التي في رقابهم ، وأن يكون طولها ذراع في عرض
 حمله ، وفتحها ثلثي شبر وسمكها أصبح (٨٦) ، غير أن الأنبا
 ميخائيل ذكر أن طول الصليب كان ذراعا ونصا على أن يكون وزن
 كل صليب خمسة أوطال مختوم بخاتم رصاص عليه اسم الخليفة ،
 وأن يعلقوه في رقابهم بحبال من ليف (٩٠) . كما تودى على اليهود
 بأن يعلقوا في رقابهم قرامي الخشب على هيئة رأس عجل زنة كل
 منها خمسة أوطال تعلق في رقابهم بحبال من ليف وتختم بخاتم من
 رصاص عليه اسم الخليفة الحاكم (٩١) ، وعلى أن تكون علامة
 الصليبان والقرامي ظاهرة فوق ثياب أهل النعمة عند خروجهم الى
 الأسواق بحيث يراها الناس (٩٢) وأذن للناس في البحث عن
 المخالفين وتجب آثارهم (٩٣) . مما أثار الفزع بين النصارى وكثرت
 مخاوفهم ، وخلت الطرقات إياها لم ير فيها نصراحي (٩٤) . وإذا
 وجد واحد من أهل النعمة عليه صليب أو قرمة بغير ختم كان يتعرض
 للامانة والقرامة ، مما أدى الى أن ضاق أهل النعمة ذروعا بتلك القيود
 التي فرضت على الملابس . ويروي الأنبا ميخائيل أن نصارى مدينة
 قنيس ذاقوا الأهرين من تلك القيود ، ومن مضايقات المسلمين لهم .

(٨٦) الاطلاق : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ . ٢٠٣ .

(٩٠) الأنبا ميخائيل ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٥٦ .

(٩١) — : نفس المصدر ، ص ٨٦ .

.. الاطلاق : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٩٢) القريزي : الضغط : ج ٢ ، ص ٢٨٧ .

(٩٣) طنان : المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

(٩٤) الاطلاق : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

فاذا نسي صراني منهم صليبه ومضى في طرقات المدينة بلا صليب
تعرض للأذى ولقى كثيرا من الإهانة والسخرية (٩٥) .

غير أنه قد خفف من تلك القيود تصريح الحاكم بأمر الله
لرعاياه من أهل النمة في صفر سنة ٤٠٤ هـ ، بالانتقال إلى بلاد
الروم أو النوبة أو الحبشة ، أو التزام القيار إذا رغبوا في
البقاء (٩٦) ، كما لجأ الكثير من النصارى تحت وطأة تلك القيود
وعصامتها إلى نزع القيار والصليب والزناز والتثنية بالمسلمين ،
والتظاهر بالإسلام ليظن من يراهم أنهم قد اعتنقوا الإسلام (٩٧) .
كما شملت سجلات الخليفة الحاكم بأمر الله التي أصدرها
بشأن أهل النمة عدة قيود فرضت عليهم عند دخولهم الحمامات .

ففي سنة ٣٩٨ هـ و ٣٩٩ هـ / ١٠٠٧ م و ١٠٠٨ م ، أمر
الحاكم بأمر الله أن يتميز أهل النمة عند دخولهم الحمامات بعلامات
تميزهم عن المسلمين وذلك بأن يتميز النصارى بصليب يعلقونه
في رقابهم ، وأن يتميز اليهود بجلجل مكن الصليب ، كما تودى
ألا يدخل أحد الحمام إلا بتمز ، وأخذوا بالشمة والضرب في تنفيذ
تلك الأوامر ، كما كبست الحمامات للتأكد من مراعاة ما جاء بتلك
السجلات . غير أنه لم تلبث تلك الأوامر أن زالت بعد مدة ، ولم
يعد أهل النمة يكثرثون بتنفيذها (٩٨) .

(٩٥) الأتيا ميخائيل - المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٩٥٧ .

(٩٦) الانطاكي - المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

(٩٧) الأتيا ميخائيل - المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥٧ .

- المقرئ : انطاخ الحقا ، ج ٢ ، ص ٩٤ - ويذكر المقرئ طريق هذا
الرسم في جميع الأول سنة ٤٠٢ هـ .

(٩٨) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

- أين الجري : المنتظم ، ج ٧ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

- المقرئ : انطاخ الحقا ، ج ٢ ، ص ٧٦ .

وفي المرسوم الذي أصدره الحاكم سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م أكد ما سبق أن أصدره من تولي بشأن الحمامات ، ثم أفرد حمامات اليهود وحمامات النصراني من حمامات للمسلمين ، ولمر ألا يدخل أحد من أهل الذمة حماما مع المسلمين وأصبحت لهم حمامات خاصة — كذلك الحمام الذي أنشأه ابن أبي الدم اليهودي كاتب الانشاء في عهد الحاكم — ، ووضع على حمامات النصراني الصلياني الخشب وعلى باب حمامات اليهود القرامي الخشب ، كعلامات مميزة تعرف بها ، مع التزامهم بتعليق الصلياني والقرامي الخشب في رقابهم عند دخولهم الحمامات (٩٩) . وتأكد ذلك مرة أخرى في المرسوم الذي أصدره في سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، كما تكررت تلك القيود في المرسوم الصادر من دار الخلافة في شهر المحرم من السنة التالية (١٠٠) .

أما فيما يتعلق بالركوبات ، فإنه طوال خلافة المزمز لدين الله وابنه العزيز لم تفرض على أهل الذمة أية قيود تتعلق بذلك ، كما قصوا بحرية استعمالها في بداية خلافة الحاكم بأمر الله . فقد كانوا يركبون الخيل وخاصة أثناء الاحتفال بأعيادهم (١٠١) ، واحتتم الأثرياء وكبار رجال الدولة من أهل الذمة باقتناء الخيول والبغال ، وكانت لهم الاصطبلات المملوكة لتربيتها . ويذكر القريزي أن عهد ابن ابراهيم النصراني كان يمتلك المشترات من الخيول والبغال ، وأنه حمل إلى الخليفة الحاكم بأمر الله هدية منها ثلاثون بظلة ملونة الأجلال ، وعشرون فرسا منها عشرة مطهية باللجم والسروج الملحقة وعشرة خيول تكسوها أجلال ملونة فاخرة . كما أن الحاكم بأمر الله صرح

(٩٩) الأتيا حياثيل : المصدر السابق ، ج ٢ . ورقة ٥٥ .

— ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ .

— الزيري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٦ .

(١٠٠) القريزي : أمثلة الحظا . ج ٢ ، ص ٩٤ ، ١٠٠ .

(١٠١) — الخطبة ، ج ١ ، ص ٦٨ .

لأولاد فهد في شعبان سنة ٣٩٢ هـ باسترداد ما أخذ منهم من سروجهم للحللة بالنهب ، وأمرهم بالركوب (١٠٢) ، وعندما خلع الحاكم بأمر الله في ربيع الأول سنة ٣٩٤ هـ على أبي يعقوب ابن نسطاس الطليبي ، حمله على يقلين ومعه الثياب الفاخرة ، ولما توفي ابن نسطاس استطلب الحاكم بأمر الله منقر اليهودي (ت ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م) وخلع عليه في سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م ، وحمله على بغلة محلاة بالسرج واللجام الفخمة ، وأعداه ثلاث بغلات يسروج ولجم قتال (١٠٣) .

غير أن سجلات الحاكم بأمر الله التي أصدرها لفرض بعض القيود على أهل الذمة شملت أيضا قيودا على الركوبات ففي سجلاته الصادرة في سنتي ٤٠٢ هـ و ٤٠٣ هـ / ١٠١١ م و ١٠١٢ م منع أهل الذمة من ركوب الخيل ، وأمر أن تكون ركوبهم البغال والحبر ويسروج ولجم غير محلاة بالنهب والفضة ، وأن تكون من جلود سود ، ولا يركب أحد منهم بركب حديد بل تكون ركب سروجهم من خشب الجميز ، وأمر أيضا أن يضرب بالجرس في القاهرة ومصر (الفسطاط) ألا يركب أحد من المكارية المسلمين ذميا ، كما منع الملاحين وأصحاب السفن المسلمين أن يحملوا على سفنهم أحدا من أهل الذمة (١٠٤) .

ولما كان الأغنياء من أهل الذمة يتهافون على تصدع السراير في بيوتهم — مخالفين بذلك شريعتهم — (١٠٥) ، وشراء الجوارى ،

(١٠٢) المفريزي : تلطاف الحنفا ، ج ٢ ، ص ٤٤ .

(١٠٣) — : تلطاف الحنفا ، ج ٢ ، ص ٧٣ .

(١٠٤) الأتيا ، ميقاتيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥٥ ، ص ٥٦ .

— الاطلسي : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

— المفريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ .

— : تلطاف الحنفا ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

(١٠٥) تاجر ، تاريخ الأمة القبطية ، ج ٢ ، ص ١٥ .

واتخاذ الرقيق واستخدامهم فإن الحاكم بأمر الله أمر في السجل الذي أصدره في سنة ٢٩٥ هـ / ١٠٠٤ م بفتح بيع العبيد والاماء لأهل النمة . ثم جاء في المرسوم الذي أصدره في سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ألا يستخفم النعميون مسلما وألا يقتنوا عبدا مسلما أو جارية مسلمة ، وقد تتبع آثار المخالفين لأوامره (١٠٦) .

وامام اقبال نصارى مصر على تربية الخنازير وأكل لحومها ، أمر الحاكم بأمر الله بقتل الخنازير التي في إقليم مصر ، فقتلت جميعها ، وكانت خنازير كثيرة لاسيما التي كانت في منطقة البشمور (١٠٧) .

ولكن ازاء صرامة القيود التي فرضها الحاكم على أهل النمة ، وتشديده في تنفيذها ، فقد حاروا بالشكوى ، بل بلغ بهم الأمر أن تقيبها بالمسلمين وتظاهروا بالاسلام فرارا من قسوة القيود المفروضة عليهم . ثم كان قرار الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م بالتصريح لهم المضي الى بلاد الروم أو الحبشة والتوبة دون التعرض لهم (١٠٨) ، وبهذا القرار وضع أهل النمة موضع الخيار : إما الالتزام بما فرض عليهم من قيود ، أو الاسلام ، أو الهجرة (١٠٩) . ثم كانت مجموعة المسجلات التي أصدرها الحاكم بأمر الله لأهل النمة قبيل اختفائه سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م ، وحصلت في مضمونها التخفيف من غلواء سياسته التي اتبها ازامهم (١١٠) .

-
- (١٠٦) الذويري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٦ .
 - المقرئ : انساب الخلفاء ، ج ٢ ، ص ٥٢ ، ٩٤ .
 (١٠٧) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥٥ .
 (١٠٨) حبيب : نفس المصدر ، ج ٢ ، ورقة ٥٧ .
 - الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .
 (١٠٩) عايد : الحكم بأمر الله ، ص ١٠١ .
 (١١٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٢٦ - ٢٢٣ .

وفي خلافة الظاهر لأعزاز دين الله هم أهل النعمة بقدر كبير من التسامح فحفظوا من القمار الذي عليهم ، واقتصروا الأكثرون منهم على لباس الزنجر وعمامة سوداء (١١١) . كما أن كبار أهل النعمة لم يلتزموا بتلك القيود في خلافة المستنصر بالله الفاطمي . إذ يذكر أبو صالح الأرمني أن المعلم سرور الجلال كان يخرج للقاء الخليفة المستنصر للسلام عليه ، وعليه الثياب الفخمة ، وعمامة مصقولة مشدودة الوسط بشملة ديبقي مذهبة (١١٢) .

وكيفما كان الأمر فلم يكن يطلب من أهل النعمة الالتزام بهذه الشروط حرفيا حسبا ورد في عهد عمر المشهور ، فكان موظفو الدولة من أهل النعمة يلبسون الثياب الفخمة ، كأثواب كبار رجال الدولة من المسلمين ، وفي الوقت نفسه يجعلون لأنفسهم مقاما عاليا أمام الرعية ، غير أن مقالاتهم واستعلامهم على هذه الصورة كانت تسبب من وقت لآخر ارتفاع أصوات المسلمين بالاستنكار ، وبالتالي العودة الى إلزامهم بهذه الشروط (١١٣) .

-
- (١١١) الاطلاق - المصدر السابق ، ص ٢٢٨ -
 (١١٢) أبو صالح الأرمني : المصدر السابق ، ص ٣٢ -
 (١١٣) الاتيا ميخائيل - المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٥ -
 - القروزي : الخطبة ، ج ١ ، ص ٣٦٦ -
 - يارموند : المرجع السابق ، ص ٢٤ -

(ب) أعياد أهل الذمة

أخذت معظم الأعياد الدينية لأهل الذمة في مصر في عصر الفاطميين طابعا فريدا ، ذلك أن الخلفاء الفاطميين شاركوا في الاحتفال بأهم هذه الأعياد بتصيب والحر ، وصيفوا تلك الاحتفالات بالصيغة الرسمية الاجتماعية ، كما اشترك المسلمون في مصر في الجانب الاجتماعي للمسلم من تلك الأعياد (١١٤) .

لكن أهل الذمة انتهزوا حسن معاملة الفاطميين لهم والحرية التي منحوها إياهم ، فظهروا شعائرهم الدينية وخاصة في الأعياد الدينية في جلبة وضوضاء وبطريقة صارخة (١١٥) وإذا كانت هذه الأعياد قد حفلت بمظاهر الفرح والابتهاج ، إلا أنه في بعضها قد شابها الكثير من مظاهر القسار والاحتلال والمجون ، مما دعا الخلفاء الفاطميين إلى فرض القيود على بعض هذه الأعياد الدينية .

(١١٤) مقز : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

— جك تلجر : المرجع السابق ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(١١٥) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطهم في مصر ، ص ٢٤٤ .

أعياد النصارى :

وكان لقبط مصر الذين ينتحلون مذهب اليعقوبية أربعة عشر عيداً شرعياً سبعة أعياد يسمونها أعياداً كباراً ، وصبعة يسمونها أعياداً صغاراً (١١٦) ، وهناك أعياد أخرى ليست عندهم من الأعياد الشرعية لكنها من لوازم العادة ، هذا بجانب اقامتهم الاحتفالات بذكرى الآباء والقديسين (١١٧) ، وفيما يلي عرض لهذه الأعياد الكبرى .

١ - عيد البشارة :

هذا العيد يحتفل به قبلط مصر في اليوم التاسع والعشرين من شهر برمبات ، ويمتد النصارى أنه في هذا اليوم نزل جبريل عليه السلام على السيدة مريم بشرها بميلاد السيد المسيح (١١٨) .

٢ - عيد القيامة :

ويسمى « بعيد الشعانين » ومعناه التسبيح ، وهو ذكرى اليوم الذى دخل فيه السيد المسيح مدينة القدس وأكباً آتانياً ، فاستقبله أهلها بالترحاب وبايديهم ألحسان الزيتون ، وهم يصيحون بين يديه الى أن دخل الهيكل . وكان قبلط مصر يحتفلون به في اليوم الثانى والأربعين من الصوم (سابع أحد من الصوم) (١١٩) .

(١١٦) القزوينى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٢ .

(١١٧) القزوينى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٩ - ٤٣٥ .

(١١٨) القزوينى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٢ .

- القزوينى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٥ .

(١١٩) ابن العدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٩١ .

- القزوينى : المختصر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٢٥ .

وفي هذا العيد تزين الكنائس بأغصان الزيتون وقلوب النخيل ، ويفرق منها على الناس على سميل التبريك (١٢٠) .

وكان نصارى الاسكندرية يشقون شوارع المدينة في الليل يوم الزيتونة حاملين أغصان الزيتون وسعف النخيل ، ويستهلون بالدعاء والقراءة والتمجيد والصليان في أيديهم (١٢١) . كما كان من عادة نصارى مدينة أخميم في يوم الزيتونة أن يخرج القسس والشمامسة بالمجامر والمباخر والصلبان والأناجيل والتسبوع ، ويقفون على باب القاضى ، فيبخرها ويقرعوا فصلا من الانجيل ، ويمسحونه . ثم يكرروا ذلك المشهد على أبواب أعيان المسلمين (١٢٢) .

على أن الحاكم بأمر الله في العاشر من رجب سنة ٣٧٨ هـ منع النصارى في عيد الشعانين من تزيين الكنائس وحمل الخوص والأغصان الزيتون كما جرت به العادة ، وأتوا كل من يحمل شيئا منها في هذا العيد ، ثم أمر بالقبض على جماعة ممن لم يمثلوا لأمره (١٢٣) . وفي سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م منع نصارى بيت القسس من الاحتفال بالشعانين ، وكذلك سائر نصارى مصر ، وأمر بالاحتفال ورقة من ورق الزيتون ولا من سعف النخيل ، ولا تزيين كنيسة من الكنائس بها . ولا يلحظ شيء منها في يد مسلم ولا نصراني . ولا تعرض لأشد العقوبات (١٢٤) .

(١٢٠) الانطاكي : المصدر السابق . ص ١٩٤ .

(١٢١) الانبا ميخائيل : المصدر السابق . ج ٢ . ورقة ٧٧ .

(١٢٢) جاك تاجر : المرجع السابق . ص ١٥٠ .

(١٢٣) القزويني : السبل ، ج ١ . ص ٣١٢ .

(١٢٤) الانطاكي : المصدر السابق . ص ١٩٤ .

على أن نصارى مصر عادوا إلى الاحتفال بهذا العيد في خلافة الظاهر وكذلك في خلافة المستنصر ، ويرى الأنبا ميخائيل أن نصارى مدينة الاسكندرية في خلافة المستنصر كانوا يقيمون شعائر هذا العيد كما جرت به العادة في أمن وسلام ، وإذا عترضهم المسلمون بها ، ساروا في حماية وإلى المدينة (١٢٥) .

٣ - عيد الفصح :

وهو ما يسمى « عيد القيامة » ، وهو العيد الكبير عند النصارى ، وهو يوم الفطر من صومهم الأكبر ، ويعتقد النصارى أن المسيح عليه السلام قام بعد صلبه ، ودخل على تلاميذه ، وسلم عليهم ، وأكل معهم ، وأوصاهم وأمرهم بأمور قد قسمتها أنجيلهم (١٣٦) .

وكان نصارى مصر يحتفلون بالفصح احتفالا عظيما ، وقد شاركهم المسلمون وكذلك الخلفاء القاطمون مظاهر الاحتفال بهذا العيد . ويلقى القرىزى بعض الضوء على احتفالات النصارى بالفصح في حوادث سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م ، فيذكر أنه لخمس بطن من المحرم في هذا العام كان الاحتفال بفصح النصارى فاجتمع بقنطرة القس جماعة غفيرة من النصارى والمسلمين في الخيام المنصوبة وغيرها ، وقضوا طول نهارهم في لهو ومجون وتهتك قبيح ، واختلط الرجال بالنساء وهم يعاقرون الخمر ، واستمرى الفساد في هذا اليوم بالدرجة التي حملت النسوة في قفاف الحمامين من شدة السكر . كما يذكر القرىزى - أيضا - أن الخليفة الظاهر

(١٢٥) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٧٧ .

(١٣١) ابن الأثير : تكملة المختصر في أخبار البشر ، ج ٦ ، ص ٥٠ .

- القسطنطين : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٦٦ .

لاعزاز دين الله شاهد الاحتفال بهذا العيد اذ ركب في هذا اليوم
في موكب رائع الى القدس وعليه اقصر الثياب واجملها ، فتفقد مكان
الاحتفال ودار هناك طويلا ثم عاد (١٢٧) .

٤ - عيد الخمسين :

ويسمى ايضا « عيد الصعود » ويمتقد النصارى أن المسيح
عليه السلام بعد اربعين يوما من القيام ، خرج مع تلاميذه حيث
باركهم ثم صعد الى السماء ، وقد اكمل ثلاثا وثلاثين سنة وثلاثة
اشهر ، فرجع التلاميذ الى اورشليم « بيت المقدس » ، وقد وعدهم
بإشتهاار أمرهم (١٢٨) .

٥ - عيد الفطيس :

ويسمى ايضا « عيد المنتصرة » ، وكان المسيحيون يحتفلون
به في السادس والعشرين من شهر بشنس بعد خمسين يوما من
قيامة المسيح كما يقولون . ويمتقدون أنه في هذا اليوم اجتمع
الحواريون في عليية صهيون فتجلى لهم روح القدس ، وتكلمت
ألسنتهم بجميع اللغات ثم تفرقوا في البلاد يدعون الناس الى دين
المسيح (١٢٩) .

٦ - عيد الفيلاد :

ويمتقد المسيحيون أنه اليوم الذي ولد فيه المسيح ببيت لحم ،

١ . (١٢٧) القزويني : الخطوط ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

(١٢٨) الطغفندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ .

- القزويني : الخطوط ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

(١٢٩) الطغفندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ .

- القزويني : الخطوط ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

ويحتفل به قبيل مصر في التاسع والعشرين من كيهك ، وتزين الكنائس في هذا العيد ، فيؤكد النصارى المصاييح في الكنائس عشية ليلة الميلاد (١٣٠) -

وكان هذا العيد من الأعياد المشهورة في مصر الفاطمية ، فكان يفرق فيه على كبار رجال الدولة والأمراء وسائر الكتاب وغيرهم سائر أنواع الحلوى ، والصمك المعروف بالبوري ، وكان من عادة النصارى في عيد الميلاد اللعب بالنار ، ومن أحسن ما قيل :

ما اللعب بالنار في الميلاد من سعة

وانما فيه للإسلام مقصود

ففيه بهت النصارى أن ربه

عيسى بن مريم مخلوق ومولود

وفي هذا العيد تباع الشموع المزهرة بالأصباغ والألوان الزاهية ، والتمائيل البديعة ، ولا يبقى أحد من الناس على كافة مستوياتهم الا ويشتري منها لأولاده وأهله ، وكان الناس يسمونها الفوانيس ، ويعلقون منها الكثير في الأسواق والحرايت ، ويتنافسون في المسابقة في الاتفاق على تزيينها ، وكان ذلك يعد نوعا من البلذخ والترف في هذا العصر ، وكان عليه القوم من الأغنياء يتصدقون على الفقراء في هذا العيد بصغار الفوانيس (١٣١) -

(١٣٠) للطفهتير : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٢٩ -

(١٣١) القريزي : الخطب ، ج ١ ، ص ٣١٤ -

— مذكر : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ٢٤٠ -

٧ - عيد الفطاس :

ويحتفل به في اليوم الحادى عشر من شهر طوبة ، وفيه يقطس قبط مصر في النيل ، وأصله عند النصارى أن يحيى ابن زكريا - عليهما السلام - والمعروف عندهم بيوحنا المعمدانى عند المسيح - أى غسلة - فى مياه الأردن • وعندما خرج من الماء اتصل به روح القدس ، ورغم شدة البرد فإن النصارى فى هذا اليوم يسمون أولادهم فى الماء (١٣٢) •

وكان ليلة الفطاس فى مصر شأن عظيم ، إذ لا يتام الناس فيها فئى أحسن الليالى سرورا وبهجة ، ولا تخلق فيها الدروب ، وينطس أكثر أهل مصر فى النيل ، ويزعمون أن فى ذلك وقاية من الأمراض (١٣٣) •

وفى ليلة الفطاس يركب متولى الشرطة بالقسطاط فى أول الليل فى موكب كبير وهو يرتدى الملابس الفخمة ، وبين يديه الشموع والمشاعل • ويلطف شوارع القسطاط والقاهرة ، وينادى فى الناس بالآى يختلط المسلمون مع النصارى فى تلك الليلة ، وآلا يأتوا بما يسكر صغر الاحتفال ، حيث يخرج النصارى فى سحر تلك الليلة إلى شاطئ النيل ، ويقطس الكثيرون منهم فى مياهه ، وكان من عادة النصارى الملكيين أن يخرجوا من كنيسة القديس مكائيل بقصر الشمع فى جموع غفيرة بالقراة الملهنة والنغمات الملهنة ، حاملين الصلبان والشموع المضيئة ، حتى إذا وصلوا إلى

(١٣٢) القسطنطينى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ •

(١٣٣) القريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٤ •

شاطئ النيل وقف الأسقف يخطبهم باللغة العربية ويدعو للخليفة
ولن شاء من خواصه ، ثم تعود الجموع الى كنيسهم على الطريقة
التي خرجوا بها ، ليتسوا الصلاة (١٣٤) .

وكان الناس في هذا العيد يتجاثرون بشرب الخمر ، ويجمع
أرباب الملاهي والملاعب من كل فن ، ويخرج الناس في تلك الليلة
عن الحد في اللهو والخلاعة والفجور مما أدى الى أن فرض بعض
الخلفاء الفاطميين قيوداً على هذا العيد (١٣٥) .

ومن ذلك أن الخليفة المعز عندما شاهد الاحتفال بليلة النطاس
بعد مدة قصيرة من إقامته في مصر ، ووقف على ما يحدث في تلك
الليلة من مظاهر البنى والفساد ، أمر بإلغاء الاحتفال بليلة النطاس
في سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م ، ومنع النصارى من النزول في المراكب
وضرب الخيام على شاطئ النيل ، وحشد المخالفين لأمره
بالاعلام (١٣٦) .

وإغلب الظن أن نصارى مصر لم يلتزموا بالقيود التي فرضها
الخليفة المعز على بعض أعيادهم ، واستغلوا سياسة الميز باله
المتسامحة ، وعادوا الى الاحتفال بليلة النطاس ، مما أدى الى أن
يصدر أمره في سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م بجمع الاحتفال بهذا العيد ،
وحشد المخالفين بإبعادهم عن القاهرة (١٣٧) .

(١٣٤) الإطلاق : المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

(١٣٥) المقريظة : القبط ، ج ١ ، ص ٣٦٤ .

(١٣٦) ابن أبياس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٧ ، ٤٨ .

(١٣٧) المقريظة : انماط لقطا ، ج ١ ، ص ٢٤٧ .

وفي خلافة الحاكم بأمر الله ، لم يمنع أهل النمة من الاحتفال بأعيادهم في أول الأمر ، فعاد النصارى الى الاحتفال ببليلة الفطاس ، ويذكر القرينى أنه في شهر المحرم سنة ٣٨٨ هـ كان الاحتفال بتلك الليلة ، فضربت الخيام والأسرة في عدة مواضع على شاطئ النيل ، ونصبت أسرة للرئيس فهد بن ابراهيم النصراني ، وأوقدت له الشموع والمشاعل ، وبين يديه أهل الغناء والملاهي والطرب فجلس الرئيس فهد مع أهله يشرب الى أن كان وقت الفطاس ففطس وانصرف (١٣٨) .

وكان اشتراك قهد في هذا العيد الذي سجل بمظاهر الأبهة والحظمة دليلا على اشتراك الدولة بصورة رممية في الاحتفال به . هذا ويذكر الانطاكي أن الحاكم بأمر الله كان يحضر احتفالات النصارى ببليلة الفطاس في كثير من الأعوام في صورة متكررة يشاهد ما يقوم به النصارى من شعائر دينية ، وما يحدث فيها من مظاهر اللهو والطرب ، وما يشوبها من مظاهر الانحلال والفساد . ولذلك أمر الحاكم بأمر الله في سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م بمنع جميع الطوائف النصرانية في مسائر أنحاء الدولة من الاحتفال ببليلة الفطاس . وعدم الاستعداد له في السنوات القادمة . وصرف النظر عن الاحتفال بهذا العيد كلية (١٣٩) ، كما جند الحاكم الأمر بمنع الاحتفال بالفطاس في ثامن عشر جمادى الأولى سنة ٤١١ هـ ، فلم ينفذ أحد من نصارى مصر في النيل (١٤٠) .

وإذا كان الحاكم بأمر الله قد أصدر مرسوما في شعبان سنة ٤١١ هـ بالحقو التسامح والتسامح المطلق في سياسته اراء أهل النمة (١٤١) ، فإن الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله صرح للنصارى

(١٣٨) القرينى : لتمام المنها ، ج ٢ ، ص ١٧ .

(١٣٩) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(١٤٠) القرينى : الخط ، ج ١ ، ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

(١٤١) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٣٢ .

في سنة ٤١٥ هـ/ ١٠٢٤ م بإقامة عيد الفطاس ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل شارك فيه بنفسه مع أهله وحرمة وكيار رجال دولته ، ويذكر المقرئى أنه في ليلة الأربعاء رابع ذى القعدة من تلك السنة ، كان غطاس النصرى فاعر الخليفة الظاهر بأن تجرى مناسم الاحتفال كما كان يحتفل به ، على ألا يختلط المسلمون مع النصرى عند غطاسهم فى النيل ، وركب الخليفة لنظر الفطاس ومعه الحرم والحاشية ، وأمر بأن توقد النار والمشاعل فى الليل ، وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والنيران فأدوا مراسم الاحتفال ثم غطسوا وانصرفوا (١٤٢) .

وفى هذه الليلة كانت المراكب النيلية والزوارق تمتلئ بالسواد الأعظم من المسلمين والنصارى على اختلاف طبقاتهم ، وتزين المراكب بالقناديل والشموع المضيئة ، كما تكثر المشاعل على ضفاف النيل ، وكان يشغل على جانبيه ما يزيد على ألف مشعل وألف فانوس ، كما كان ينزل رؤساء القبط فى المراكب النيلية ويخرج الناس فى تلك الليلة عن الحد فى اللهو والفرجة والمجون ، ولا يفلق فى تلك الليلة دكان ولا دواب ولا سوق ، وتتجاهر الناس بشرب المسكرات (١٤٣) ، وكان أقبال الناس على عادة شراء أصناف الفاكهة والخبز وغيره من أصناف الطعام والشراب (١٤٤) ، حيث تصرف الأموال الطائلة فى المأكول والمشروب ، وترسل الهدايا إلى رؤساء الأقباط فى تلك الليلة بأطباق الذهب والسمك الجوزى والحلوى والكستوى والتفاح والسفرجل والأترج والتارنج والليسون المراكبى وباقات الترجسى وغير ذلك من الهدايا القيمة (١٤٥) ، كما

(١٤٢) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٥ - ٤٩٤ .

— : انماط الحنقا ، ج ٢ ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

(١٤٣) ابن اياس . المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٨ .

(١٤٤) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٥ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ .

(١٤٥) ابن اياس . المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٩ .

جرت العادة أيضا في ليلة الغطاس أن يضاء سوق الشعايين كأعظم ما تكون الأضواء ، وتظل الحوائيت تعمل الى منتصف الليل (١٤٦) .
وأما الأعياد الشرعية الصغار فملحدا مبيعة أيضا وهي : -

١ - الغتان :

وهو السادس من شهر يؤنة ، ويعتقدون أن المسيح ختن في هذا اليوم وهو الثامن من الميلاد (١٤٧) ، وكان من أهم الأعياد العائلية عند قبط مصر ، حيث أنهم يختنون أولادهم بخلاف غيرهم من النصارى (١٤٨) .

٢ - الأربعون :

وهو عند النصارى في الثامن من شهر أمشير ، ويعتقد النصارى أنه في هذا اليوم دخل الكاهن سمعان الهيكل وبارك السيد المسيح بعد أربعين يوما من ولادته (١٤٩) .

٣ - خميس العهد :

وهو الخميس الذي يحتفل فيه النصارى بانجيلهم وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام ، وسنتهم فيه أن يقوم البطريرك بفصل أرجل النصارى اعتقادا منهم أن السيد المسيح فعل هذا مع تلاميذه ليعلمهم التواضع وكان عامة أهل مصر يسمونه « خميس المنس » حيث يطبخ فيه النصارى المنس على ألوان شتى (١٥٠) ، كما كان يباع

- (١٤٦) عثر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .
- (١٤٧) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .
- (١٤٨) متن - المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥١-٢٥٠ .
- (١٤٩) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .
- المقرئ : الخط ، ج ١ ، ص ٢٦٥ .
- (١٥٠) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .

فى أسواق القاهرة من البيض المصبوغ ما يتجاوز حد الكثرة .
ويهاذى النصارى بعضهم بعضا ، ويهدون الى المسلمين انواع السمك
مع العدس المصغى والبيض (١٥١) . وكان أهل الاسكندرية يخرجون
فى هذا اليوم الى المارة ، ومعهم ماكلهم - ولا بد أن يكون العدس
من بيتها - فيفتح باب النار ويدخله الناس ، فمنهم من يذكر الله ،
ومنهم من يصلى ، ومنهم من يلهر ويلعب ، وكانوا يستمرون على هذه
الحال حتى منتصف النهار ثم يتصرفون (١٥٢) .

وجرت العادة فى خلافة الفاطميين أن رؤساء القبط كانوا
يضيرون فى يوم خميس العدس خمسماية دينار ذهبا عشرة آلاف
خروبة ، تفرق على أرباب الدولة على سبيل التبرك (١٥٣) .

٤ - صييت النور :

ويحتفل به قبل الفصح بيوم واحد ، ويمتد النصارى أن
النور فى هذا اليوم يظهر على قبر المسيح ، ومنه تستمد مصابيح
كنيسة القيامة كلها نورها (١٥٤) .

٥ - حد الحدود أو الأحد الجديد :

وهو بعد الفصح بثمانية أيام ، وهو مناسبة عند المسيحيين
لتجديد الآلات والأثاث والملابس ، وفيه تنشط المعاملات التجارية ،
ويجملونه بها للأعمال ، وتاريخا للشروط والقبالات (١٥٥) .

(١٥١) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٥ .

(١٥٢) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

(١٥٣) — : قصص المصدر ، ص ٥٩٤ .

(١٥٤) المقريزى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .

(١٥٥) أبو الفدا : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩١ .

— المقريزى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٨ .

٦ - عيد التجلي :

ويحتفل به في ثالث عشر شهر مسرى . ويعتقد النصارى أن المسيح عليه السلام تجلي لتلاميذه بعد ما رفع ، ففتحوا عليه أن يحضر لهم « ايلياء وعيسى » عليهما السلام ، فأحضرهما اليهم بمصل بيت المقدس ثم صعد الى السماء وهما معه (١٥٦) .

٧ - عيد الصليب :

وهو في اليوم السابع عشر من شهر توت ، ففي هذا اليوم من عام ٣٢٨ م وجدت الملكة هيلانة - أم الامبراطور قسطنطين - الصليب الذي صلب عليه السيد المسيح ، فأمرت بأن يكون على خشبات الصليب غلاف من ذهب وأن تبني الكنيسة المعروفة بكنيسة القيامة ببيت المقدس على قبر المسيح (١٥٧) .

وكان هذا العيد من أجل أعياد مصر ، وكان فيه النصارى يلبسون الملابس الفخمة ، ويظهرون زينتهم ، كما كانوا يقيمون الشعائر بالكنائس (١٥٨) .

ولما كان المحتفلون بعيد الصليب يتظاهرون بالمنكرات من جميع أنواع المحرمات ، ويفعلون ما يتجاوز الحد في الطرقات عند خروجهم الى بنى وائل بظاهر القسطنطين فان العزيز بالله الفاطمي أصدر أمره في رابع شهر رجب سنة ٣٨١ هـ يمنع الناس من الخروج الى بنى وائل ، وضبط الطرقات والدروب وتشديد الرقابة عليها خوفا من تفشي المنكرات والفسوق (١٥٩) ، على أن العزيز

(١٥٦) ——— نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(١٥٧) الثلاثيني : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

— العريزي : القسط ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .

(١٥٨) ——— نفس المصدر نفس الصفحة .

(١٥٩) ——— اتعاظ الخلفا ، ج ١ ، ص ٣٧٧ .

بأنه الذي عرف بمطلعه على النصارى بوجه خاص أعاد الاحتفال بهذا العيد فى سنة ٢٨٢ هـ/ ٩٩٢ م . واحتفل به فى الرابع عشر من شهر رجب من تلك السنة حريا على سياسته التسامحة إزاء أهل الذمة (١٦٠) .

وفى خلافة الحاكم بأمر الله كان سجله الصادر فى شهر صفر سنة ٤٠٢ هـ والذى قرئ به بجامع عمرو بالقسطنطين وفى الطرقات يتضمن أمر الخليفة بمنع النصارى من الاحتفال بعيد الصليب . مع عدم الخروج الى بنى وائل . وألا يقيموا مظاهر الزينة والملاهى فى هذا العيد . وألا يقرّبوا كنائسهم لأقامة الشعائر (١٦١) . نظرا لما كان يشوب مظاهر الاحتفال بهذا العيد من فسق ومجون .

كما كان هذا العام (٤٠٢ هـ/ ١٠١١ م) والعام الذى يليه من أكثر الأيام قسوة وصرامة بالنسبة للقيود التى فرضها الحاكم بأمر الله على أهل الذمة (١٦٢) . واستمر الأمر كذلك الى ان كان مرسومه الصادر فى شعبان سنة ٤١١ هـ بالعفو الشامل والتسامح المطلق فى سياسته إزاء أهل الذمة (١٦٣) .

وكان لنصارى مصر بعضى الأعياد والمواسم الخاصة بهم التى اتخذت طابعا شبه قومى . إذ شاركهم المسلمون فى الاحتفال بتلك الأعياد . وقد ارتبطت بعض هذه الأعياد بنهر النيل . وفى ذلك

(١٦٠) ————— : نفس المصدر ونفس الجزء ، ص ٢٧١ .

————— : الخط . ج ٣ ، ص ٢٦١ .

(١٦١) ————— : انباط الحنلا . ج ١ ، ص ٢٧٢ .

————— الخط . ج ١ ، ص ٢٦٦ .

(١٦٢) الانطلى : المصدر السابق . ص ٢٠٢ .

(١٦٣) ————— : المصدر السابق . ص ٢٢٢ .

دلالة على امتداد جنورها الى أيام قلعه المصريين (١٦٤) ، ومن هذه
المواسم والأعياد :

عيد الشهيد :

وكان عيد الشهيد في الثامن من شهر بشنس ، وكان واحدا
من أعظم الأعياد النصرانية ، ويعتقد قبط مصر أن النيل لا يزيد
في موسم الفيضان في كل سنة حتى يلقوا فيه في عيد الشهيد
تابوتا من خشب ، فيه أصبح من أصابع أحد أسلافهم الموتى
(القديسين والشهداء) ، ويخرج النصارى من جميع القرى والمدن
للاحتفال بهذا العيد ، كما كان يخرج عامة أهل القاهرة والفسطاط
على اختلاف طبقاتهم ودياناتهم ، وينصبون الخيام على شاطئ النيل
وفي الجزر المقابلة للشاطئ ، حيث يحتفلون بعيد الشهيد ، وفي
هذا اليوم ، لا يبقى من ولا مغبة ، ولا صاحب لهو ، ولا رب
ملموب ، ولا بقى ، ولا مخنت ، ولا ماجن ، ولا خليع ، ولا فاتك ،
ولا فاسق الا ويخرج لهذا العيد (١٦٥) .

وفي هذا العيد تصرف الأموال الكثيرة ، ويتجاهر الناس
بما لا يحتمل من المصاى والفسوق ، وكثور الفتن ، ويقتل أناس ،
ويقبل الكثير على شرب الخمر التي يباع منها في ذلك اليوم ما يزيد
على مائة ألف درهم فضة وخمسة آلاف دينار ذهباً في جهة شبرا
وحدها - ذلك أن اجتماع الناس لعيد الشهيد كان دائما بناحية
شبرا من ضواحي القاهرة ، وكان اعتماد فلاحي شبرا دائما في
وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر في هذا العيد - ففي يوم

(١٦٤) القسم عيده : المرجع السابق ، ص ١٩٩ .

(١٦٥) التريزى : المخطوط ، ج ١ ، ص ٦٨ - ٧٠ .

واحد باع نصراني - حسيما يذكر القرينى - باثني عشر ألف درهم
فضة من الخمر (١٦٦) *

عيد الخروج :

وكان من الأعياد الكبرى عند نصارى مصر ، والتي كان يشارك
المسلمون في الاحتفال به . وهو عيد الخروج لسجن يوسف
بالجزيرة . وكانت عادة العامة والسوقة أن يلقوا في هذا العيد
- قبل الخروج للسجن - أسواق المدينة بالطبول والبوقات ليجمعوا
من التجار ما ينفقونه في خروجهم وحدث في عام ٤٦٥ هـ / ١٠٢٥ م
أن اشتد الفلاء . قامتع التجار عن الدفع . ولما علم بذلك الخليفة
الظاهر لأعزاز دين الله أمرهم بأن يدفعوا ما جرت به العادة ، وبأن
يطلق المحتفلين ضعف ما أطلق لهم في السنة الماضية ، فخرجوا
الى سجن يوسف بالجزيرة ، معهم التماثيل والمضاحك والخيال
والسماجات . وخرج الخليفة الى العيزة . وأقام يومين لمشاهدة
جماعة المحتفلين ، فضحك منهم وأعجب بهم واستظرفهم (١٦٧) *

عيد النوروز :

وهو أول السنة القبطية في مصر ، وموعده اليوم الأول من
شهر توت ، ومعنى النوروز أو « النوروز » : اليوم الجديد (١٦٨) ،

(١٦٦) — : نفس المرجع ، ص ٦٧ . ٦٨ *

— مقر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ *

(١٦٧) القرينى : اتماظ الحنلا ، ج ٢ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ *

— مقر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ *

— سرود : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، ص ٢١١ *

(١٦٨) الطقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ *

وكان الاحتفال بهذا العيد يأخذ طابع الاحتفالات القومية بمصر ،
لأنه في أغلب الظن من الأعياد والمواسم التي أخذت عن قدماء
المصريين (١٦٦) . وفي هذا اليوم تعطل الأسواق وتقل الحركة
التجارية . ويستعد الناس للاحتفال بالنيروز (١٧٠) .

ومن عطايا احتفال العامة بمصر بيوم النيروز ، أنهم كانوا
ينسحبون رجلا يسمىونه « أمير النيروز » يطل وجهه بالحقين أو
الجبر ، ويضع لحية مستعارة ، ويرتدي ثوبا أحمر أو أصفر ، ومعه
جمع غفير من العامة ، فيتسلط على الناس في طلب رتبة وفي يده
دفتر المحتسب ، فمن لم يدفع الرسم يرش بالماء ممزوجا بالأقذار .
وفي هذا اليوم يجتمع المهنون وأصحاب الملاهي تحت قصر الخلافة
وبأيديهم الملاهي ، وترتفع الأصوات ، ويشرب الناس الخمر والمزور
في الشوارع والطرقات شربا ظاهرا دون حياء ، والعامة يتراشون
بالماء ، وبالماء ممزوجا بالأقذار ، وإن أخطأ مستور وخرج من بيته
لقيه من يرشه بالماء ، ويفسد ثيابه ، ويستخف بجرمته ، قاما أن
يفدى نفسه وأما أن يلقي ما لا يرضيه ، كما يرتكب أهل المنكر
في هذا اليوم كثيرا من المعاصي ، ويخرجون عن حد الحياء والحشمة
إلى الشايف من الفجور والمهور ، وقلما كان ينقضى يوم نيروز إلا وقتل
فيه قتيل أو أكثر لخروج الناس عما هو مألوف ، كما أن رجال
الشرطة كانوا لا يصترضون عما يحدث في هذا اليوم (١٧١) .

(١٦٦) الفريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

(١٧٠) — نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٦٨ .

(١٧١) الفريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٧-٢٦٨ .

— مقارن : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

ولما كان الاحتفال بيوم النيروز يشوبه من المنكرات والفسوق ما يخرج عن الحد ، ويقوق ما يحضن ليلة النطاس من مجون وخلاعة ، قال الخليفة المزمز لدين الله أصدر أمره سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م بالمنع من وقود النيران ليلة النيروز في الطرقات ، ومن صب الماء يوم النيروز (١٧٢) . إلا أنه في سنة ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م ، خرج الناس في الاحتفال بعيد النيروز عن كل ما هو مألوف إذ زاد اللعب بالماء ، وكثر وقود النيران وطاف أهل الأسواق ومعهم الملاحى وخرجوا الى القاهرة بلعبهم وأظهروا السماجات في اللعب بالأسواق ، مما جعل الخليفة المزمز - بعد ثلاثة أيام من استمرار الاحتفال بهذا العيد - أن يأمر بالنداء بالكف عن كل ما يحدث ، وأنزل العقاب بمن لم يمثل لندائه ، فحبس قوم خالفوا أمره ، وأخذ آخرون فطيف بهم كمقاب لهم لغروجهم عما أمر به (١٧٢) .

إلا أنه في خلافة العزيز بالله عاد النصارى للاحتفال بيوم النيروز ويذكر التويرى أنه لسمع خلون من شهر ربيع الأول سنة ٣٧٢ هـ ، كان الاحتفال بهذا العيد ، فاكل الناس الرطب قبل النيروز على عادتهم (١٧٤) .

وفي بداية خلافة الحاكم بأمر الله ، وفي السادس عشر من ربيع الأول سنة ٣٨٨ هـ كان نوروز القرس فأعصى الأتراك وقوادهم وكبار رجال الدولة منهم الى الحاكم بأمر الله كثيرا من الخيل

(١٧٢) المزيلى : انماط الحنك ، ج ١ ، ص ٢٦١ .

(١٧٣) التويرى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٧ .

_____ : انماط الحنك ، ج ١ ، ص ٢٢٤ .

(١٧٤) التويرى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٤٧ ، ٤٨ .

والسلاح . فقبل بعضا من حديثهم ورد الباقي اليهم شاكرًا لهم (١٧٥) .

كما يذكر القريزى أن الحاكم بأمر الله صرح بالاحتفال بيوم النيروز في ذى القعدة من عام ٣٩٥ هـ ، فاحتفل به الناس حسبما جرت به العادة (١٧٦) .

وإذا كان الظاهر لأعزاز دين الله قد صرح بإقامة الكثير من الأعياد الدينية لأهل النمة ، وكذلك المواسم والأعياد القومية ، إلا أنه في تاسع عشر جمادى الآخرة سنة ٤١٥ هـ فرض قيودا على الاحتفال بهذا العيد ، فأمر بأن يضرب في هذا اليوم بالأجراس في آخر النهار ألا يلعب أحد بالماء في يوم النيروز في مدينتي القسطنطين والقاهرة (١٧٧) ، وربما كان دافعه إلى اتخاذ مثل هذا القرار كثرة ما يحدث في هذا اليوم من فسق ومجون .

على أن البصارى احتفلوا كذلك بالعديد من المواسم والأعياد سوى ما تقدم ، لكنها كانت عنهم من المواسم العادية ، وقد أحصى الفلقشندي منها مائة وثمانية وسبعين عيدًا وموسمًا موزعة حسب ترتيب الشهور القبطية . كما ألفرد أقباط مصر بالاحتفال ببعض هذه الأعياد والمواسم حسبما جرت به العادة (١٧٨) .

(١٧٥) القريزى : اتماع الصفا ، ج ٢ ، ص ١٨ .

النيروز أول سنة الفرس . وهو الرابع من شهر آذار وجرى فيه العادة أن يهدى العيد للمادة . (القريزى . المخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٧ ، الفلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

(١٧٦) القريزى : اتماع الصفا ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

(١٧٧) ————— : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٩ .

(١٧٨) الفلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٠ - ٤٢٥ .

١ - عيد اليهود :

وإذا كان تصارى مصر يحتفلون بالعديد من اعيادهم الدينية ، فان يهود مصر قد احتفلوا أيضا بالعديد من اعيادهم الدينية ومنها :

١ - عيد رأس السنة اليهودية :

ويسمونه بالعبرية عيد « رأس هيشا » أى عيد رأس الشهر ، وهو فى اليوم الأول من شهر تشرى أحد الشهور اليهودية وهو عندهم بمنزلة عيد الاضحى عند المسلمين ، ويقولون فى ذكره أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ابراهيم عليه السلام بذبح ولده اسماعيل ، فلما امتثل الاثنان لأمر الله ، فدا الله اسماعيل بذبح عظيم (١٧٩) ، ويعتبر هذا العيد أيضا عيد عتق وحرية عند اليهود لخلاصهم من فرعون ، ويذكر المقررى أنه عيد البشارة بعتق الأرقاء (١٨٠) ، ومن مظاهر الاحتفال بهذا العيد عند الربانيين أنهم ينفخون فى الأبواق أثناء اقامتهم للصلاة فى المساجد ، بناء على تفسيرهم لبعض النصوص الواردة فى التوراة بشأن هذا العيد ، لما القراون فيقومون بالصلاة والتهليل حمدا وشكرا لله لأنه يوم عتق الأرقاء (١٨١) .

٢ - عيد صومعري :

ويسمونه (الكبير) ، ومعناه عيد الفخران أو الاستغفار (١٨٢) ، وربما سموه الصامور ، وهو فى اليوم العاشر من شهر تشرين اليهودى ، ويقولون أنه فى هذا اليوم قرض الله الصوم الكبير على اليهود (١٨٣) ، وعنده عند القرائين أربعة وعشرون

(١٧٩) القسطنطين : المسند السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

(١٨٠) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

(١٨١) قسم عيده : الرجوع السابق ، ص ١٢٧ .

(١٨٢) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

(١٨٣) القسطنطين : المسند السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

ساعة ، ويبدأ الصوم من اليوم التاسع من شهر تשרين قبل غروب الشمس الى ما بعد غروبها في اليوم العاشر ، أما الربانيون فيجعلون مدة هذا الصوم خمسة وعشرين ساعة (١٨٤) ، ويشترط اجواز الافطار رؤية ثلاثة كواكب عند الافطار (١٨٥) ، وتشهد السامرة في صيام ذلك اليوم ، فلم يستثنوا منه الاطفال الرضع ، ويعتقد اليهود ان هذا الصوم هو تمام الأربعة الثالثة التي صامها موسى عليه السلام (١٨٦) ، ومن لم يصم منهم هذا اليوم يقتل شرعا طبقا للشريعة اليهودية ، وعند الربانيين لا يجوز ان يقع هذا الصوم في يوم الأحد ، وفي يوم الثلاثاء ، ولا في يوم الجمعة . ويعتقد اليهود أن الله سبحانه وتعالى يفر لهم في هذا اليوم جميع ذنوبهم ما خلا الزنا بالمحسنة ، وظلم الرجل أخاه ، وجعله يورثه الله عز وجل (١٨٧) .

وفي هذا اليوم ينقض اليهود عهدهم ومواثيقهم التي قطعوها على أنفسهم لغير اليهود ، كما يأكلون الديون التي عليهم لغير اليهود ، مما أدى الى معارضة بعض فقهاء اليهود في العصر الحديث لتلك المزاعم (١٨٨) .

٣ - عيد الفطلة :

ويكون الاحتفال به في اليوم الخامس عشر من شهر تشرى ، وهو سبعة أيام كلها أعياد عندهم ، وهو فرصة على المقيم دون

(١٨٤) المقرئ : القطط . ج ٢ . ص ٤٧٢ .

(١٨٥) للفقهاء : المصدر السابق . ج ٢ . ص ٤٣٦ .

(١٨٦) قاسم حبه : المرجع السابق . ص ١٤٨ .

(١٨٧) للفقهاء : المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

~ المقرئ : القطط . ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

(١٨٨) قاسم حبه : المرجع السابق . ص ١٤٨ .

المسافر (١٨٩) ومن مظاهر هذا العيد أنهم لا يخرجون من بيوتهم - كما هو يوم السبت - ، وفي اليوم الثامن يحتفلون بعيد يقال له عيد الاعتكاف (١٩٠) ، وفي تلك الأيام السبعة التي أولها خامس عشر تشرى يجلسون تحت سقف النخيل الأخضر وانحسان الزيتون . وسائر الأشجار التي لا يتساقط ورقها ، ويرون أن ذلك تذكارا منهم لظلال الله أباهم في التيه بالضم (١٩١) ، ويصوم القراون في اليوم الرابع والعشرين من هذا الشهر ، ويصرف هذا الصوم بصوم كداليا ، وعند الريانيين يكون هذا الصوم في ثلثه (١٩٢) .

ويرى البعض أن هذا العيد يرجع الى اصول ذراعية ودعوية . استنادا الى أن أسماء هذا العيد بالعبرية = جح ها اسيف ، أى « عيد التخزين » (١٩٣) .

٤ - عيد الفطير :

وهو رابع الأعياد الشرعية عند اليهود ، ويسمى أيضا « عيد الفصح » ، ويكون في الخامس عشر من نيسان ، وهو من أجل الأعياد عند اليهود (١٩٤) ، ومدة الاحتفال به عند القرائين سبعة أيام ، وثمانية عند الريانيين ، أما عند السامرة فمدته ستة أيام (١٩٥) ، وفي أيام هذا العيد يأكلون الفطير ، وينظفون بيوتهم فيها من خبز الخمير (١٩٥م) ، إذ يعتقدون أنه في هذه الأيام خلص

(١٨٩) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٨٩ .

(١٩٠) المزيدي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

(١٩١) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ ، ٤٣٧ .

(١٩٢) المزيدي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

(١٩٣) قسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٤٨ .

(١٩٤) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٧ .

(١٩٥) قسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

الله فيه بنى اسرائيل من يد فرعون واغرقه ، فخرجوا الى التيه (الصحراء) يأكلون اللحم والخبز والقطير ، فامروا باتخاذ القطير واكله في هذه الايام ، ويمتقنون انه في آخر هذه الايام كان غرق فرعون في البحر (١٩٦) ، ويعتبر هذا العيد عند اليهود من اعياد التضحية ومواسم الحج (١٩٧) .

♦ - عيد الأسابيع :

وهو خامس الأعياد الشرعية عند اليهود ، ويسمى ايضا « عيد المنصرة » و « عيد الخطاب » ، وموعده بعد عيد القطير بسبعة أسابيع ، في اليوم السادس من شهر سيوان من شهور اليهود ، وهو الثالث والمشرون من يقسم من شهور القبط (١٩٩) ، ولا يكون هذا العيد عند الريانيين أبدا يوم الثلاثاء ، ولا يوم الخميس ، ولا يوم السبت (٢٠٠) ، على أن القرائين لا يتقبلون بذلك (٢٠١) ، ويمتد اليهود انه في هذا اليوم خاطب الله فيه بنى اسرائيل من طور سيناء مع موسى عليه السلام ، وترلت على بنى اسرائيل فيه الفرائض (٢٠٢) والوصايا المشرة (٢٠٣) ، كما استمعوا فيه الى كلام الله تعالى من الوعد والوعيد (٢٠٤) .

(١٩٦) أبو الفدا : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٨ .

(١٩٧) ابن الوردي : تلعة المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٧٧ .

(١٩٨) عيده قاسم : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

(١٩٩) للقطندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .

(٢٠٠) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

(٢٠١) قاسم عيده : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٢٠٢) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

(٢٠٣) للقطندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .

(٢٠٤) أبو الفدا : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٨ .

- ابن الوردي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٧ .

ومن مظاهر الاحتفال بهذا العيد ، أنهم كانوا ياكلون فيه القطائف ، ويتفتنون في صنعها ، ويحصلونها بدلا من المن الذي أنزله الله عليهم في هذا اليوم ، ويسمى هذا العيد بالعبرية « عشترا » ومعناه « الاجتماع » وهو من مواسم حجهم (٢٠٥) .

ولليهود أعياد أخرى لكنها مستحدثة ، ويستقنون أن التوراة نصت عليها ، وهما : عيد الفوز ، وعيد الحنكة (٢٠٦) .

١ - عيد الفوز :

وهو عندهم عيد مرور ولهو وخلاعة ، كما يتسادلون فيه الهدايا ، ويكون الاحتفال به في اليوم الرابع عشر من شهر آذار ، ويسبقه في الثالث عشر من هذا الشهر صوم يسمى « صوم أستير » .

ولذلك رواية مؤداهما أنه بعد تدمير بيت المقدس على يد بختنصر سنة ٥٨٦ ق.م ، نقل اليهود من فلسطين الى بابل ، وأثناء اقامتهم هناك وقع كسرى القرس « أكر كسيس » والمعروف عند المؤرخين العرب باسم « أردشير بن بابك » في غرام فتاة يهودية - من أحسن أهل زمانها وأكملهم عقلا - ابنة حبر يهودي يسمى مردوخاي ، ولما تزوج كسرى من الفتاة أصبح لليهود مكانة مرموقة ونفوذا كبيرا ، مما أثار حقد هامان الوزير الفارسي الذي صمم على استئصال شافة اليهود وانهاء وجودهم في بلاده ، فدير مؤامرة ضدهم ، وحلّد اليوم الثالث عشر من شهر آذار موعدا لتنفيذها غير أن أستير زوجة كسرى اليهودية علمت بالمؤامرة قبل وقوعها ، ونقلت تفاصيلها الى كسرى ، وأوعزت اليه بقتل وزيره هامان ، فقتله ، وأمر بخلاعة اتباع الوزير وقتلهم ، ثم كتب لليهود عيدا بالأمان والبر والاحسان في هذا اليوم . لهذا اتخذ اليهود من الثالث

(٢٠٥) القسطنطيني : المنبر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٧ .

(٢٠٦) ——— : طعن الجبر وليس المطبوع .

عشر من آذار عيدا ، ويصومون قبله ثلاثة أيام شكرا لله تعالى . وجعلوا بعده يومين التخلوعا أيام قرح وسرور ، كما يتبادلون فيها الهدايا ، ومن مظاهر الاحتفال أيضا بهذا العيد ، انهم كانوا يعملون تماثيل من الورق رمزا للوزير هامان ، ويملأونها نخالة وملحاً ويلعبون بها ، ثم يلقونها في النار لحرقها (٢٠٧) .

٢ - عيد العنكة :

ومعناه التنظيف ، وهو ثاني الأعياد اليهودية المستحدثة ، ويحتفل به الربانيون ثمانية أيام أولها الخامس والعشرون من شهر كسلو اليهودي ، يوقدون في الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجا ، وفي الليلة الثانية سراجين ، وهكذا الى أن يسرجوا في الليلة الثامنة ثمانية سروج (٢٠٨) ، ومناسبة هذا العيد ترجع الى سنة ١٦٥ ق.م عندما كانت بلاد الشام تحت حكم البطالة ، وحاول انتيوخوس آبيفانيس ارغام اليهود على عبادة الأصنام ، الا أن كاهنهم الأكبر المسمى « مناتيا » قاومه مقاومة شديدة مع أبنائه الثمانية ، واستطاع ابنه الأصغر « يهوذا » استعادة الهيكل من جيوش البطالة ، وفي الخامس والعشرين من شهر كسلو حطم « يهوذا » التماثيل الاغريقية التي كانت بالهيكل ، وزود « مناتيا » وابنه « يهوذا » الهيكل بمذبح جديد ، وفتح الهيكل لممارسة الشعائر الدينية (١٠٩) ، غير أنهم لم يجهزوا الزيت الكافي

(٢٠٧) التلغيم : السفر للسابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٩ .

ـ تلغيم جديد : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٢٠٨) أبو لقدا : السفر للسابق ، ج ١ ، ص ٨٩ .

(٢٠٩) تلغيم عيده : المرجع السابق ، ص ١٦١ .

لاضامة الهيكل ، فوزعوا ما عندهم من الوقود اليسير على عدد
المصاييح التي يوقدونها على أبواب دورهم في كل ليلة الى تمام ثمان
ليال ، فاتخذوا هذه الأيام عيداً وسموه « الحنكة » وهو كلمة
عبرية تعنى التنظيف ، لأنهم نظفوا فيه الهيكل من تماثيل الآلهة
الوثنية (٢١٠) - على أن القرائن لا يمتثلون بهذا العيد (٢١١) -

(٢١٠) التلمذون : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٩ .

(٢١١) القرينى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٤ .

- وتذكر بعض الروايات أن أحد الحكام اليونانيين تغلب على بيت
المقدس ، وفكك بظهوره ، واقتضى أبقار من قبل الامعاء الى أزواجهن ، وكان
لرجل من اليهود ثمانية بنين وبنات واحدة ، وخاف اليهود على ابنته التي سوف
تتزوج ، وحرص عليه على قتل تلك الحكمة ، فاحتال أسفروهم عليه وقتله ، فلوح
بلى لمرثيل بذلك ، واتخذوا من ذلك اليوم عيداً في ثمانية أيام تتكاثرا الاخوة
الثمانية (أبو الفدا : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٩) .

(ب) سياسة الفاطميين الدينية إزاء أهل النعمة

— موقف الخلفاء الفاطميين إزاء رجال الكنيسة المسيحية —

تمتع أهل النعمة في مصر بسياسة التسامح الديني التي سار عليها الخلفاء الفاطميون في العصر الفاطمي الأول — باستثناء فترة من عصر الحاكم بأمر الله — ونصروا بحرية ممارسة شعائرهم الدينية انطلاقاً من مبدأ حرية العقائد الدينية لأهل النعمة .

فالخليفة المعز لدين الله الفاطمي — بإجماع المصادر النصرانية — كان متسامحاً في سياسته الدينية بوجه عام إزاء أهل النعمة ، ومع النصاري بوجه خاص ، إذ لم يتدخل في الشؤون الداخلية الخاصة بالكنيسة ، علاوة على أنه أقام علاقات وطيدة مع رجالها .

فحينما توفي الأنبا مينا ، البطريرك الحادي والستين للكنيسة القبطية ، اجتمع أساقفة الكنيسة وأعيان القبط سنة ٣٦٦ هـ / ٩٦٨ م لانتخاب خلف له من بينهم ، « ووقع اختيارهم على ثابجر موري اسمه إبراهيم بن ذوعة — الذي اشتهر بتقواه وعلمه — ، ورسوه بطريركاً باسم الأنبا إبراهيم السوريلاني » . ليكون البطريرك

الثاني والمتمين للكنيسة القبطية - ولم يتعرض الخليفة للمز
لدين الله على هذا الاختيار - بل نشأت بينه وبين البطريرك الجديد
صدقات طيبة وكان يستدعيه الى مجلسه بقصر الخلافة ، ويستقبله
بإكرام واحترام بالقي ، كما كان البطريرك ابراهيم محل تقدير
واحترام كبار رجال الدولة الفاطمية ، مما كان له الأثر الطيب في
العلاقة بين الدولة والكنيسة ، كما أثار حقد رجال الدولة من اليهود
الذين كانت لهم صلة وثيقة بقصر الخلافة (٢١٢) .

وكان الخليفة المز لدين الله يستدعي الى مجلسه بعض كبار
الدين المسيحي واليهودي حيث كانت تجري بينهم وبين بقية
المجالس من المسلمين مناقشات دينية ، وفي هذه المجالس التي
كان يفتتحها في قصره تدهعت العلاقات الطيبة بينه وبين رؤساء
الطوائف الدينية من أهل الامة ، ونشأت صدقات بينه وبينهم
صبغت روح التسامح الديني التي تحل بها (٢١٣) .

اما العزيز بالله الفاطمي فقد شمل أهل الامة جميعا برعايته
وعطفه (٢١٤) فضلا عن أنه قلده للناصب العليا في الدولة لكبار
رجال أهل الامة من اليهود والنصارى دون أن يكره أو يشترط
على أحد منهم اعتناق الاسلام ، كما كانت علاقته برؤساء الطوائف
الدينية لأهل الامة ، وخاصة المسيحية ، في أحسن حالاتها ، اذ
كان للعزيز بالله - وكما سبق أن أوضحنا - زوجة نصرانية على

- (٢١٢) ابن البهاقي ، تاريخ ابن الراسي ، ص ١٩٠٢ ، ص ١٢٢ .
- ساديس : تاريخ بطريركة الكنيسة المصرية ، قصة عزيز سوريال وآخرون ،
الجلد الثاني ، ج ٢ ، ص ١٥٥ .
(٢١٣) انكبا حيفاتيل (تصانق قروب) : الصلحساري ، ج ١ ، ص ١٢٧ .
(٢١٤) الطروطلي : مصر العربية الاسلامية ، ص ١٦٠ .

الملهي المكناني ، أنجب منها ابنته المعروفة بسمت الملك ، وكان لهذه الزوجة النصرانية وابنتها نفوذ كبير في قصر الخلافة . فقد كان العزيز بالله يعمل بمشورتهما مما أدى الى استفحال نفوذ رجال الكنيسة المكنانية واتباع المنصب المكناني في مصر . فقد تسهل العزيز بالله في الشئون الخاصة بالكنيسة المكنانية ، وأصدر قراراً في رمضان سنة ٣٧٥ هـ بتعيين صهره أرسطيس خال ابنته ست الملك بطريركا على بيت المقدس ، كما عين صهره الثاني أرسانيوس (أرسانيس) بطريركا للملكانية على القاهرة ومصر ، وطبيعي أنه كان للرجلين نفوذهما المؤثر في دار الخلافة وإدارة الدولة ، فازدهر حال الكنيسة للملكانية في عهده ، واستبد أهل تلك الطائفة بشئون البلاد . كما عالى النصارى اليحاقبة والكنيسة القبطية من استفحال هذا النفوذ فقد حاول أرسانيوس مستغلا قرابته للعزيز بالله الاستيلاء على كنيسة المعلقة والسيدة العذراء بقصر الفسح بالفسطاط ، وحدث نزاع خطير بين رؤساء الكنيستين ، أنهىه الخليفة العزيز بالله لصالح المكنانيين ، بأن أخدت الملكانية كنيسة السيدة العذراء وتسلمها أرسانيوس ، بينما بقيت كنيسة المعلقة للأقباط اليحاقبة (٢١٥) ، غير أن الأقباط استطاعوا استرداد كنيسة السيدة العذراء من الملكانية بعد وفاة العزيز بالله (٢١٦) .

ولم يتدخل الخليفة الحاكم بأمر الله في الشئون الداخلية الخاصة بالكنيسة القبطية ، مثال ذلك أنه لم يتدخل في عام ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ م في انتخاب بطريرك اليحاقبة (٢١٧) . إلا أنه

(٢١٥) الأقبا ميخائيل : سر السيمة المعلقة ، ج ٢ ، ورقة ٥١ .

— الاتطاكى : المصدر السابق ، ج ١٦٤ ، ص ١٦٥ .

— المتروني : المخطط ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ .

(٢١٦) رؤوف حبيب : كنائس القاهرة القبطية القديمة ، ص ٤٤ .

(٢١٧) المروزي : المخطط ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ .

اتخذ موقفا متشككا من الاتبا زخاريا البطريك الرابع والمستن :
 اذ أمر بحبسه واعتقاله لمدة ثلاثة شهور ، ثم رمية للسباع الجائعة
 التي لم تفره . طبقا لما ذكرته الرواية الكنسية - وكان ذلك بسبب
 وشاية أحد الرهبان القبط - ويدعى يونس الراهب - ، كان حاقدا
 على البطريك زخاريا الذي رفض أن يرسمه أسقفا ، فقابل الراهب
 المذكور الخليفة الحاكم بأمر الله ، وشكى اليه سوء سياسة البطريك
 فيما يتعلق بأمور الكنيسة الخاصة ، وبيعه للوظائف الدينية ،
 وما يتمتع به البطريك من النفوذ والجاه والسلطان على أبناء ملته ،
 وما تحت يديه من الثروة والأموال الطائلة ، ثم عرض على الحاكم
 بأمر الله رسالة قال فيها : « أنت ملك الأرض ، ولكن المنصاري
 ملك لا يعسا بك » : لكثرة ما كنز من الأموال الجزيلة ، لأنه يبيع
 الأسقية بالمال (٢١٨) وعدد الراهب للحاكم مطالب البطريك ،
 ومساوي مماوية من رجال الكنيسة مما أوغر صدر الحاكم بأمر الله
 على البطريك ، وأثار غضبه ، ودفعه الى اتخاذ موقف متشدد ازاء
 أهل النمة الذين استنحل أمرهم في النولة ، فأصدر خدعهم العديد
 من القرارات والقيود التي اتسمت بالصرامة والعنف في المدة من
 ٣٩٥ هـ الى ٤٠٥ هـ / ١٠٠٤ - ١٠١٤ م . وفي تلك الفترة لحق
 بالكثير من أهل النمة ضرر بالغ لم يالفوه من قبل (٢١٩) .

أما بالنسبة لموقف الحاكم بأمر الله من رؤساء الطائفة المملكانية ،
 فإن الانطاكى يذكر أن ارمانتيوس بطريك المملكانية قد قتل سرا في
 ذي القعدة سنة ٤٠٠ هـ ، دون أن يشير الى قاتله أو الى ظروف
 الحادث (٢٢٠) . وقد ظل منصب بطريك المملكانية بمصر شاغرا
 طوال بقية خلافة الحاكم بأمر الله (٢٢١) .

(٢١٨) الاتبا عيضاكي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥٦ .

(٢١٩) — : نفس المصدر ، ج ٢ ، ورقة ٦٦ - ٥٩ .

(٢٢٠) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١١٧ .

(٢٢١) عليج : الحاكم بأمر الله ، ١٠٢ .

إلا أن الحاكم بأمر الله كان له يد في اختيار بطريرك الروم المكاينة ببيت المقدس ، فبعد وفاة ثاوفيلس بطريرك المكاينة بالقدس في رمضان سنة ٤١٠ هـ ، تقدم إليه قس من طائفة الروم المكاينة اسمه تقفور - وكان يعمل نجارا بقصر الخلافة - ، والتحق منه تعيينه بطريرك على بيت المقدس ، فأجابته إلى ملتصقه (٢٢٢) . كما أعطاه بعد ذلك سجلا في جمادى الآخرة سنة ٤١١ هـ بحماية الكنائس والأديرة الباقية هناك مع إطلاق الحرية الدينية في كافة دور العبادة في بيت المقدس (٢٢٣) .

ولم يتعرض الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله لرجال الدين من أهل اللمة بما يسى إليهم ، كما لم يتدخل في الإجراءات الخاصة بانتخاب البطاركة فعند خلا كرسى بطريركية الروم المكاينة بالاسكندرية بوفاة أرسانيوس سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م وظل المنصب شاغرا إلى أن اجتمع قساوسة وأماقف الكنيسة المكاينة بمصر ورسوا في ذي الحجة سنة ٤١١ هـ الأنبا جورجيوس - أحد رهبان دير طور سيناء - بطريركا لهم ، وباركت سميت الملك - ذات النفوذ القوى في قصر الخلافة - هذا الاختيار ، وأرسلت إلى البطريرك الجديد هدايا قيمة من الثياب الديباج والمصاحف والتحف الفضية الثمينة التي كانت عندها لخالها أرسانيوس البطريرك السابق (٢٢٤) .

كما أنه بعد وفاة الأنبا زخاريا البطريرك الرابع والستين للكنيسة القبطية ، طمع بعض كبار رجال الكنيسة في اعتلاء كرسى البطريركية ، وحاولوا أن يتولوا هذا المنصب الدينى الرفيع عن طريق تدخل السلطة ومساعدتها ، إلا أن الوزير على بن أحمد

(٢٢٢) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .

(٢٢٣) — : نفس المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .

(٢٢٤) — : نفس المصدر ، ص ٢٣٧ .

الجرجى الى (ت ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م) ، الذى كان يسيطر على امور الدولة والذى كان يحب التصارى ويحلف عليهم ، رفض التدخل فى اختيار بطريرك اليقاقية الجديد - كما قرر أن تتنازل الدولة عن مبلغ الثلاثة آلاف دينار التى كان يدفعها البطريرك الجديد رسماً الى بيت المال - كرامة للتصارى - ، غير أنه اشترط على أساقفة الكنيسة القبطية وأعيان القبط أن تسيّر اجراءات انتخاب البطريرك الجديد فى نزاهة وحيدة تامتين وفقاً لما هو متبع فى هذا الشأن - ولقد تم اختيار الأنبا سايونين البطريرك الخامس والستين للكنيسة القبطية سنة ٤٢٦ هـ ، بنون أدنى تدخل من دار الخلافة (٢٢٥) .

كما كانت العلاقات الطيبة بين قصر الخلافة والكنيسة القبطية هى السمة الغالبة فى السنوات الأولى من عهد المستنصر بالله ، الى أن كانت وزاوة اليازورى .

فى أثناء وزارته سمعت العلاقات بينهما ، حينما اتهم البطريرك خريستوذولوس البطريرك السادس والستين بتعريض ملك النوبة على عدم الوفاء بالتزاماته نحو الخليفة المستنصر بالله ، فالتقى القبض على البطريرك ودخل الى القاهرة مع الزامه بدفع غرامة مالية كبيرة . غير أن « عبد الفتوة » متولى منطقة مصر السفلى توسط لدى اليازورى لتفراج عن البطريرك ، وأخذ منه تصريحاً بإطلاق سراحه فى الحال (٢٢٦) .

ومرة أخرى تعكر صفو العلاقة بين الدولة والكنيسة القبطية ، عندما تراسى الى مسامح اليازورى - عن طريق أبى الحسين الصيرفى الذى كان قاضياً بالاسكندرية - أن الأنبا خريستوذ ولوس قد اتخذ من بلدة « دمرو » مقراً له ، وأن تلك البلدة أصبحت بمثابة

(٢٢٥) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٦٣ .

(٢٢٦) جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

قسطنطينية ثانية ، وأن البطريك شيد فيها قصرا دائما لنفسه ، واحاط نفسه بظاهر العظمة والأبهة ، بجانب كثرة الكنائس التي استحدثها ووجد عمارتها في القرى المحيطة بها ، وأنه كتب على أبواب تلك الكنائس عبارات سب للإسلام والمسلمين ، فما كان من اليازوري إلا أن أرسل من رجاله من يتقصى الحقيقة ، ثم فرض على البطريك والأساقفة غرامات مالية فادحة ، طولبوا بسرعة سدادها ، فاضطر البطريك الى طلب المساعدة المالية من ملك النوبة الذي استجاب لمساعدته (٢٢٧) .

(٢٢٧) الأتيا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٧٩ ، ٨٠ .
(وانظر فيما بعد فليبي الرابع ، ص ٨)

القيود التي فرضت على دور الصلاة لأهل النعمة

الكنائس المسيحية :

يرى السيد توماس أرنولد في كتابه « الدعوة إلى الإسلام »
في معرض حديثه عن سياسة التمساح الديني التي لعمري بها أهل
النعمة في مصر في عصر الفاطميين أن « السلطة المدنية أباحت للقيود
أن يبنوا كنائس في القاهرة - العاصمة الجديدة - » كما منحه
للمسيحيين أن يؤسسوا في بعض المدن الأخرى كنائس وأديرة
جديدة » (٢٢٨) . هذا فضلا عن السماح لهم بتجديد عمارة الكنائس
القديمة .

لتمت مظلة التمساح الديني ، انتهز البطريرك إبراهيم
المسورياني - البطريرك الثاني والمنتون للكنيسة القبطية - مهلة
الوطيلة بالخليفة المعز لدين الله ، والنس منه تولى عمارة كنيسة
القديس مرقوريوس المعروف بأبي سيفين بالفسطاط ، وكذلك
الكنيسة الملحقة بقصر النسخ ، فأنشأ له المعز بيته الكهنة ، كما

(٢٢٨) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم وجوه المجمع
حلبين ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٧ م ، ص ٨٨ .

قام البطريرك المذكور ببناء وترميم كثير من الكنائس بالإسكندرية ومناير أنحاء مصر . ولما اعترض بعض مشايخ المسلمين وعامتهم على قيام النصارى ببناء الكنائس الجديدة وترميم غيرها ، أمر الخليفة المعز بتوفير الحراس لحصاية وحراسة العمال والبنائين الذين يعملون في البناء حتى يستكملوا ما بدأوه . وكان هذا تحديا لمظاهر الغضب والسخط لشاعر علمة المسلمين (٢٢٩) .

لكن المصادر النصرانية استغفلت هذا التسامح الديني الذي أغدقه المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بمصر على النصارى ، وتصريحه لهم ببناء وتجديد وتعمير وترميم الكنائس والأديرة ، فذهب بها الادعاء الى أن تزعم أن المعز لدين الله في أواخر أيامه ، ارتد عن الاسلام ، واعتلق النصرانية ، وليس ذى الرحبان وظل على نصرانيته الى أن دفن في كنيسة أبى سيفين بالفسطاط (٢٣٠) .

وترجع تلك المصادر النصرانية هذا الزعم الى أسطورة خلاصتها : أنه حدث في مجلس الخليفة المعز لدين الله جدل ديني بين البطريرك ابراهيم السورباني ومن معه ، وبين بعض اليهود يوازيهم يعقوب بن كلس ، انتهى لصالح البطريرك وجاعته . فما كان من ابن كلس الا أن أومز الى الخليفة المعز بأن يتمتع ايمان النصارى قائلا له : ان انجيلهم يقول : « لو كان لكم ايمان مثل حبة خردل ، لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينقل » . فما كان من المعز الا أن طلب من البطريرك نقل جبل المقطم . وكفى الأسطورة لتؤكد أن الرحبان والكهنة اجتمعوا عند جبل المقطم ، وقاموا بالصلوات والابتهاالات فحدثت زلزلة شديدة

(٢٢٩) الألبا ميشعل : المعز السابق ، ج ٢ ، ورقة ٨٢ ، ٨٤ .

(٢٣٠) عثمان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، الطبعة الاولى

صفحة ١١٣١ ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

تشقّق لها جيل المقطم ، فأكرم الخليفة المعز البطرك وإجابته إلى طلبه بشأن التصريح له بتجديد وتعمير وترميم ما التمسّه من كنائس وأديرة (٢٣١) .

ولقد تصدّى الأستاذ عبد الله عنان للرد على تلك الأسطورة . وفضّلها فنقضها من أساسها ، وأثبت بطلان دعواها (٢٣٢) .

وفى خلافة العزيز لدين الله استغل أهل القمّة تسامحه وعطفه عليهم ومساندة زوجته النصرانية - الملكانية المذهب - لهم ، فقام بطريرك الاقباط بإصلاح الكنائس المهتمة وبناء غيرها (٢٣٣) . بل إن العزيز بالله أمر بتوفير الحماية للمبشرين النصرانيّين الذين يقومون بعمليات تعمير وترميم الكنائس ممن يعترض عليهم من المسلمين (٢٣٤) .

غير أن بعض الكنائس تعرضت فى سنة ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م لنضوب عامة المسلمين بماصمة الخلافة ، ففى هذا العام قرر الخليفة العزيز الخروج لجهاد الروم ، وببدا الجيش على أهبة الاستعداد للتحرك ، اذا فطع الاسطول الفاطمى الراسية فى ميناء القدس تتعرض لحريق منصر . أتى على مقلتها ، فأتهمت الرعية تجار الروم الواردين بالبضائع الى مصر ، فقتلوا منهم حوالى مائة وستين ، ثم هاجمت العامة والمفاربة كنيسة القديس ميخائيل التى للملكانية بقصر القصر كما نهبت كنيسة النسطورية . الا أن العزيز أنزل الطاب الصارم

(٢٣١) الألبا ميخائيل ، المسمر الصليبي ، ج ٢ ، لؤلة ٤١ ، ٤٤ .

- الألبا ميخائيل : (اسكف اتروب) لستسار ، ج ١ ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

- سنيكة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٨٨ .

(٢٣٢) هنان : عصر الاستلحية وتاريخ الخطط المصرية . ص ٧٨ - ٨٥ .

(٢٣٣) أبو حنّال : المسمر الصليبي ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٢٣٤) أبو صالح الأرميني : المسمر الصليبي ، ص ٢٦ .

بالمسلمين الذين اشتركوا في قتل الروم ونهب الكنائس ، وأمر
يرد ما أخذ من ممتلكات الكنائس اليها (٢٣٥) .

وهكذا يتضح مما سبق أن الخليفين المزم والمزير قد صرحا
بتفريم الكنائس ، وهذا ما يتفق مع ما يسمى بالشروط العمرية
فيما يتعلق بالكنائس ، إلا أنهما صرحا أيضا بإقامة وبناء الكنائس
الجديدة بالقاهرة وبالأقاليم ، وهذا ما لا يتفق مع الشروط العمرية
التي حرمت بناء الكنائس الجديدة لأهل الذمة ، فخالفا بذلك
ما اتفق عليه جمهور المسلمين .

لكن الخليفة الحاكم بأمر الله كان صارما في تنفيذ ما جاء
بالشروط العمرية فيما يتعلق بدور العبادة الخاصة بأهل الذمة ،
بل زاد عليها ، فأمر بهدم الكثير من الكنائس في فترة سياسته
المتشددة إزاء أهل الذمة .

ففي سنة ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ م كان الاحتكاك الأول بين الخليفة
الحاكم بأمر الله وبين النصارى فيما يتعلق بتجديد الكنائس . ففي
تلك السنة شرع أبو منصور الزيات الكاتب النصراني - اليعقوبي
المنهجي - بحج تجديد كنيسة قديمة متلزمة بظاهر الفسطاط ، في
الموضع الذي عرف بعد ذلك براشفة ، مما أثار غضب عامة
المسلمين . ولما علم الحاكم بأمر الله بذلك أمر بهدم الكنيسة فهدم
عامة المسلمين ما ينهونها . وأمر الحاكم بأمر الله بأن يقبض مكانها
مسجد جامع عرف بجامع راشفة ، وبدى في عمارته في ربيع الآخر
سنة ٣٩٣ هـ ، ولما رأى توسعة الجامع أزيلت مقابر اليهود والنصارى
التي كانت ملاصقة له لاستكمال بنائه (٢٣٦) . كما هدمت في

(٢٣٥) التلخيص : المصدر السابق : ج ١٧٨ ، ص ١٧٩ .

(٢٣٦) التلخيص : المصدر السابق : ج ٢٦ ، ص ٥٢ .

سنة ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣ م كنيستان كانتا بجوار الجامع (٢٣٧) احدهما لليعاقبة والاخرى للنسطورية . وبني الحاكم بأمر الله في موضعهما مسجدين للمسلمين . وشمل الهدم أيضا كنيستان للملكانية كانتا بحارة الروم بالقاهرة (٢٣٨) .

وفي رجب سنة ٣٩٧ هـ ، أمر الحاكم بأمر الله بمصادرة كل ما هو محبس على الكنائس من أملاك وعقارات وجعله في الديوان . وكتب الى سائر الأعمال بذلك ، كما أحرق العديد من الصلبان على باب الجامع العتيق بالفسطاط (٢٣٩) ثم تلاه مرسوم آخر في رجب سنة ٣٩٨ هـ بمصادرة لوقاف الكنائس الحديثة والعتيقة بمصر خاصة دون غيرها من اقاليم الدولة وجعلها باسمه في الديوان (٢٤٠) .

ثم كان آخر مرسوم أصدره الحاكم بأمر الله ، وهو الخاص بهدم كنيسة القيامة ببيت المقدس . وعلى الرغم من أن بعض المصادر العربية ترجع تاريخ هدم كنيسة القيامة الى أواخر عام ٣٩٨ هـ / ١٠٠٨ م (٢٤١) ، إلا أن الرواية النصرانية الماصرة تحدث سنة ٧٢٧ للشهداء وهي توافق سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م تاريخاً لهذا السجل التخليد (٢٤٢) .

(٢٣٧) القريزي : اتمام الحنكا ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

Stern : Op. cit., p. 18-17.

(٢٣٨) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(٢٣٩) القريزي : الخط ، ج ١ ، ص ٢٦٢ ، ٢٨٦ .

(٢٤٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(٢٤١) الكائنس : (الخيل ، ص ٦٦) ، ابن الجوزي (المنتظم ، ج ٢ ،

ص ١٢٩) ، سبط بن الجوزي (مائة الزمان ، ج ١١ ، ورقة ٢٠٤) ، القريزي

(اتمام الحنكا ، ج ٢ ، ص ٧٥) للجنى (عقد الجملات ج ١٩ ، ورقة ٤٤) .

هذان (الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٦) .

(٢٤٢) الألبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٦٠ .

— الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

ولقد ألقت تلك الرواية النصرانية المعاصرة الضوء على ظروف الحادث والأسباب التي دفعت الخليفة الحاكم بأمر الله إلى اتخاذ هذا القرار ، ويروي الأتبا ميخائيل أنه عندما غضب الحاكم بأمر الله على الأتبا زخاريا بطريرك البساقية أمر بإغلاق الكنائس أولا ، ثم القبض على البطريرك واعتقاله وحجسه ، كما سبق أن أوضحنا ... وفي ثاني يوم لاعتقاله أمر الخليفة كاتب السجل النصراني النسطوري المعروف بابن شترين ، بأن يكتب إلى الشام بهدم كنيسة القيامة بالقدس ، وجاء في السجل « خرج أمر الإمامة إليك ، فاهضم قسامة ، فاجعل صماتها أرضا ، وطولها عرضا » (٢٤٣) ، فقام وإلى الرملة (فلسطين) بإرسال رجاله وأمرهم بمصادرة كل ما في الكنيسة من الذخائر والتحف والآنية المقدسة ، واحتاطوا على كل محتوياتها ، كما هدمت مباني الكنيسة إلا ما ظهر منه ، وأزيلت كنيسة ماري قسطنطين وكل ملحقاتها ، ولم يبق من الآثار المقدسة بكنيسة القيامة سوى أثر الصخرة التي شيد عليها القبر المقدس ، وقد أصيبت بالتلف من جراء ضربها بالمعاول ، كما هدم دير السري وكان خاصا بالراهبات ، وصودرت جميع أملاك الكنيسة وأوقافها وأموالها ، وأخذت جميع محتوياتها من تحف وذكائر ، ويؤرخ الأنطاكي الخامس من صفر سنة ٤٠٠ هـ تاريخا لابتداء هدم الكنيسة (٢٤٤) .

أما معظم المصادر الإسلامية ، فقد تعرضت هي الأخرى لهذا الحادث الخطير ، وأسباب حدوثه ، وتؤرخ له بصام ٣٩٨ هـ ، وتذكر أنه في هذا العام خرج نصارى على عاداتهم في كل عام إلى بيت المقدس لحضور احتفالات عيد الفصح ، وهم في أجمل مظاهر العظمة والأبهة كما يخرج المسلمون إلى الحج فيستدعي الخليفة

(٢٤٣) الأتبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥٦ .

(٢٤٤) الأنطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

الحاكم بأمر الله ختكين الضيف العضلي أحد قواده ، وماله عن امر كنيسة القيامة لمعرفته بها ، وما يحدث في هذا العيد هناك ، فأخبره بأنها بيعة تعظمها النصارى ، ويحج إليها من جميع البلاد ، ويأتى إليها الملوك وحكام الدول للمسيحية حاملين إليها النفور والأموال الكثيرة والثياب الديماج والستور والفروش والقناديل والشموع والصلبان ، وأواني الذهب والفضة والتحف النادرة ، فإذا كان يوم الفصح زينت الكنيسة بالأضواء الباهرة ، وعلقت القناديل الخشبية والملونة بدهن البلسان في المذبح ، وقد اجتمع النصارى لأقامة الصلوات والشمائر الدينية ، في مواكب دينية صاخبة ، ورفعوا أصواتهم يرددون الأدعية والابتهالات ، حاملين المباخر والصلبان الضخمة ، وقد علق ختم الكنيسة بها القناديل الملونة بدهن البلسان مع دهن الزبيق ، فتنبعت منها الأضواء الساطعة التي تخطف البصر ، وبطريقة تخيل للناظرين إليها أنها لزلت من السماء ، فيكثر تهليلهم وتكبيرهم . فأنكر الحاكم بأمر الله ذلك ، وتقدم الى أبى المنصور بشر بن سورين كاتب الانشاء بأن يكتب رسالة الى الداعي أحمد بن يعقوب بأن يقصد بيت المقدس ، ومعه وإلى الرملة ، فيهم كنيسة القيامة ، ويأخذ محتوياتها ، ويبيع ثعامة المسلمين نهبا ومحو أثرها (٢٤٥) . فقام وإلى الرملة ومعه الأشراف والقضاة والقيود وجوه المسلمين ، وقصدوا كنيسة القيامة . إلا أن نصارى مصر عندما علموا بهدور مرسوم الخليفة الحاكم بأمر الله بهم الكنيسة سارعوا باحاطة بطيريك بيت المقدس علما ينضمون السجل ، فأخفى البطريرك

(٢٤٥). المقيس : اتماع الحلقا . ج ٢ . ص ٧٥ .

(٢٤٦) ابن اللاتس : المصدر السابق . ص ٦٧ .

— على أن المقيس يذكر أنه في سنة ٤٠٠ هـ كتب من لشاه ابن

سورين لهم ثعامة بالمقدس (اتماع للحلقا . ج ٢ . ص ٨١) .

كثيرا عما كان فيها من الفضة والذهب والجواهر والثياب والتحف قبل وصول اصحاب الحاكم بأمر الله الذين احاطوا على ما تبقى فيها من موجودات وكان شيئا عظيما ، فتمت مصادرتها ، كما هدموا مباني الكنيسة ، و « قلعت حجرا حجرا » . وتمرضت للنهب والتخريب (٢٤٦) .

واغلب الظن أن تخريب الكنيسة « لم يكن تخريبا كلياً » ، وأن الهدم امتد فقط الى أغلب منشآتها (٢٤٧) .

ونتيجة لهذا الحادث اهتز العالم المسيحي ، وارتفعت الأصوات في أنحاء تطالب بحماية القبر المقدس ، وأخذت البابوية على عاتقها الترويج لهذه الدعوة (٢٤٨) .

ولقد اتبع الحاكم بأمر الله قراره بهدم كنيسة القيامة بقرار آخر يقضى بهدم جميع الكنائس والبيع في جميع أقاليم الدولة ، إلا أنه أمسك عن هدم كثير منها خوفا من أن تقوم شعوب العالم للمسيحي بهدم ما في بلادها من مساجد المسلمين (٢٤٩) .

إلا أنه في تاسع عشر ذي الحجة سنة ٢٩٩ هـ أمر الحاكم بهدم كنائس القنطرة التي في طريق القدس ، وكذلك كنائس حارة الروم ، ونهب جميع ما فيها (٢٥٠) وفي السنة التالية أمر بهدم كنيسة العجوز بنمياط ، وكانت واحدة من أعظم كنائس الملكية بصرى ، فشرع في هدمها يوم الجمعة في الثاني عشر من شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ . كما نيفت مدافن بالكنيسة كانت لنصارى دمياط

(٢٤٧) مجير الدين الحنبلي : الأئمة الجليل بطريق القدس والخليل ، ج ١ ،

ص ٢٠٢ .

(٢٤٨) طعان : الحكام بدمشق من ١٢٨٠ .

(٢٤٩) المزيدي : انشاء للعتاة ، ج ٢ ، ص ٧٥ .

(٢٥٠) المزيدي : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، و٢٢٤ .

من الملكية وأزيلت معاملها ، وأخذت محتوياتها وما بها من آنية الذهب والفضة ، وصودرت أملاك الكنيسة وعقاراتها وكل ما حبس عليها . ويتى في موضعها مسجد للمسلمين (٢٥١) .
وفي صفر سنة ٤٠٢ هـ أمر الحاكم بأمر الله ، بالاضرب بتاقوس ، والا يظهر صليب بأية كنيسة ولا تقع عليه عين ، فنزعت الصليبان من الكنائس ومحيت معاملها من ظاهر البيع والكنائس (٢٥٢) .

وفي ربيع الأول سنة ٤٠٣ هـ وقع الأمر بهم جميع الكنائس في الديار المصرية (٢٥٣) ، فسال جماعة من النصارى الحاكم بأمر الله أن يتولوا هدم كنائسهم بأيديهم ، وأن يتنوها مساجد للمسلمين ، واقطع الحاكم ما للكنائس من ربايع وأملاك لجماعة من الخدم الصقلية ، ووجب لهم ما في الكنائس من التحف والذخائر وأواني الذهب والفضة وغيرها من الحواصل والمأكول ، كما أقطع كثيرا من الكنائس لكل من التمسها ، ولم يرد من سأل شيئا منها (٢٥٤) . ثم أصدر أوفدوه إلى ولايته بالإقليم ومائل أعمال الدولة بأن يهدم كل وال ما في ولايته من كنائس (٢٥٥) ، فهدم كثير منها ، ومحيت معاملها وأزيلت آثارها ، وقلعت أساساتها من الأرض ، وأخذت أنقاضها ، وأنقذ مكان البعض منها عدد من المساجد (٢٥٦) . كما تحول بعض هذه الكنائس إلى مساجد للمسلمين (٢٥٧) . ويرى الأتطاكي أنه قد أخرجت عظام الموتى من

(٢٥١) الأتطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

(٢٥٢) — : نفس المصدر ، ص ٢٠٣ .

(٢٥٣) المقريزي : أتمام الخطأ ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

(٢٥٤) النويري : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(٢٥٥) — : نفس المصدر ، نفس الورقة .

— المقريزي : أتمام الخطأ ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

(٢٥٦) الأتطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

(٢٥٧) المقريزي : أتمام الخطأ ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

الكنائس في عدة بلدان ، وأحرقت الكتب الموجودة بها ، كما ألزم الحاكم بأمر الله نصارى كل بلدة بأن يدفعوا أجور العمال الذين قاموا بهدم ونقض ما بها من كنائس (٢٥٨) . ويذكر المقرئ أن كنيسة أبي شنودة - كبرى الكنائس القبطية بمصر - وكنيسة المعاقبة بالفسطاط قد تعرضتا لنهب ما فيهما من الأموال والمصاغ ولبسب الديساج وغير ذلك من التحف والتخاثر وكان شيئا كثيرا (٢٥٩) . هذا بجانب ما نهب من أموال الكنائس والديارات في سائر أنحاء الدولة ، فباع الناس بأسواق مصر كل ما وصلت إليه أيديهم من تلك الثروات والتحف وتصرفوا في أحياض وأماكن وعقارات الكنائس بالبيع والشراء (٢٦٠) .

ولقد تنازع هدم الكنائس في جميع أنحاء الدولة ، وطبقت القرارات الخاصة بهدمها في منتصف الحزم والصرامة لمدة ما يقرب من ثلاث سنوات من ربيع الآخر سنة ٤٠٣ هـ إلى أواخر سنة ٤٠٥ هـ . وهدم في تلك الفترة من الكنائس والأديرة التي بناها الروم حوالي ثلاثين ألف - حسب قول المقرئ - ، ونهب من أموالها وذخائرها ما يصعب حصره . وأخذ من أوقافها وأماكنها الشيء الكثير (٢٦١) .

وعلى الرغم من أن الأتراك بالغ في وصف قسوة الأساليب التي اتبعت في هدم الكنائس ، وعلى الرغم من مبالغة المقرئ في تقدير ما هدم من كنائس وأديرة الروم ، إلا أن واقع الأمر يؤكد

(٢٥٨) الأتراك : المستنصر ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ .

(٢٥٩) المقرئ : انعطاف الحظ ، ج ٢ ، ص ٩٤ ، ص ٩٥ .

(٢٦٠) — : الخطبة ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ ، ٢٩٤ .

(٢٦١) — : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ .

أن الحاكم بأمر الله اتبع سياسة غاشمة متعصبة إزاء دور عبادة أهل
 النعمة في تلك الفترة ، وليس هناك ما يبرر اتخاذ مثل تلك القرارات
 والإجراءات المنافية لروح التسلمح الإسلامي ، بل أن تلك القرارات
 تعكس روح التعصب الديني — لدى الخليفة الحاكم بأمر الله — التي
 غذتها كثرة حروبه من الروم *

ولقد حاول الراهب يونس — السابق الإشارة إليه — والحاقد
 على البطريرك زخاريا ، أن يشمل نار الفتنة موه أخرى بين الخليفة
 الحاكم بأمر الله وبين رجال الكنيسة الذين ألفوا على الراهب يونس
 تبعه تصرفات الحاكم الغاشمة إزاء عدم الكنائس ، إلا أن الخليفة
 الحاكم بأمر الله كان قد قرّر اتباع سياسة معتدلة إزاء أهل
 النعمة (٢٦٢) *

ففي جمادى الآخرة سنة ٤١١ هـ ، أصدر سجلا إلى نقفور
 بطريرك بيت المقدس بحفظ دور العبادة الخاصة بأهل النعمة في
 بيت المقدس ، والمنع من نقضها ، وأتم على كنائس بيت المقدس برد
 أوقافها إليها ، وافتتح حينئذ باب رجعة الكنائس ورد
 أوقافها * (٢٦٣) . كما صرح الحاكم بأمر الله لبطريرك الروم
 بالقاهرة بتعمير كنيسة القنطرة بالقسطنطينية ، ثم توالت التماسات
 الأنبا سلومون رئيس دير طور سيناء والتماسات لمحيرة من النصارى
 إلى الحاكم برّد كل كنيسة من كنائسهم وعازتها ورد أوقافها *

(٢٦٢) الأنبا جيفائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٦٠ .

(٢٦٣) الاملاكى : المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

كما كتب الأنبا سلعون رقاعا رفعها إلى الحاكم بأمر الله عن أهل البلدان البيعة التماسا لبناء وتجديد ما هدم من الكنائس فلجأ الحاكم كل إلى ملتصقه ، وأطلق عمارة جميع الكنائس التي يستغنى الأمر منه الاذن فيها ، واعادة أوقافها إليها . إلا ما كان قد بيع في وقت القبض عليها (٢٦٤) ، هذا بجانب تصريح الحاكم بأمر الله بأن يعاد إلى الكنائس الأخشاب والعمد والطلوب والحجارة المأخوذة منها (٢٦٥) ، وجد النصارى في عمارة كنائسهم فعاثت إلى أحسن مما كانت عليه (٢٦٦) .

زد على ذلك أن الحاكم بأمر الله أمر بأعفاء كثير من أملاك الكنائس وأوقافها من دفع ما عليها من الخراج والرسوم ، وما فرض عليها من غرامات سابقة (٢٦٧) .

وفي بداية خلافة الظاهر لأعزاز دين الله ، سمح للنصارى الذين توازرهم ست الملك - ببناء الكنائس ، إلا أن ست الملك - التي كان لها نفوذ كبير في الدولة - أخلت الخراج والرسوم التي سبق للحاكم بأمر الله إعفاء أوقاف وأملاك الكنائس منها (٢٦٨) .

وفي عهد الظاهر أيضا أعيد تجديد عمارة كنيسة القيامة ببيت المقدس كما استمر النصارى في تعمير وتجديد كنائسهم في سائر أقاليم الدولة (٢٦٩) ، حتى أعيدت لما كانت عليه

(٢٦٤) - — : نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٢٦٥) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٦٠ .

(٢٦٦) الأنبا ميخائيل (أسقف الروب) : المستكبر ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

— للمبلى : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤٨٨ .

(٢٦٧) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ ، ٢٢٧ .

(٢٦٨) — : نفس المصدر ، ٢٢٨ .

(٢٦٩) — : نفس المصدر ، ص ٢٨٢ .

وأفضل ، (٢٧٠) ، وردت أوقاف للكنائس لم تكن قد ردت إليها
في خلافة الحاكم (٢٧١) .

وفي عهد وزارة اليانزورى في الخلافة المستنصرية تعرضت
الكنائس لبعض القيود ، بسبب الخلاف الذي نشب بين اليانزورى
والبطريرك خريستوذولوس لأنه أنشأ كنائس كثيرة من الكنائس
المستحدثة مما أدى إلى إغلاق الكنائس وعدم ما امتجد منها وفرض
غرامات مالية على ما استحدثت من تلك الكنائس .

على أن حصن الدولة وإلى الاسكندرية في ذلك الوقت والذي
كان يسلط على النصارى ، أرسل خفية إلى بعض خواصه من رجال
الكنائس بالاسكندرية ليجردوا كنائسهم سرا من الأواني والحل
وكل ثمن من محتوياتها ، قبل أن تصل إليها يد المكلفين بالاستيلاء
عليها من قبل السلطة (٢٧٢) .

ولا رضى الروم سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م أن يخطب للخليفة
المستنصر بالله بجامع القسطنطينية ، أمر الخليفة المستنصر بمصادرة
أموال كنيسة القيامة بالقدس مع مصادرة أموالها ونفائسها (٢٧٣) .

ومع هذا قام النصارى في خلافة المستنصر بترميم وبناء بعض
الكنائس إذ يذكر أبو صالح الأرمي في تاريخه أن كنيسة القديس
جرجيوس بالحرم - والتي كانت قد تصدعت - قد أصلحت
وجددت على يد المسلم سرور الجلال الذي كان من أغنيائه

(٢٧٠) أكتبا ميخائيل : مر القيمة المقدسة ، ج ٢ ، ورقة ٦١ .

(٢٧١) الانتاكي : المصدر السابق ، ص ٧٢٨ .

(٢٧٢) أكتبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة .

- جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٢٧٣) العيني : المصدر السابق ، ج ٢٠ ، ورقة ١١٧ .

النصارى (٢٧٤) ، كما كان هناك كثير من رجال الدولة - في خلافة
المستنصر - ممن شملوا برعايتهم وتمتعهم كنائس النصارى ودور
عبادتهم (٢٧٥) *
الأديرة :

وكانت أديرة النصارى منتشرة في أنحاء مصر والشام ونعم
ورهبان تلك الأديرة بسياسة التسامح الدينى إزاء أهل النعمة التي
كانت ممة من ممالك عصر الفاطميين ، باستثناء فترة من عهد
الخلافة الحاكم بأمر الله * .

فعندما أقدم جوهر الصقلي على بناء مدينة القاهرة لتكون
عاصمة للفاطميين قام بتعمير دير الخندق بظاهر القاهرة من شمالها ،
عوضا عن دير حنطة كان موضعه بالقرب من الجامع الأحمر ، وكان
يسمى بدير العظام * . كما نقل رفات موتى النصارى إلى دير الخندق
احتراما لمشاعر النصارى في مصر (٢٧٦) * .

ولما قدم الخليفة المزمع لدين الله إلى مصر واستقر بها ، شمل
برعايته وعطفه ديارات النصارى ورهبانها ، وصرح للبطريرك
إبراهيم السورباني رأس الكنيسة القبطية آنذاك بترميم الأديرة
القديمة وبناء ما التمسسه من الأديرة الجديدة في سائر أقاليم
الدولة (٢٧٧) * .

ولم يخلو خلافة العزيز بالله كانت ديارات النصارى في حماه ،
ونعم الرهبان بالأمن والطمأنينة طوال عهده ، كما قام النصارى

(٢٧٤) أبو حيان الأرياني : المصدر السابق ، ص ٢٦ .

(٢٧٥) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٢٧ .

(٢٧٦) المقريظي : للخط ، ج ٢ ، ص ٥٦ .

(٢٧٧) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ١٤ ، ص ٢٦ .

بيناه بعض الأديرة دون الاستئذان منه (٢٧٨) ، وعلى حبيب اللال
 فان أرسانيوس البطريك للكلاني صهر العزيز بالله أحاط دير
 القصير بالمقطم بسور عظيم ، وعمر الدير وجده ، وأنشأ فيه أبنية
 كثيرة (٢٧٩) .

وقبل أن تهب العاصفة ويتشدد الحاكم بأمر الله في سياسته
 تجاه أهل الذمة ، قام النصارى بتجديد عمارة بعض الأديرة ، فقد
 اهتم أبو نصر ابن عيون - وكان آنذاك يتولى ديوان السلام -
 بتجديد عمارة دير حارويحنا (٢٨٠) ، وكان على جانب هذا الدير
 يساتين أنشأ بعضها الأمير تميم بن المنز وكانت من مواضع النزهة
 والطرب (٢٨١) .

وعندما هبت العاصفة ضد أهل الذمة في خلافة الحاكم . وصل
 قدحا الى الأديرة والربان ، فهم الكثير من الأديرة ، ولم يبق منها
 الا القليل (٢٨٢) .

وفي المائتين من رجب سنة ٣٩٨ هـ ، أمر بوضع اليد على
 أوكاف الديارات الحديثة والعتيقة بصر دون غيرها من البلدان ،
 وجعلها باسمه في الديوان (٢٨٣) ، وفي مرسومه الصادر في
 ذي الحجة سنة ٣٩٩ هـ ، كان هنم كنيسة القيامة بالقدس وشمل
 الهنم والتخريب دير للراهبيات بجوارها يعرف بدير السرى ، وتهدم
 ما فيه من تحف و ذخائر (٢٨٤) . كما عودت لملك الأديرة

(٢٧٨) جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

(٢٧٩) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٤١٧ .

(٢٨٠) أبو صالح الأرمي : المصدر السابق ، ص ٩١ .

(٢٨١) المقريزي : المقطع ، ج ٢ ، ص ٥٠٥ .

(٢٨٢) — : نفس المصدر ، ص ٥٠٦ .

(٢٨٣) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(٢٨٤) — : نفس المصدر ، ص ١١٦ .

وأوقافها في آنسة الدولة ولما تمت إليها معاول الهمم لنقضها (٢٨٥).

وفي يوم الثلاثاء ثامن شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ ، أصدر الحاكم بأمر الله مرسوماً بهدم دير القصير بجبل المقطم ، ونهب جميع ما فيه ، وكان أرمانيوس بطريرك الملكانية يومئذ مقيماً فيه مع الرهبان ، فأخرجوا جميعاً من الدير ، وأخذت فنقضه معاول الهمم ، ولعل السبب في ذلك تشدد الحاكم بأمر الله في سياسته إزاء أهل الألحة عامة ، وإزاء النصارى الملكانية بوجه خاص ، هذا بجانب أن البطريرك امتنع بالدير عملة عيان ومنشآت جديدة ، وعمر وجد في مبانيه ، مما اضطر الحاكم بأمر الله تمسكاً مع سياسته وتشدده في تطبيق الشروط العمريّة إلى هدم الدير وجميع ملحقاته المستحقة ، واستمر الهمم فيه عدة أيام ، وكان للنصارى الملكانية خارج الدير مقابر ومدافن لموتاهم ، ففتح الرعايا والعبدة جميعها ، ونهبوها ، وأخذوا نوابيت الموتى ، ولما علم الحاكم بذلك ، أمر بالكف عن فتح القبور وترك التعرض لرفات الموتى وما تحويه المدافن (٢٨٦) . وفي تلك السنة الفيت جميع الأحباس المرسومة على الأديرة بمصر وضمت للديوان (٢٨٧) . وفي صفر سنة ٤٠٢ هـ لزمت الصليانيون وطمسست آثارها من ظاهر الأديرة ، وفي جواني الأخرى سنة ٤٠٣ هـ أقطع الحاكم بأمر الله معظم الأديرة المتبقية والحديثة بمصر وسائر أقاليم الدولة لكل من التمسها (٢٨٨) .

(٢٨٥) التاريخ : الخط ج ٢ ، ص ٤٩٥ .

(٢٨٦) الاطلي : المصدر السابق ، ص ٤٩٧ .

— تاريخ صلاح الدين : المصدر السابق ، ص ٦٢ .

(٢٨٧) حنان : الحاكم بأمر الله ، ص ١٢٨ .

(٢٨٨) التاريخ : الخط ج ٢ ، ص ٨١ .

وأخرى بعضها (٢٨٩) ، ووجب لهم امتلاكها وما هو موقوف عليها ،
 وسمح لهم بنهب محتوياتها ، وكتب إلى عماله في سائر أعمال
 الدولة بهدم الأديرة وتفضيها وسحق آثارها ، فأتى على أكثر الأديرة
 بالأقاليم ، إلا الدير الكبير المعروف بدير أبي مقار - في ترنوط من
 أعمال الاسكندرية - وما حوله من الأديرة القريبة منه ، إذ بلغ
 الحاكم بأمر الله أن هذا الدير في حماية قبيلتي بني قرة وبني كلاب
 العربيتين ، وأن عرب هاتين القبيلتين لا يمكنون أحدا من الوصول
 إليه والتعرض له ، فأمر الحاكم بحمله أو إلحاق الضرر
 به (٢٩٠) ، مما أتاح للرهبان المقيمين فيه حرية العبادة وإقامة
 الشعائر الدينية في الفترة التي ضيق فيها الحاكم بأمر الله الخناق
 على الكنائس والأديرة بمصر (٢٩١) .

هذا بينما أقطع الحاكم بأمر الله دير راية ، ودير طور سيناء ،
 لرجل عربي يعرف بأبن غياث ، فهم إحدى كنيسة دير راية ،
 وأخذ جميع ما فيه من تحف و ذخائر ومحتويات ، ويذكر الأنطاكي
 أن الخليفة الحاكم أوعز إلى ابن غياث المسير إلى دير طور سيناء
 لهدمه وبنائه مسجدا مكانه ، إلا أن الأنبا سلمون بن إبراهيم أحد
 الكتاب النصاري الذين اتخذوا من الرهبانية طريقا لهم ، وكان
 على قدر كبير من الذكاء والسياسة ، أحسن استقبال ابن غياث
 هنا ، وأكد له أن أسقف الدير ورهبانه على استعداد تام للمساعدة
 في هدم الدير لساعته وغير مائمين له منه ، وصلى إليه جميع
 محتويات الدير من التحف والذخائر وما به من الذهب والفضة ،
 وقال له قولا لبنا : وأوضح الأنبا سلمون لابن غياث صعوبة هدم
 الدير لصيانة مبانيه وضخامة جدرانها وأسوارها ، وكثرة ما يلزم

(٢٨٩) أبو صالح الأرمي ، ص ٧٧ .

(٢٩٠) الأنطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

(٢٩١) ابن القراعب : المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

من الأموال والنفقات لهدم الدير ، والتمس الراهب من ابن غياث عدم التعرض للدير مقابل مبلغ من المال تقرر دفعها اليه ، فرض ابن غياث بما تم الاتفاق عليه ، وانصرف دون أن يهدم الدير أو يلحق بزميانه الأذى (٢٩٢) .

لكن الحاكم بأمر الله قبل اختفائه سنة ٤١٩ هـ / ١٠٢٤ م كان قد خفف من مطاردته لأهل النعة ، فانتهاز الأنبا سيلمون رئيس دير طور سيناء تحول الخليفة عن سياسته السابقة وتسامحه مع أهل النعة ، وشكى اليه سوء حالة رهبان دير طور سيناء ، وما هم عليه من الضر والفاقة ، وتوسل اليه في اطلاق الأوقاف الخاصة بالدير والتي سبق مصادرتها ليستعين الرهبان ببعضها في احتياجاتهم ومتطلبات اعاشتهم ، فاجابه الحاكم بأمر الله الى ملتصه ، وأعاد ما كان للدير من أوقاف وأماكن (٢٩٣) .

وعندما التقى الأنبا سيلمون بالحاكم بأمر الله شكى اليه ما أصاب دور العبادة الخاصة بالنصارى من خراب ، وما تعرضت له أوقافها من المصادرة والتمس منه الاذن بتجديد صدارة دير القصير ، والسماح بمودة الرهبان الى سكناهم ، واجتماع النصارى فيه للصلاة مع رد ما سبق مصادرته من كمالات وأوقاف الدير اليه ومقتضاها واعفاء ما يستجد له من أوقاف مما يجب من خراج وعشر وغرم ورسم ، في سائر دواوين الدولة ، فاجابه الحاكم الى ما التمسه وكتب له سجلا بذلك في ربيع الآخر سنة ٤١١ هـ . ثم كتب الحاكم سجلا الى لقفور بطريرك بيت المقدس بحماية أديرة

(٢٩٢) التتلي : المصدر السابق . ص ٢٠٤ : ٢٠٥ .

(٢٩٣) — : نفس المصدر . ص ٢٢٨ .

بيت المقدس ورد أوقافها اليها وإطلاق حرية التعميد لرهبانها .
وحذر كل من تسول له نفسه مخالفة أوامره (٢٩٤) .

وبعد ذلك أطلق الحاكم عمارة جميع الديارات في سائر أنحاء
الدولة وأمر بـرد أوقافها وإعلاؤها اليها . إلا ما كان قد بيع إبان
مصادرتها . وأعطى لكل من سأله سجلا في معنى سجل دير
القصير (٢٩٥) .

ثم كان قرار الحاكم بالخفو الشامل يمتضى مرسوم أصدره
في شهر شعبان سنة ٤١١ هـ قبيل اختفائه (٢٩٦) . كما تعاطف
الحاكم بأمر الله مع الرهبان ونشأت صداقة وطيدة بينه وبين بعض
الرهبان . ومنهم يربن الراهب الذي كان قد اعتنق الاسلام ثم ارتد
إلى النصرانية في خلافته . وعاد صاحبها له . وكان واحدا من الذين
التمسوا من الحاكم بأمر الله إعادة فتح الكنائس والأديرة . والفاء
الكثير من القيود التي فرضت على النصارى . كما أن الحاكم
بأمر الله صرح له بتجديد عمارة أحد الأديرة . وأطلق ما سبق
مصادرتها من أوقاف هذا الدير (٢٩٧) .

وزار الخليفة الحاكم بأمر الله في أواخر أيامه الرهبان في
أديرتهم وقد لبس زي الرهبان . فكثيرا ما كان يقصد دير القصير
أثناء تجديد عمارته . ويحث الصناع والعمال على الانتهاء منه .
كما أطلق الأموال للصرف على بنائه . ودفع للرهبان المقيمين فيه
الأموال الجزيلة للمساهمة في نفقات معيشتهم وسد احتياجاتهم .

(٢٩٤) الإطليقي : المصدر السابق . ص ٢٣٦-٢٣٨ .

(٢٩٥) — : نفس المصدر . ص ٢٣٦ .

(٢٩٦) — : نفس المصدر . ص ٢٣٢ .

(٢٩٧) أبو صلاح الأرمي : المصدر السابق . ص ٦٠ .

كما ساعد في دفع أجور العمال ، وكافأ البنائين العاملين في بنائه ،
تشجيعا لهم للاسراع في عمله (٢٩٨) .

هذا ولم يقتصر الحاكم بأمر الله على زيارة دير القصور الخاص
بالروم الملكية ، بل انه كان يقصد الديارات التي يطعمها النصارى
اليماقية للوقوف على ما تم في عملاتها ، مما دفع عوام المسلمين الى
اطلاق الاشاعات المخرقة ضده ، واتهامه بأنه قد قتل على يد الأنبا
سلمون الراهب ، وأنه قد انحاز اليه وامتلأ لأوامره (٢٩٩) .

وهكذا أعاد الحاكم بأمر الله سياسة التسامح الديني باطلاق
الحرية الدينية لأهل النمة ، فصرح لهم بحرية إقامة شعائرهم
الدينية ، والتعبد علانية في الكنائس والأديرة ، وحشهم على إعادة
بنائها ، وسمح للربان بالعودة الى أديرتهم ، والسكن بها ، مع
توفير الأمن والحماية لهم ، وحشهم بمطعمه ورعايته ، وزارهم في
أديرتهم ، وأطلق لهم ما كان موقوفا عليها من أملاك وأموال
وعقارات ، وأجاب النصارى لكل ما يحق صلاح أمورهم (٣٠٠) .

وفي تلك الأثناء ، أذن الحاكم بأمر الله لمن دخل في الاسلام
كرها أن يرتد الى دينه ، فارتد آلاف من النصارى ممن كانوا قد
تظاهروا بالاسلام الى المسيحية ، ويروى عن الحاكم قوله في هذا
الصدد : « ننزه مساجدنا عن لا نية له في الاسلام » (٣٠١) .
كما صرح بأن تضرب التواقيس في البيع والكنائس (٣٠٢) ، ايذانا
منه باطلاق الحرية الدينية لأهل النمة .

(٢٩٨) الاطلاق : المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .

(٢٩٩) — : نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٣٠٠) — : نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٣٠١) المعنى : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤٤٨ .

(٣٠٢) الاتيا ميخائيل (اسقف أنطرب) : المستنصر ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

أما عن الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله ، فقد أعلن أنه سيتوخى العدل في سياسته مع كافة الناس على اختلاف وظائفهم ودياناتهم .
ولقد انعكست تلك السياسة على أهل النمة ، إذ استمرت سياسة إعادة بناء الأديرة ، وبذل رؤساء الكنيسة جهودا كبيرة لتعمير ما خرب منها (٣٠٣) ، هذا فضلا عن أن الخليفة الظاهر أصدر مرسوما عاما يؤكد استمرار سياسته في إطلاق الحرية الدينية لأهل النمة ، وبأنه لا اكراه في الدين . فمن أثر منهم البقاء على يهوديته أو نصرانيته فله ذلك ، ولهم جميعا الحماية والأمان والطمانينة « على نفوسهم ودمائهم ، وأولادهم ، وكموالمهم ، وأحوالهم ، ما سلكوا الطريق المستقيمة ولم يقصروا المقاصد النسيمة » (٣٠٤) .

كما أصدر الخليفة الظاهر في المحرم سنة ٤١٥ هـ مرسوما للرحبان البيعاقبة بتجديد ما سبق أن أقره الخلفاء الفاطميون الأوائل من توفير الحماية لهم ، وصيانة ممتلكات أديرتهم ، وعلم المساس بأوقافها (٣٠٥) .

بل إن الظاهر لأعزاز دين الله سمح بمودة جماعة من النصاري سبق لهم الهجرة إلى بلاد الروم ، إلا أنه أخذ منهم الجزية من السنة التي انتهى استخراجها منهم إلى السنة التي عاد فيها كل واحد منهم (٣٠٦) . .

(٣٠٣) الاتيا ميخائيل : سر النيسة المقدسة ، ج ٢ ، ورقة ٦١ .

(٣٠٤) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٧٣١ .

(٣٠٥) Stern : Op. Cit., p. 18-17.

(٣٠٦) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٧٣٩ .

وفى خلافة المستنصر باق الفاطمي نعم الرهبان بحرية ممارسة شعائرهم الدينية في الفترة الأولى من خلافته (٤٢٧ هـ - ٤٤٧ هـ) أى حتى منتصف القرن الخامس الهجرى /منتصف القرن الحادى عشر الميلادى . ولم تتعرض الأديرة لما يسوء إليها أو الى رهبانها ، اذ صار المستنصر باق على سياسة أسلافه التى تميزت بالتسامح الدينى وحرية العبادة لأهل الفقة . والرحالة فاصرى خسرو الذى زار مصر وفلسطين في خلافته ، يذكر أن كنيسة القيامة « يقيم بها كثير من القسس والرهبان ، يقرأون الانجيل ، ويصلون ، ويشغلون بالعبادة ليل نهار » (٣٠٧) .

على أن أديرة النصارى في الوجه البحرى امتدت إليها يد السلب والنهب ، أثناء تلك الحروب التى قامت بين قوات المستنصر ، وبين القائد التركى نصر الفولة الذى شق عصا الطاعة ، كما شوهت زخارف ورسوم تلك الأديرة ومبانيها ، وتعرض رهبانها للاذى والقتل والتشريد ، مما أدى الى هروب من نجا منهم الى الأرياف فراراً من البطش والموت (٣٠٨) .

ومع انتشار المجاعة ، ولاديد الفتن ، واضطراب الأمن وعجز الخليفة المستنصر عن استرجاع هيئته وسلطانه ، وتدهور الأوضاع بوجه عام في جميع أنحاء الدولة ، اضطر المستنصر الى استدعاء بدر الجمالى الى مصر ، لعله يصيد الأمور الى حالتها الطبيعية (٣٠٩) .

(٣٠٧) فاصرى خسرو : المصدر السابق . ص ٣٧ .

(٣٠٨) الأتيا ميخائيل . المصدر السابق . ج ٢ . ورقة ٧٩ ، ٨٧ .

(٣٠٩) - ملج : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر . ص ٢٨٢ .

الكنائس اليهودية :

وأذا ما انتقلنا الى الحديث عن كنائس اليهود في مصر ، فإن المقرئ يذكر أنه كان لليهود عدة كنائس منتشرة في الديار المصرية ويتناول في حديثه إحدى عشرة كنيسة منها : كنيسة دموة بالجيزة ، وكنيسة جوجر بالقري القريبة (٣١٠) ، وفي مدينة القسطنطين كان لليهود ثلاث كنائس هي : كنيسة المصاصة (٣١١) ، وكنيسة الثمامين (٣١٢) ، وكنيسة الربانيين (٣١٣) .

كما كان لليهود عدة كنائس في مدينة القاهرة . فكان بحارة الجردية كنيسة عرفت بها ، ويروي المقرئ أنها خراب منذ أن أحرق الخليفة الحاكم بأمر الله تلك البحارة على اليهود (٣١٤) . أما حارة زويلة وحلها فقد وجد بها خمس كنائس (٣١٥) هي : كنيسة القرائين ، وكنيسة دار الحدرة ، وكنيسة الربانيين ، وكنيسة السامرة . وجميع تلك الكنائس المذكورة - على حسب قول المقرئ - مدمرة في الاسلام (٣١٦) .

وكان لعظم هذه الكنائس مكانة خاصة عند اليهود ، فهم يعتقدون أن كنيسة دموة - أعظم المعابد اليهودية بمصر - كانت الموضع الذي لجأ اليه موسى عليه السلام ، حينما كان يبلغ رسالة

(٣١٠) المقرئ : الخط ، ج ٢ ، ص ٤٦٢ .

(٣١١) — : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ .

(٣١٢) وبشامين للخط : المصدر السابق ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٣١٣) المقرئ : الخط ، ج ٢ ، ص ٤٧١ .

(٣١٤) — : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ .

(٣١٥) — : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٦٢ .

(٣١٦) المقرئ : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٧١ .

الله عز وجل الى قريون ، مكة اقلعتهم بمصر ، منذ أن قلم من مدين الى مصر ، الى أن خرج بنى اسرائيل منها وكان يهلك الكنيسة شجرة زيزلخت في غاية الضخامة ، لا يشكون من أنها ترجع الى زمن موسى عليه السلام ، كما كان لاهل الكنيسة عيد يرحل اليهود بأهاليهم اليها ، في عيد الخطاب ، وهو في شهر سيوان ، ويجعلون ذلك بدل حجهم الى القدس (٣١٧) .

أما كنيسة جوجر ، فيزعمون أنها الموضع الذي ولد به نبي الله الياس (٣١٨) ، كما يزعمون أن كنيسة المصاصة كانت مجلسا له (٣١٩) . كذلك يعتقد اليهود أن في كنيسة الساميين نسخة من التوراة لا يشكون في أنها بخط عزرا أحد أنبيائهم (٣٢٠)

لكننا علينا أن نتساءل : هل تعرضت معابد وكنائس اليهود لآية اضرار أو قيود في العصر الفاطمي الأول ؟ ثم لماذا تركزت معظم الكنائس اليهودية في حارة زويلة بالقاهرة ؟

والواقع أن يهود مصر كغيرهم من أهل الذمة ، قد نعموا بسياسة التسامح الديني التي سار عليها الخلفاء الفاطميون في العصر الفاطمي الأول اذ تولوا ارقى مناصب الدولة ، وكانوا على صلة وثيقة بقصر الخلافة (٣٢١) ، فتمتعوا بحرية ممارسة شعائرتهم الدينية في أمن وطمأنينة ، كما أن كنائسهم لم تتعرض طوال خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ، لما ينال منها أو يلحق الضرر بها .

وفي بداية خلافة الحاكم بأمر الله مارس اليهود شعائرتهم الدينية في حرية تامة ، بل ان بعض الوثائق تمتصه بسبب

(٣١٧) المروزي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٦٤ .

(٣١٨) ——— : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٦٩ .

(٣١٩) ——— : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٧٠ .

(٣٢٠) ——— : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٧٠ .

(٣٢١) Goltefä : A Mediterranean Society. The Jews Com-

munity: of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza, Vol. I, p. 33-34.

• اصلاحاته البطيئة • . كما أن كنائس اليهود في أوائل خلافة
الحاكم لم تتعرض لاية اضرار ، فكان اليهود يجتمعون بها لاقامة
الاجتماعات الدينية الخاصة بهم (٣٢٢) .

الا ان اليهود الذين كانوا يسكنون حارة الجوردية اثاروا
سخط الحاكم عليهم • فصب عليهم جلع غضبه ، إذ بلغه ان اليهود
يجتمعون بها لوقات خلواتهم ويقنون :

واما قد ضلوا • ودينهم حبل

قال لهم نبيهم نعم الا دام الخلل

ويسخرون بذلك من المسلمين • ويستهزئون بنبي الاسلام
ويتعرضون في الديانة الاسلامية ، ويتعرضون الى ما لا ينبغي
سماعه ، مما اضطر الحاكم بأمر الله الى الانتقام منهم (٣٢٣) ،
فسد عليهم حاراتهم ليلا وأحرقها • فامتد الحريق الى كنيستهم بتلك
الحارة فاسرها واصبحت خرابا (٣٢٤) • ثم منعه من السكن
بحارة الجوردية او المبيت فيها ، وأفرد لهم حارة زويلة للاقامة
بها (٣٢٥) • وأمرهم بعدم مقادرتها والا يخالطوا المسلمين في
حاراتهم (٣٢٦) • مما أدى الى تركيزهم في حارة زويلة ، وبالتالي
الى اهتمامهم بإنشاء معظم كنائسهم المجددة في تلك الحارة •

(٣٢٢) قاسم حيد : المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(٣٢٣) القريزي : الخط ، ج ٢ ، ص ٤ .

(٣٢٤) القريزي : نفس المصدر ونفس الصفحة .
Gottlieb : Op. Cit. p. 84.

(٣٢٥) القريزي : الخط ، ج ٢ ، ص ٤ .

— : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٧ .

(٣٢٦) زين أياض : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥١ .

ولقد تعرض اليهود في مصر لصراعة القيود التي فرضها الحاكم بأمر الله على أهل النمة ، وتشدده في تطبيق الشروط المصرية التي زاد عليها . مما اضطر كثير من اليهود في هذه الفترة الى الهجرة الى بلاد اليمن ، والى تظاهر بعضهم بالاسلام (٣٢٧) وذلك اما حفاظا على وظائفهم في الدولة ، واما هروبا من قسوة القيود الصارمة التي ضيقت الخناق على أهل النمة بوجه عام .

واذا كانت بعض كنائس اليهود قد تعرضت للنهب والتخريب في هذه الفترة من خلافة الحاكم فانه قد عاد وصرح لهم باعادة بنائها (٣٢٨) ، كما أنه لم يكره أحدا على اعتناق الاسلام ، والدليل على ذلك أنه عندما اتجه سياسة متسامحة مع أهل النمة قبيل اختفائه سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م ، وسمح لهم بالعودة الى دينهم ، ارتد أكثر أهل النمة ممن كانوا قد تظاهروا بالاسلام (٣٢٩) ، وفي يوم واحد ارتد سبعة آلاف يهودي الى اليهودية (٣٣٠) .

Goldain : Jews and Arabs, p. 84. (٣٢٧)

Goldain : The Mediterranean Society. Vol. I, p. 34. (٣٢٨)

_____ : Jews and Arabs, p.84.

(٣٢٩) للعنبر : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ٥٤٨ .

(٣٣٠) ابن اياس . المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٨ .

الباب الرابع

(علاقة الدولة الفاطمية بالدول المسيحية)

والر ذلك على أهل النعمة

الفاطميون والبيزنطيون

استوجبت الأحوال التي تعرضت لها بلاد الشام لبيل الفتح الفاطمي لمصر ، أن يعمل الفاطميون على فتح الشام بمجرد أن انتهوا من فتح مصر .

فالجيوش البيزنطية في عهد الامبراطور تقيور فوكاس (٣٥٢ - ٣٥٩ م / ٩٦٣ - ٩٦٩ م) كانت تواصل هجماتها بمنف على الشام ، وبخاصة في النصف الثاني من عام ٣٥٥ م / ٩٦٦ م ونبالغ في تخريب الأراضي الزراعية بالشام تمهيدا لجزو المدن الهامة بها ، وقد تمكنت هذه الجيوش من الاستيلاء على بعض الحصون والمراكز الرئيسية التي في حوزة المسلمين ، وسافقت أمامها الآلاف من أسرى المسلمين (١) .

ثم كانت وفاة سيف الدولة الحمداني أمير حلب في صفر ٣٥٦ م فرصة كبيرة أمام البيزنطيين ليستعملوا لتجهيز حملة أخرى على الشام في أواخر ٣٥٧ م / ٩٦٨ م ليبدأ بها الامبراطور تقيور فوكاس هجومه الكبير على الشام ضد المسلمين هناك في أوائل

(١) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطهم في مصر ، ص ١٢٩ .

العام التالي . وقد نجحت القوات البيزنطية في الاستيلاء على كثير من الحصون والقرى وبعض المدن في شمالي الشام ، كما تكررت حصارها لبعض المدن الهامة كأنطاكية (٢) .

وامام خطر البيزنطيين في بلاد الشام التي أصابها الضعف ، وانهكت قواتها الحروب في ظل ظروف سياسية بالغة السوء ، بالإضافة الى ضعف العباسيين وعجزهم عن التصدي للهجمات البيزنطية ، بدأ واضحا أنه لا بد من وجود قوى اسلامية قوية ونشطة ، تمكنها قوتها العسكرية والسياسية والاقتصادية من التصدي لخطر البيزنطيين الداهم . وكان ذلك من نصيب الفاطميين الذين كانوا يحطمون بأسقاط الخلافة العباسية وتوحيد العالم الاسلامي تحت ظل خلافتهم وكان تحقيق ذلك يقتضى منهم الاستيلاء على الشام ونشر مذهبهم الشيعي هناك ، وجعل مصر والشام قاعدة للجهاد ضد الروم (٣) .

كما قضت الضرورة السياسية والحربية على الفاطميين أن يوجهوا جيوشهم نحو الشام لتأمين حدود مصر من ناحية الشمال الشرقي من خطر القرامطة القادم الى مصر بزعامة الحسن بن أحمد القرمطي . ولصد هجمات الروم على شمال الشام (٤) ، ولكي يكتسبوا ثقة الرأي العام الاسلامي كخلافة قوية قادرة على دفع الأخطار عن المسلمين الذين فقدوا الثقة من قبل في الخلافة العباسية الضعيفة . والمؤلة الحسدانية التي أصابها الضعف بعد وفاة سيف الدولة (٥) .

(٢) عمر كمال توفيق : الامبراطور نظير نيكاس واسترجاع الاراضي المقتصة .

ص ٢٧ الى ص ٢٧ .

(٣) ملحد : ظهور خلافة الفاطميين . ص ١١٩-١٢٢ .

(٤) صوري : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق . ص ١٦ ، ١٧ .

(٥) ملحد : المرجع السابق . ص ١٢٥ .

٠ . ولم تكده جيوش الفاطميين تستقر في مصر ، حتى قام البيزنطيون في عهد الامبراطور نقفور فوكاس بهجوم مفاجيء على مدينة انطاكية وتمكنوا من الاستيلاء عليها في ذي الحجة سنة ٣٥٨ هـ / اكتوبر ٩٦٩ م . وكان سقوطها في يد البيزنطيين حدثا ضخما ، فهي المدينة التي كان يطمح نقفور فوكاس في الاستيلاء عليها منذ توليه عرش الامبراطورية ، لانها مدينة البطارقة والقديسين ، والتي كانت تعتبر منافسة لبيزنطة على حدود الشام لمدة مائة وخمسة عشر عاما حتى استردها المسلمون في سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م (٦) .

وما لبث البيزنطيون بقيادة بطرس فوكاس - قائد قواتهم بالشام - أن تقصوا نحو مدينة حلب أهم المدن القسامية ، ودام حصارهم لها مبعة وعشرين يوما ، تمكنوا خلالها من التقدم في الجانب الشمالي منها ، وشددوا الحصار عليها ، مما اضطر أهالي المدينة الى التوسط بين بطرس فوكاس وحاكم المدينة فرعوية - الذي كان قد لار على سمع الفولة بن سيف الفولة الحمصاني - في عقد معاهدة صلح بينهما في سنة ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م . وفي هذه المعاهدة فرض البيزنطيون شروطهم التي تقدم نفوذهم بالشام ، وكان من أهمها التعاون مع الروم ضد المسلمين ، وأن يدفع جزية سنوية كبيرة الى بيزنطة (٧) .

على أنه بعد استيلاء الفاطميين على دمشق ، رأى جعفر ابن فلاح قائد جند الفاطميين ، أن في استيلاء الروم على انطاكية ،

(٦) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

- مرون : القلعة للفاطمي في بلاد الشام والعراق ، ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ .

(٧) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ٤٠ ، ٤١ .

- ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، ص ١٢٠ .

وازدیاد نفوذهم في حلب ما يهدد حكم الفاطميين في الشام ، ومن ثم أعيد جيشا كبيرا ضم جنودا من أعمال دمشق وقلسطين ، وصار يرسل الجبلية قبل الجبلية الى انطاكية لاجلاء الروم عنها ، لكن هذه الحملات منيت بالفشل (٨) .

غير أن الفاطميين أرجأوا مواصلة حملاتهم على انطاكية ، وسحبوا قواتهم التي كانت تحاصرهما ، ليواجهوا خطر القرامطة الداهم ، بزعامة الحسن بن أحمد القرمطي ، الذي نجحت قواته في سنة ٣٥٩ هـ / ٩٦٩ م في الاستيلاء على دمشق وقتل جعفر بن فلاح ، واقامة الدعوة للخليفة العباسي ، ثم توجهت جيوشه في أواخر العام التالي لمهاجمة الفاطميين في مصر (٩) .

ومع أن الفاطميين نجحوا في رد هجوم القرامطة عن مصر ، ودخلوا دمشق في عام ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م ، وأرسلوا قواتهم لحصار انطاكية للقيام بالجهاد (١٠) . إلا أن الأمور زادت تعقيدا بالنسبة للحكم الفاطمي في الشام ، ذلك أن الامبراطور حنا زيمسكس الذي كان مثل سلفه نقفور تحركه الإطماع لمعاونة المسلمين في شن هجوم على الشام في ذلك العام ، منتهزا اضطراب أموره ، وبخاصة أنه كان يعتقد بإمكانية الحياة بينه وبين الفاطميين . وكان عدله ليس فقط الاغارة على الشام ، وإنما الوصول الى بيت المقدس مراد النصراني الذي يرتبط بذكریات المسيح (١١) .

(٨) حمود : القنفذة الفاطمية في بلاد الشام والعراق ، ص ٢٩ .

_____ : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٣٦ .

(٩) _____ : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، ص ١٢٠ .

(١٠) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، ص ١٢٦ .

(١١) _____ : المسفر السابق ، ص ١٢٢ .

وفي تلك الظروف التي كان يعاني منها الحكم الفاطمي في بلاد الشام وصل الى القاهرة في رمضان سنة ٣٦٣ هـ ، رسول الامبراطور البيزنطي حاملا رسالة الى الخليفة المعز ، التي تسلمها . وراى أنه من حسن السياسة أن يعقد هدنة مع الروم بسبب الظروف البالغة السوء التي تواجه الفاطميين في الشام ، فاحسن استقبال الرسول البيزنطي ، رغم اعتراض بعض كبار رجال دولته . الا أن الرسول البيزنطي توفي في القاهرة في شهر ذي الحجة من نفس العام . وعملا على تهدئة حالة التوتر في العلاقات البيزنطية الفاطمية ، أمر المعز بإعادة جثمانه الى بلاد الروم (١٢) .

غير أنه في تلك الاثناء عمت الفوضى بلاد الشام بسبب الاضطرابات التي اثارها افتكاف التركي (١٣) ، التي استولى على بعلبك في شعبان سنة ٣٦٤ هـ (١٤) ، ثم دخل دمشق في نفس الشهر من العام نفسه (١٥) . ولم يلبث البيزنطيون أن انتهزوا هذه الاضطرابات واستولوا على بعلبك في رمضان سنة ٣٦٤ هـ ، ونهبوها وأحرقوا كل ما وصلت اليه أيديهم ، ثم هددوا مدينة دمشق . ولما كان افتكاف قد دخل دمشق ، فإنه طلب عقد هدنة مع الامبراطور البيزنطي حنا زيمسكيس ، مقابل مبلغ من المال ، فجسب له افتكاف ثلاثين ألف دينار جميعها بالمنف ، فرحل الامبراطور الى بيروت ، وبها نصير الخادم والى المدينة من قبل المعز ، ولم يزل محاصرا للمدينة حتى سلم أهلها نصير الخادم للامبراطور التي ولى عليها حاكما من قبله مع حامية من مائتي رجل ، وبمه ذلك بقليل

(١٢) المروزي : اتماع الحظا ، ج ١ ، ص ٢١٤-٢٠٨ .

(١٣) افتكاف : قائد جند الأتراك في بغداد في عهد من الدولة بختيار أمير بني بويه في العراق (٣٥٦ - ٣٦٧ هـ - وتوجه الى الشام بعد غزوته أمام جند الفيلام .)
(المائري ، المرجع السابق ، ص ١٩١) .

(١٤) المروزي : اتماع الحظا ، ج ١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(١٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٧ ، ص ٦٢ .

نجح ريان الخادم أحد قواد المعز في أن ينزل هزيمة بقسوات الروم (١٦) ، غير أن زيسكيس توجه الى فلسطين حيث تحصن الجيش الفاطمي بالقُدس مدافعا عنها وماتما الروم من السيطرة عليها ، فاضطر الامبراطور الى العودة الى القسطنطينية (١٧) .

ومع هذا لم تنقطع الاتصالات الدبلوماسية بين البلدين . فقد وصل الى القاهرة رسول آخر للامبراطور البيزنطي في المحرم سنة ٣٦٥ هـ ، لمقابلة الخليفة المعز . ولم يكتب لهذه المفاوضات الثانية النجاح ، أما بسبب عدم الوصول الى اتفاق حول شروط الصلح ، أو بسبب استمرار الهجمات البيزنطية المتكررة على مدن الشام بالدرجة التي جعلت المعز يقرر أن يجهز جيوشه للمسير الى القسطنطينية في هذا العام ، لكنه توفي في شهر ربيع الآخر قبل أن ينفذ خطته (١٨) .

وقد انشغل العزيز بالله - في بداية عهده - بمعاربة الفتيك ، التركي الذي تحالف مع القرامطة ، واستطاع أن ينزل بهذا التحالف هزيمة منكرة عنه الرملة في المحرم سنة ٣٦٧ هـ ، وأسر الفتيك ، بينما عاد القرامطة منهزمين الى الاحساء (١٩) . وبذلك تخلص العزيز بالله من خطر القرامطة ، واتجه الى فلسطين ، حيث ثار أحد زعماء العرب المسيحيين المخرج بن دغفل بن الجراح الذي استولى على الرملة ، وأعلن العصيان على الفاطميين سنة ٣٧١ هـ ، حينما قلد العزيز الرملة

(١٦) المقيزي : المعصر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

(١٧) ملج : ظهور خلافة الفاطميين وموطئها في مصر ، ص ١٢٤ .

(١٨) المقيزي : لتعط الحتلا ، ج ١ ، ص ٣٣١ .

(١٩) شبيب بن الجوزي : المستر الكشك ، ج ١ ، ورقة ٦١ ، ص ١٠٠ .

- ابن الأثير : المعصر السابق ، ج ٧ ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

- المقيزي : لتعط الحتلا ، ج ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٤ .

الفضل بن صالح (٢٠) ، وتشبهت الحرب بين ابن الجراح والفاطميين ، واستطاع بالتكوين - قائد جيش مصر - ان يترك هزيمة باين الجراح الذي فر الى انطاكية سنة ٣٧٢ هـ ، مستجيرا بالامبراطور البيزنطي الذي زحف جيوشه على الشام . ومن انطاكية دخلت جيوشه حصص ، ثم زحف الى طرابلس ، غير انه عاد الى حصص فنهبطه وأحرقها في جمادى الاولى سنة ٣٧٢ هـ ، عندما اعتنق أهلها عز دفع الأموال له (٢١) .

على أن ابن الجراح عاد الى الشام والتمس الأمان من العزيز بالله فمعا عنه ، وما لبثت جيوش العزيز أن دخلت قنسرين وحمص مرة ثانية ، واقلعت النعوة له بها في ربيع الأول سنة ٣٧٣ هـ (٢٢) . وفي العام نفسه استطاع بكجور - والى دمشق - أن يحاصر حلب ، غير أن الروم أسرعوا لتجدة سعد الدولة - طبقا لسياستهم في الدفاع عن الصليبيين - وحاولوا تطويق عسكر الفاطميين ، مما اضطر بكجور الى فك حصاره لحلب ، بينما سار الروم وزلت قواتهم حصص (٢٣) وهنا وقف البيزنطيون حائلا امام الفاطميين ولم يتمكنوا من التمسح حلب ، وعاد بكجور الى دمشق ليتولى أملاكها ، إلا أنه ما لبث أن عزل من الولاية لسوء سياسته ولغضب ابن كلس عليه لتكيله بأقباغه ، مما دفعه الى أن يوحز الى العزيز بعزله ، فرحل بكجور الى الرقة (على نهر الفرات) وأرسل الى سعد الدولة التماسا بأن يسميه الى ولاية حمص ، فلم يستجب لطلبه (٢٤) .

(٢٠) النواوي : المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

(٢١) القزويني : المصدر السابق ، ص ٢٥١ ، ٢٥٦ - ٢٥٨ .

- النواوي : المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

(٢٢) الذهبي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٤٧ ، ٤٨ .

(٢٣) القزويني : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٨ .

(٢٤) سعد : الفتوح الفاطمية في بلاد الشام والعراق ، ج ١ ، ص ٤٩ .

وقد واصل العزيز بالله سياسته التي ترمي الى تدمير مركز
الفاطيين بالشام ، فجهز أسطولاً حربيًا للسيطرة على سواحلها ،
وليقف في وجه الروم ، الا أن حريقاً شديداً في الاسطول الفاطمي
قرب اقلاته ، قدس معظم قطعه ، وعطل سير الحملة - هذا بينما
فصلت الى مصر في العام نفسه (٢٧٧ هـ / ٩٨٧ م) ، رسل
الامبراطور باسيل الثاني تحمل هدية الخليفة العزيز وتطلب عقد
صالح بين الدولتين فأجابهم العزيز ، واشترط عدة شروط التزموا
بها كلها ، وهي :

- ١ - أن يطلق البيزنطيون سراح جميع الأسرى المسلمين .
 - ٢ - أن يطلب للعزيز في جامع القسطنطينية كل جمعة .
 - ٣ - أن تعود العلاقات التجارية بين مصر وبيزنطة ، وأن يصدروا
الى مصر كل ما تحتاج اليه من بضائع الروم .
 - ٤ - أن تكون مدة هذه الهدنة سبع سنين (٢٥) .
- وظل بكجور أثناء اقامته يواصل جهوده للاستيلاء على حلب من
المسلمين ، ونجح في استمالة ممالك سمر البصرة اليه ، كما أرسل
الى العزيز ليحصل على تأييد الفاطيين له ، وأطمعه في حلب ، وقال
في رسالته عن حلب : أنها دخليز العراق ، ومتى أخضعت كان ما يصحها
اسهل منها ، (٢٦) .

وطالب املاكه بالجند والمؤن ، فأمر العزيز واليه بطرابلس
بمساعدة بكجور في حصار حلب . ولا علم سمر الدولة بذلك ،

(٢٥) ابن المنيون : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٩-١٥٢ .

(٢٦) ابن القلائس : المصدر السابق ، ص ٢٤ .

استنجد بالامبراطور باسيل الثاني الذي امر واليه بانطاكية بمعاونته
سعد الدولة والتصدي للفاطيين ونصبت اغرب بين الطرفين (٢٧) ،
فانهزم بكجور وسبق اسيرا الى سعد الدولة فضرب عنقه في ثامن
صفر سنة ٢٨١ هـ وصلبه ، ثم سار فاستولى على الرقة ونهبها (٢٨) ،
بعد ان اعطى الامان لاولاد بكجور ، يسا حرب علي بن الحسين
المصري كاتب بكجور واجتمع بالعزیز باله في القاهرة واقامه بأهميه
الاستيلاء على حلب كما هو عليه فتحها (٢٩) ، فارسل العزیز الى
سعد الدولة يسأله ان يسير اولاد بكجور الى مصر وعنده بقوله له :
« انك متى خالعتنا في ذلك واحتججت فيه ، كنا الحصوص لك ،
وحزنا الصكر اليك ، فهاهنا سعد الدولة رسول العزیز وقال له :
« قل لصاحبك اني سائر اليه » ، غير ان سعد الدولة توفي في شهر
رمضان سنة ٢٨١ هـ ، بعد ان عهد الى ولده أبي الفضائل وأوصى
لؤلؤ الخادم به (٣٠) ، هذا في الوقت الذي سار منجوتكين قائد
جيش الفاطيين صوب حلب ، فكتب أبو الفضائل الى باسيل امبراطور
الروم - وكان اذ ذاك يقاتل البلغار - يحثه على نجدة ، كما بعث
اليه بالهدايا والتحف ، فأمر باسيل واليه على انطاكية أن يسارع
الى نجدة أبي الفضائل ، وعلى ضفاف نهر العاصي داهمت القوات
الفاطمية الروم وانزلت بهم هزيمة ساحقة سنة ٢٨١ هـ ، فارتد
الروم الى انطاكية ، واصل منجوتكين هجومه فنهب انطاكية وقراها
وأحرقها ، ثم عاد فحاصر حلب (٣١) ، وبعد ستة وجيزة ارتد
منجوتكين الى دمشق بحجة نفاذ المؤن (٣٢) .

(٢٧) مرور : الفهرست الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، ص ٥٠ .

(٢٨) التبريزي : انماط الحظا ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

(٢٩) بيبوس للفرادار : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ٢٧٨ .

(٣٠) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٣١) — : نفس المصدر ، ص ٤٩ .

(٣٢) بيبوس للفرادار : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ٢٧٨ .

استمرت العلاقات متوترة بين الفاطميين والبيزنطيين في أواخر عهد العزيز بالله ، وحدثت تحركات بين القوات المتحاربة في البحر سنة ٢٨٣ هـ / ٩٩٣ م وكانت الغاية فيها لغوات العزيز ، كما فشل الروم في محاولتهم مهاجمة الاسكندرية بحرا ولتأمين سواحل مصر أمر العزيز بتدعيم الأسطول الفاطمي ليستطيع رد الهجمات البحرية البيزنطية المتكررة (٣٣) .

وعاد منجوتكين الى حصار حلب بعد أن زوده العزيز بالله الفاطمي بكل ما يلزمه ، ولما صيق الخناق على حلب ، استنجد ابو الفضائل بالامبراطور باسيل الثاني ، وأرسل اليه يوضح الأخطار التي قد يتعرض لها اذا نجح الفاطميون في الاستيلاء على حلب ، وقال له : « متى أخذت حلب ، أخذت أنطاكية ، ومتى أخذت أنطاكية أخذت القسطنطينية » (٣٤) .

وانزعج باسيل الثاني لهجوم الفاطميين على حلب ، وما أن رأى أن الخطر يتهدد بلاده ، حتى سار بقواته - من بلاد البلغار - الى الشام لنجدة الحمانيين تنفيذاً للمعاهدة التي سبق أن أبرمها معهم (٣٥) ، ولقد الحصار عن حلب التي كادت تقع في يد الفاطميين ولحماية أنطاكية التي تعرضت لشارت الفاطميين (٣٦) .

وقد اضطر منجوتكين الى فك الحصار عن حلب والعودة الى دمشق عندما علم بزحف قوات باسيل نحو الشام ، تلك القوات التي نزلت حلب ، وواصلت تقدمها بقيادة الامبراطور ، واستولت

(٣٣) القروزي : تاريخ الخلفاء ، ج ١ ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

- ابو العاصم : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٢٩ .

(٣٤) بيبيرس الموادار : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ٢٧٩ .

(٣٥) ——— : نفس المصدر ، ونفس الصفحة .

(٣٦) القروزي : تاريخ الخلفاء ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .

على حصن شيزو - على مقربة من حماة - ثم حاصرت مدينة طرابلس. غير أنها فشلت في الاستيلاء عليها لاستيصال أهلها في انتحار عنها (٣٧) - فانسحبت القوات البيزنطية إلى أنطرموس ثم أنطاكية ثم كر الامبراطور راجعا إلى القسطنطينية سنة ٣٨٥ هـ / ٩٦٥ م (٣٨). بعد أن هبط سلطان البيزنطيين على معظم ساحل الشام (٣٩) .

ولما تخرج موقف الفاطميين بالشام قرر الوزير بالله الخروج بنفسه على رأس قواته لاستعادة حبيبة الفاطميين ، وأمر بإعداد حملة برية وأخرى بحرية لهذا الغرض ، فبذل عيسى بن مسطورس جهودا كبيرة في إعداد الحملة غير أن حريقا مروعا شب في قطع الأسطول المصري قبل إقلاعه من ميناء القدس فحرق معظمه في ربيع الثاني سنة ٣٨٦ هـ (٤٠) . وثار عامة المسلمين بالقاهرة ومصر (الفسطاط) لهذا الحادث الجلل ، واتهموا تجار الروم الواردين بالبضائع إلى مصر (٤١) ، كما اتهموا الأمصارى الروم بتدمير مؤامرة لأحراقه (٤٢) ، وعمت القاهرة موجة من الاضطرابات العنيفة ، قتل فيها حوالي مائة من الروم ، ونهب العامة الحي الذي يقيمون به . وكان على مقربة

(٣٧) ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ٤٢ ، ٤٤ .

(٣٨) يمين القوادس : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ٧٧٩ .

- أبو الحسن : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٢١ .

(٣٩) سرور : مياسة الفاطميين الخليفة ، ص ٢٤١ .

(٤٠) الخروزي : أكتاف الحنك ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .

(٤١) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

(٤٢) الخروزي : أكتاف الحنك ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .

من دار الصناعة - إلا أن الخليفة العزيز بالله أمر عيسى بن نسطورس باتخاذ اجراءات أمن صارمة للقضاء على الفتنة ، فحُرب بيد من حديد على أيدي متبوعي الشعب من العامة ، وقتل بعضهم ، كما صُجن واعتقل الكثير منهم (٤٣) .

وعلى الرغم من غضب عامة المسلمين لهذا الحادث ، فإن اليهود ونصارى مصر لم يتعرضوا لأية أضرار ، بل إن العزيز بالله أمر برد ما أخذ من أموال الروم اليهم ، رغم اعترافاتهم بارتكابهم لحادث حرق الأسطول (٤٤) وليس لنا من تعليق على ذلك إلا أنه عهد العزيز بالله الذي تميز بالتسامح التام والمطلق . . .

وفي نهاية عهد الحاكم بأمر الله لم يحم الفاطميون والبيزنطيون باتخاذ أية اجراءات استنزائية تسيء الى العلاقات فيما بينهما - وبدأ البيزنطيون هذه الفترة بشيء من التسلل ، إذ رفض الإمبراطور باسيل الثاني مساعدة منجوتكين - الذي أعلن عصيانه على الفاطميين - ففقد منجوتكين هزيمة ساحقة قرب عسقلان في جصادي الأولى سنة ٣٨٧هـ ، واضطر الى طلب الأمان ، ودخل مصر وخلع عليه (٤٥) .

وبعد فترة من الاضطرابات بين المشاركة والمنازية تولى برجوان الخادم الوساطة ، وعهد الى كاتبه فهد بن ابراهيم النصراني بتصريف أمور الدولة والنيابة عنه ، فأصبح المنفذ الحقيقي لسياسة الدولة (٤٦) .

- (٤٣) الاطلاق : المصدر السابق ، ص ١٧٩
 (٤٤) الاطلاق : المصدر السابق ، ص ١٧٩
 - المقريزي : اتمام الحلة ، ج ١ ، ص ٣٩٠
 (٤٥) الاطلاق - المصدر السابق ، ص ١٨٠-١٨١
 (٤٦) انظر الباب الأول ، د

وخلال تلك الفترة من الاضطرابات في مصر ، حدث أيضا ان نار اهل دمشق على ابي تميم سليمان بن فلاح والى دمشق وطردوه منها ، بينما قام اهل مدينة صور سنة ٣٨٧ - ٣٨٨ هـ / ٩٩٧ - ٩٩٨ م بثورة على الادارة الفاطمية ، وقتلوا جماعة من المغاربة ، والتفوا حول رجل صلاح يعرف بعلاقة ، أعلن الثورة وتمرد على الفاطميين ، كما أعلن استقلال صور . وضرب النقود باسمه ، ونقش عليها عبارة (عز بعد فاقة للأمير علاقة) (٤٧) . وأرسل الى الامبراطور باسيل الثاني يطلب مساعدته ، ويطلب استعادته لتسليم صور الى الروم ، وراى الامبراطور باسيل ان ينتهز هذه الفرصة للقضاء على نفوذ الفاطميين بالشام . فاستجاب لطلب علاقة وأرسل أسطولاً حربيًا بيزنطيا الى صور لتدعيم ثورة أهلها ضد الفاطميين ولما استنحل أمر الثورة أرسل برجوان أسطولاً حربيًا وجيشا كبيرا لاختلال الثورة في كل من دمشق وصور ، وتدعيم النفوذ الفاطمي بهما (٤٨) . واستطاع الأسطول الفاطمي أن يلحق بالأسطول البيزنطي هزيمة ساحقة ، وأن يأمر عددا من سفنه ، كما استطاعت القوات الفاطمية أن تحتل صور ، وتحاصر علاقة في أبراجها ، وتشد الحصار عليه ، وتضطره الى التسليم وطلب الأمان (٤٩) .

وحكنا سقطت مدينة صور في يد القوات الفاطمية ، واخذ علاقة أسيرا الى القاهرة في جبادى الآخر سنة ٣٨٨ هـ ، وضعه

(٤٧) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

- ابن اللاتني : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٤٨) _____ : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٤٩) الانطاكي . المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

مجموعة من الأسرى . حيث شهر به ، وعلبه ؛ تم قتل هو وأصحابه (٥١) .

وإذا كانت القوات البيزنطية قد فشلت في مساعدة ثورة علاقة ، فإن القاطنين قد أحكموا سيطرتهم على صور . وواصلت جيوشهم زحفها نحو دمشق فدخلتها ، ومنها اتجهت إلى أقامية . حيث أنزلت بالقوات البيزنطية هزيمة ساحقة في رجب سنة ٢٨٨ هـ . وتمسكت فلول البيزنطيين حتى أبواب أطاكية . وحاصرتها ، ثم ما لبثت القوات القاطمية أن عادت إلى دمشق (٥٢) .

وعلى الرغم من انتصارات قوات الحاكم بأمر الله على القوات البيزنطية بالشام ، إلا أن برجوان رأى أن يهائن الروم لكي يتفرغ لمعالجة الأحداث والاضطرابات الداخلية في مصر ، وليوفر الظروف لاستقرار الأمور في بلاد الشام . لهذا أرسل برجوان إلى الامبراطور باسيل الثاني يعرض عليه عقد صلح والقرار هدنة بين البلدين . كما أرسل إلى الامبراطور هدايا سلك فيها سبيل التآلف والملاطفة (٥٣) . وقد رجب الامبراطور بهذه الدعوة ، وأنفذ رسولين إلى الحاكم لعقد الهدنة والاتفاق على شروط الصلح (٥٤) .

وبينما كانت المفاوضات على وشك أن تنبسط في القاهرة رأى الامبراطور أن يرد على هزيمة قواته في أقامية سنة ٢٨٨ هـ / ٩٩٨ م ، فخرج بنفسه على رأس قواته غازيا لبلاد الشام في شوال من السنة

(٥١) الططلي : المصدر السابق ، ص ١٨٢

(٥٢) ابن اللاتني : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٥٣) ملحد : للحكم بأمر ٥١ هـ ، ص ١٢٢ .

(٥٤) الططلي : المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

التالية . لوقف وحف القوات الفاطمية ، ولاحطات ضغط عسكري وسياسي لتحسين موقف وفد بلاتيه في المفاوضات ، قامت قوات الامبراطور على جسر الجديد ، وشيرز وحسن أبي قبيس ومصيف (٥٤) ، تم دخول حصص ، وسار بعدها الى بعلبك مما دفع جيش ابن الصمصامة أمام ضغط القوات البيزنطية الى أن يستجده ببرجوان في القاهرة وبوالة الشام ، فأرسلت اليه قوات ضخمة انضمت الى قواته بمشقق (٥٥) .

وكادت مفاوضات القاهرة تنهار ويقتل مشروع الصلح لولا المثل الذي منيت به قوات الامبراطور في هجومها الجديد على الشام وبخاصة أمام طرابلس ، واضطراره للانسحاب في المحرم سنة ٣٩٠ هـ (٥٦) ، فارتد الامبراطور الى أنطاكية عن طريق اللاذقية (٥٧) ، ومنها توجه بجيوشه نحو أرمينية (٥٨) ، ليواجه

-
- (٥٤) جسر الجديد : قرب دمشق ، شيرز : كلمة قرب للمرة بينها وبين حماة حسن أبي قبيس : حصن مقابل لشيرز ، مصيف : حصن مشهور للأسماعيلية قرب طرابلس ، (المناوي ، المصدر السابق ، ص ٢٢١ جلدية ١) .
- (٥٥) الانتاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٢ .
- المناوي : المرجع السابق ، ص ٢٢١ .
- (٥٦) الانتاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٢ .
- مرورد : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٧ .
- المناوي : المرجع السابق ، ص ٢٢١ .
- (٥٧) الانتاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٤ .
- (٥٨) المقيزي : تامل الحنقا ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

الخطر البلغاري بينما آثر إقامة سلام على حدود بلاده الجنوبية مع
الفاطميين (٥٩) *

وبانسحاب يامبيل الثاني من الشام تهيأ الجو مرة أخرى
لاستئناف مفاوضات الصلح بين الطرفين ، ففي جواد الآخرة سنة
٣٩١ هـ / مارس ١٠٠٢ م استقبلت القاهرة السفير البيزنطي
- المكلف بالمفاوضات مع الفاطميين - احسن استقبال وسقط مراسم
احتفال رائعة يصفها المقرئ بقوله : « فحششت له العساكر من
سائر الأعمال ، ووقفوا صفين والحاكم واقف لبراهم ، وسار الرسول
بين العساكر الى باب الفتوح ، ونزل ومنى الى القصر يقبل الأرض
فى طول المسافة حتى وصل الى حضرة الحاكم ، وقد فرش ايوان
القصر وعلق فيه تماثيل غريبة ، وعلقت صناديق الايوان المسجلة ،
وهي ورقة مطعمة بفاخر الجواهر والنفيس من كل أصنافه ، فأضاه
لها ما حوله ، ووقعت عليها الشمس قلم تطلق الأبصار تأملها كلالا ،
وقبل الأرض ، ودفع الكتب وعرض الهدية (٦٠) »

واكتتب الحاكم بأمر الله أريسطوس بطريرك بيت المقدس
- وهو خال ست الملك أخت الحاكم من أم أخرى مسيحية - ليكون
متمميا للحكومة الفاطمية فى المفاوضات ، وأعطى البطريرك صلاحيات
كاملة كفاوض مصرى ، وقيل للسفير البيزنطي : « ما يقرره هنا
البطريرك خان مولانا مريض ومرضى به » (٦١) *

ثم جمع بينهما وخلع على كل واحد منهما خلعاً نفيسة ، وتوجه

(٥٩) عثمان : الحكام بأمر ٥١ ، ص ١٧٨ .

(٦٠) المقرئ : اقتطاع الصلح ، ج ٢ - ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٦١) الانطاكى : للسند السابق ، ص ١٨٤ .

السفيران البيزنطي والفاطمي الى القسطنطينية لانتهاء المرحلة الأخيرة من المفاوضات . ولتقرير الهدنة وعقد للسالة ، . وللتصديق على المعاهدة بعد عرضها على الامبراطور ، وقام اريسطيس بهذه المهمة . وقد تم عقد معاهدة سلم وصداقة بين الدولتين في سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م ، وكان من شروط الصلح ان يتمتع الروم في جميع أنحاء الدولة الفاطمية بالحرية الدينية ، ويسمح لهم بتجديد كنائسهم (٦٢) .

وهكذا نجح اريسطيس بطريرك بيت المقدس في القرار الهدنة بين مصر وبيزنطة ، غير أنه توفي بعد أن أمضى أربع سنوات في العاصمة البيزنطية (٦٣) .

لكن مجموعة المراسيم والسجلات الدينية والاجتماعية التي أصدرها الحاكم بأمر الله - والتي سبق الإشارة إليها - والتي ضيقت الخناق على أهل النعمة ومنهم المسيحيون ، حلت من الحرية الدينية لأهل النعمة بوجه عام والروم الملكاتية بوجه خاص ، وكذلك سياسته ازاء الكنائس والأديرة وهدم الآلاف منها ، وخاصة كنيسة القيامة بالقس ، أدت الى توتر العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين ، والى قطع الامبراطور باسيل الثاني لعلاقته بالدولة الفاطمية حينما وصلته أخبار هذه السياسة التي انتهجها الحاكم ازاء النصارى . وعلى الرغم من ذلك فقد ظل الحاكم متمسكا بالهدنة مع الامبراطور ،

(٦٢) الانطاكي : المصدر السابق . ص ١٨٤

- ملحد : الحاكم يثو ١١٣ . ص ١٣٣ .

- الخريوطي : مصر العربية . ص ٢٠٤ .

(٦٣) الانطاكي : المصدر السابق . ص ١٨٤ .

وأرسل اليه في سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م هدية قيمتها مائة آلاف دينار (٦٤) . ثم ما لبث أن أرسل الحاكم بأمر الله سفارة الى القسطنطينية في أواخر العام التالي برئاسه عبد الغنى بن سعيد ، ومعه هدية فخرة الى الامبراطور . وبعد نحو من عمام وفي جسد الأخيرة سنة ٤٠٥ هـ / أكتوبر سنة ١٠١٤ م عاد السفير الفاطمي ومعه سفير بيزنطي بهدية من الامبراطور كدليل على تدعيم علاقة حسن الجوار والصداقة بين الدولتين وقد استقبل السفير البيزنطي في القاهرة استقبالا رائعا وسط مظاهر الفخامة والتكريم (٦٥) .

عل أن الهدنة بين الدولتين ما لبثت أن تعرضت مرة أخرى لخطر نقضها من جانب البيزنطيين ، حينما بلغ الامبراطور باسيل الثاني أن ملك الأتشاري - (لعل أصلهم من الهنغار أو البلغار أو الروس) - أرسل الى الحاكم بأمر الله يعرض عليه التحالف معه لشن حرب مزدوجة ضد الدولة البيزنطية وسات العلاقات بين الدولتين ، لدرجة أن الامبراطور قطع العلاقة التجارية مع مصر والشام ، واستعد لمهاجمة الفاطميين ، لولا اختفاء الحاكم بأمر الله في أواخر شوال سنة ٤١١ هـ / صراير سنة ١٠٢١ م ، واعتلاء ابنه الظاهر لايزاز دين الله عرش الخلافة ، وامرأع ست الملك الى ارسال سفارة الى الامبراطور ، اختارت لرئاستها البطريرك نقفور - وهو من الملكانيين - بطريرك بيت المقدس ، للنيل على تخفيف حدة التوتر بين الدولتين ، وتوطيد أواصر الصداقة بين مصر وبيزنطة (٦٦) ،

(٦٤) المفريزكي . اتعاظ الحنفا . ج ٢ . ص ٩٩ .

(٦٥) المفريزكي - المستدر الصالح . ج ٢ . ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٦٦) ماجد : للحاكم بأمر الله . ص ١٢٢ ، ١٢٤ .

_____ . ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر . ص ١٤٢ .

_____ . ص ٢٤٢ .

ولإطلاق الإمبراطور على العديد من الاحترامات التي اتخذتها الدولة الفاطمية لرفع الحيف عن النصارى ، وإطلاق الحرية الدينية لأهل النمة ، والسماح للنصارى بإعادة بناء وتجديد الكنائس وسائر البيع في مصر والشام ، مع تجديد كنيسة القيامة بالقدس ، ورد ما أخذ من أموال المسيحيين وأوقاف الكنائس ، كما كلفت سبت الملك البطريرك بأن يطلب من الإمبراطور عودة العلاقات بين الدولتين ، واستئناف العلاقات التجارية بينهما ، ويعلم أن المسيحيين من رعايا الدولة الفاطمية قد شملتهم الدولة برعايتها ورحمتهم بحمايتهم ، وأن مصر لديها الرغبة في إقامة علاقات حسن جوار وصداقة مع مملكة (٦٧) .

وقابل البطريرك نقفور الإمبراطور بالقسطنطينية ، وكانت هذه السفارة تؤت ثمارها بسبب التفاهم الذي تم بين نقفور وأفسطانيوس بطريرك القسطنطينية الذي أشاد بزميله سفير الفاطميين . وبينما كان نقفور يجري المفاوضات مع الحكومة البيزنطية في القسطنطينية توفيت سبت الملك ، وأخطر البطريرك نقفور بذلك ، فتوقفت المفاوضات ، لأن الأميرة الفاطمية كانت « أول من يهملها الأمر ، وأنها كانت التي تنتظر الجواب » (٦٨) ، وأنها قبل أي شيء كانت أول من شجع على القيام بهذه السفارة بحكم مسئوليتها عن إدارة الدولة في تلك الفترة . وعاد نقفور إلى مصر دون أن يبرم علناً أو يوقع على اتفاق (٦٩) .

(٦٧) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٤٢ .

(٦٨) الانطاكي : نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٦٩) — : نفس المصدر ونفس الصفحة .

وعندما تحول أبو القاسم الجرجاني الوزارة في مصر سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م ، وأصل سياسة مهادة الروم وتوصين العلاقات معهم حتى يتمكن من إعادة النظام والقضاء على الاضطرابات في الشام (٧٠) . ويذكر المقرئ أنه قد تم عقد مدينة بين الخليفة الظاهر والامبراطور قسطنطين الثامن في حلة الشام وبوجها تم ما يلى :

١ - تفردت الخطبة للخليفة الظاهر ببلاد الروم ، وفتح جامع القسطنطينية للمسلمين هناك ، وزود الجامع بالمصر والقناديل ، كما عين مؤذن مقيم به .

٢ - أذن الخليفة الظاهر في فتح كنيسة القيامة ببيت المقدس ، وسمح للملك النصارى بإرسال الأموال وما يلزم من آلات وأثاث لإعادة كنيسة القيامة الى ما كانت عليه من فخامة وأبهة (٧١) .

وكلف لهذه المدينة الرحا الطيب على أهل اللغة في مصر وجميع أقاليم الدولة الفاطمية ، إذ أن كثيرا من النصارى الذين كانوا قد تظاهروا باعتناق الإسلام أيام الخليفة الحاكم بأمر الله قد ارتدوا الى دين النصرانية (٧٢) ، انطلاقا من مبدأ حرية العقائد الدينية لأهل اللغة ولحق كل علاقة طيبة بين الروم والفواطم .

لكن مدينة حلب ظلت دائما مصدرا للصراع بين المولتين . فقد حاول البيزنطيون الاستيلاء عليها سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م ، وكشفت

(٧٠) الخاورى : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٧١) المقرئى : اتصال الحظا ، ج ٢ ، ص ١٧٦ .

(٧٢) — : نفس المصدر . نفس الصفحة .

محاولتهم هذه لتتورد بعض قادة الجيش البيزنطي (٧٢) وفي سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٢٦ م استطاع جيش بيزنطي الاستيلاء على امامية من املاك الفاطميين (٧٤) ، غير أن أنفوشتكين الترتي الذي اشتهر بالذميرى قائد الجند الفاطمي استطاع استرجاع معظم البلاد الشامية الا مدينة حلب التي طلب حاكمها نصر بن صالح بن مرداس في جنادى الأولى سنة ٤٢٢ هـ ، حماية الامبراطور البيزنطي رومانوس الثالث ، على أن يدفع اليه حسمائة ألف درهم سنويا (٧٥) .

وعلى الرغم من استمرار حالة الحرب بين الدولتين وقوت العلاقات بينهما ، فقد جرت مراسلات بين قادة الجيش الفاطمي في دمشق ، وبين حاكم انطاكية لتقيد هدنة بين مصر وبيزنطة . وكانت المفاوضات التمهيدية تتوقف بينهما ، بسبب استيلاء والى انطاكية على حصن ينكسراقول في شهر رجب سنة ٤٢٣ هـ . وتعقد الموقف ، الا ان المفاوضات استمرت بين الطرفين واستمر الامبراطور البيزنطي - كما يذكر الانطاكي - ثلاثة شروط تكون اساسا لاية هدنة تقيد بين الدولتين وهي :

أولا : أن يعمر الملك (الامبراطور رومانوس الثالث) كنيسة القيامة ببيت المقدس ، ويجهدها من ماله ، يرصد بطريركا على بيت المقدس وأن تعمر النصارى جميع الكنائس الخراب في بلاد الظفر .^١

ثانيا : أن لا يتعرض الظاهر لحلب ، ولا يروم هو ولا أحد من ذوى

(٧٢) الخاوي : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٧٤) ضرر : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٥ .

(٧٥) الخاوي : انماط الخطا ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

طاعته لقتالها ولا التعرض لها بمكرهه ، اذ هي بلاد قد تحرر
عليه اتاوة ويحمل اليه في كل سنة مال الهدنة . *

ثالثا : هـ أن لا يساعد صاحب منقلية على محاربته للروم ، ولا لغيره
من جميع من يروم الفساد في شيء من أعمالهم ، ولا ينجده ،
ولا يقويه ، وهو أيضا يلزم له مثل ذلك الشرط هـ (٧٦) *

وبهذا تكون هناك أمس قوية لقيام واستمرار علاقة صداقة
وحسن جوار بين مصر وبيزنطة ، ولا تتعرض مستقبلها
لما يفسدها (٧٧) *

وبجانب هذه الشروط السابقة تناولت المفاوضات عدة نقاط
على جانب كبير من الأهمية ومنها :

١ - عرض الامبراطور رومانوس الثالث على الخليفة الظاهر ، أن
يطلق الامبراطور سراح الأسرى من بلاد الاسلام الذين في
قبضة الروم ، في مقابل أن يسمح له باعادة بنائه كنيسة
القيامة بالقدس *

٢ - التمس الامبراطور أن يصدر الخليفة الظاهر عفوا شاملا عن
حسان بن الجراح - الذي كان قد خرج على طاعة الفاطميين
ولجأ الى الروم - ، وأن يسمح له بالعودة الى بلاده ورد اقطاعاته
اليه ، شريطة أن يلتزم بحسن الطاعة والسياسة مع الفاطميين
ولا تعرض ابن الجراح لما يكره *

(٧٦) الاملاك : المصدر السابق ، ص ١٧٠ ،

(٧٧) — : نفس المصدر ، ص ١٧٢ -

٣ - كما عرض رومانوس الثالث أيضا على الظاهر لاعزاز دين الله ان يدفع اليه حصن شيزر اذ هو من بين عمل المسلمين ، ويعطيه الظاهر لاعزاز دين الله حصن اقاميه عوضا عنه . اذ هو قريب من بلاد الروم ومجاور لمصونهم ، ان رغب في ذلك (٧٨) .

فقبل الخليفة الظاهر ما شرطه رومانوس الثالث ، ان يتشاء كنيسة القيامة على نفقته ، ومن تعيين بطريرك بمرقة الامبراطور لبيت المقدس ، ومن تجديد النصارى بقية الكنائس سوى ما كان منها قد عمل مسجدا . ويكون اطلاق الاسرى المسلمين في بلاد الروم عوضا عن ذلك . كما قبل الظاهر ما اشترطه الامبراطور بعدم تقديم المساعدة والاعاضة لاي عدو من اعداء الدولة البيزنطية وبخاصة صقلية ، مع المعاملة بالمثل ، لكنه رفض الشرط الخاص بحلب . واجتج عليه بانها ثغر جليل من ثغور المسلمين ، لا ينبغي ان يكون في حوز الروم ، والتمس ان يهمل ذكرها بالجملة فية تنقد عليه الهدنة (٧٩) .

ولم ير قبول حسان بن الجراح والعلو عنه ، ولا رغب في اخذ شيزر والتعويض عنها بأقلية (٨٠) .

وكانت حلب هي الصخرة التي تحطمت عليها المفاوضات التي جرت بين الفولتين اذ لم يفتن رومانوس الملك الى الرجوع عما اشترطه في معنى حلب ، وجزم أنه لا يقبل الهدنة الا عليه ، وترددت

(٧٨) الاطلاق : المصدر السابق ، ص ٢٧١ .

(٧٩) — : المصدر السابق ، ص ٢٧١ .

(٨٠) — . نفس المصدر ونفس الصفحة .

المكتبة بين الجهتين في هذا المعنى في أيامه * (٨١) . وتمسك كل طرف بموقعه من حلب * مما أدى إلى رفض رومانوس الثالث عقد معاهدة سلام مع الخليفة الظاهر (٨٢) . إذ يذكر الانطاكي أن أمر هذه المفاوضات لم يستقر إلا بعد ثلاث سنين ونصف وفي عهد الامبراطور ميخائيل الرابع (٨٣) .

وفي سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م عقدت الهدنة بين الخليفة الظاهر وبين الامبراطور ميخائيل الرابع لمدة عشر سنين متوالية (٨٤) . ويظهر أن الهدف من هذه الهدنة هو ألا يتدخل البيزنطيون في سبيل استيلاء الفاطميين على حلب ، وألا يؤثر الروم القلائل ضد الحكم الفاطمي في بلاد الشام ، أو يعرضوا أمراء الشام على الفاطميين هناك . وقد تحقق هذا الهدف ، عندما رفض الامبراطور البيزنطي مساعمة نصر بن صالح بن مرداس في سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م في نزاعه مع الفاطميين ، وطلب منه الدخول في طاعة المستنصر ، فاضطر نصر إلى استرضاء الفاطميين وكسب ودهم (٨٥) . ولما وقع النزاع بين العزيز في دمشق وبين نصر بن صالح بن مرداس مرة أخرى

(٨١) الانطاكي . المصدر السابق . ص ١٧١ .

(٨٢) حليد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر . ص ١٤٧ .

(٨٣) الانطاكي : المصدر السابق . ص ١٧١ .

(٨٤) القريظي : انطاط الحنقا . ج ٢ . ص ١٨٢ . وفي هذا يتعلق القريظي مع

الانطاكي بالنسبة للمفاوضات التي سبق الإشارة إليها ، والتي لم يستقر الأمر

عليها إلا في عهد الامبراطور ميخائيل الرابع (انظر الانطاكي . المصدر السابق ،

ص ٢٧٦) .

(٨٥) القريظي : انطاط الحنقا . ج ٢ . ص ١٨٦ .

في سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م وحمل الأول رأس الثاني الى دمشق ،
 ودخل حلب ، لم يتنهل الروم (٨٦) . ولهذا فان الجرجاني وزيد
 المستنصر بالله قابل ذلك بمحاولة استرضاء الروم ، وتحسين
 العلاقات معهم . وعقد هدنة في تلك السنة بين الخليفة المستنصر
 والامبراطور ميخائيل الرابع انعكس اثرها على أهل الدقة في اتجاه
 الدولة الفاطمية اذ اتفق على أن يسمح للامبراطور البيزنطي باتمام
 اصلاح وتصير كنيسة القيامة بالقدس مقابل أن يطلق الامبراطور
 سراح خمسة آلاف من أسرى المسلمين ، فاضل الامبراطور سراح
 الأسرى ، وارسل الى بيت المقدس من عبر كنيسة القيامة ، وأغلق
 كثيرا من الأموال في اعادة تجديداتها وتصويرها (٨٧) ، وهكذا شهدت
 الفترة في أوائل عهد المستنصر بالله تحسنة في العلاقات الفاطمية
 البيزنطية (٨٨) .

لكن البيزنطيون نفذوا الهدنة في سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م
 وشنت قواتهم الغارات على حلب واقامية . وأوقفوا هزيمة بالقوات
 الفاطمية (٨٩) . غير أن العزيز ما لبث أن الحق بالبيزنطيين الهزيمة
 فيما بين حماة واقامية وأسر كثيرا من قواتهم ، وبينهم ابن عم
 الامبراطور ، فاضطر الروم الى الانسحاب في طلب الهدنة . واقتضاه
 ابن عم الامبراطور مقابل مبلغ كبير من المال وعدد لا بأس به من أسرى

(٨٦) المروزي : اتعاظ السلطان ، ج ٢ ، ص ١٨٧ .

(٨٧) للمعري : المختصر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٨٤٨ .

(٨٨) صبور : عصر في عصر الدولة الفاطمية ، ص ١٦٩ .

— : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٤ .

(٨٩) المروزي : اتعاظ السلطان ، ج ٢ ، ص ١٨٨ .

المسلمين وبعدها أثر الروم المهلك مع الفاطميين (٩٠) . وبذل
الإمبراطور قسطنطين التاسع جهده في الحفاظ على استمرار العلاقات
الودية بينه وبين القاهرة ، فأرسل في سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م
هدية ثمينة للخليفة المستنصر ، قيمتها ثلاثون قنطارا من
الذهب (٩١) ، قيمة كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية (٩٢) ،
وكان من جملة ما بخل وحبان من أحسن الدواب وأغلاها قيمة ،
كل منهما عليه ثوب ديباج رومي منقوش ثقيل ، وخمسون بشلا عليها
مائة صندوق مصفحة بالفضة ، فيها آنية الذهب والفضة ، منها مائة
فلعة يميناء - أى مموحة بالليناء - ، وفيها من الديباج والستنس
والبرسيم والعصائم المملعة ما يقدر على مثله ، فعرض عنها بشلها ،
واشتملت هدية مصر إلى الإمبراطور من الجواهر والمسك والمود
والطراز - عمل تينيس ودمياط - ما هو أكثر قيمة مما بعته (٩٣) .

وتسعيها لاستمرار العلاقات الودية بين الدولتين ، تجددت
الهدنة بين مصر وبيزنطة سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م ، وتبادل الخليفة
الفاطمي الهدايا مع الإمبراطور البيزنطي حسيمة جرت به العادة (٩٤) ،
والتزم الإمبراطور بشروط ما عقد بين الدولتين من معاهدات سابقة ،
وللحيلولة دون تكرار صفو العلاقات السيادية بين الدولتين ،

(٩٠) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٩ .

— الخاقاني : المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .

(٩١) المقريزي : إتحاف الخفايا ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

(٩٢) صرود : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٥ .

(٩٣) المقريزي : إتحاف الخفايا ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

(٩٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٤٦ .

وتعميقا لمزيد من العلاقات الودية بينهما ، فإن الامبراطور البيزنطي سلم الى المستنصر بالله رسول المزمز بن باديس - الذي خلع طاعة الفاطميين سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م - ، وكان في طريق عودته من بغداد مارا ببلاد الروم ، بينها أرسل المستنصر بالله هداية عظيمة الى الامبراطور قسطنطين التاسع ، ورد الامبراطور بدوره على الخليفة المستنصر في عهد وزارة اليسازوري سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م مع رسول ورد من البحر (٩٥) .

وقد انعكست طبيعة العلاقات الطيبة بين الفاطميين والروم على المسيحيين في العهد النوبلة الفاطمية ، فيذكر القاضي الرشيد بن الزبير في « كتاب النخائر والتحف » أن المستنصر بالله الفاطمي سار مع السفير البيزنطي سفنا من اسطول الشام لمرافقة وحراسة السفير من تنيس الى يافا ، حتى يستطيع أن يصل في كنيسة بيت القدس ، ويوصل هدية انفضها عنه الامبراطور الى كنيسة القيامة ، « وكان في حملتها بدنة من الذهب مرسعة بأنواع الجواهر النفيس الفاخر ، وصليبان من الذهب طول كل واحد منهما ثلاثة أذرع ونصف في عرض مثلها ، وورديها قنطار مكلل بأنواع الياقوت والجوهر ، وصواني كثيرة من الذهب مكللة أيضا بفرائب الجوهر ، وكاسان من الذهب ، على كل منهما بمشرق وطلاخرا بالبيقداي ، وثريات عدة من الذهب بسلاسلها من الذهب ، في أوساطها فراخ من البللور ، مكللة بالجوهر ، ومستور طوال من الدرياج العظيم المرقق بالذهب ، المكلل بالجوهر ، وأشباه ذلك من الآلات في الكنائس » (٩٦) .

(٩٥) القروزي : التملط الحظا ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

(٩٦) الرشيد بن الزبير : المسير للمرقق ، ص ٧٧ .

وانتهز المستنصر بالله الفاطمي فرصه صفاء العلاقات بين العولتين للعمل على انعاش الوضع الاقتصادي في مصر ، فأرسل على أثر الحاجة التي حلت بالبلاد ابتداء من عام ٢٤٥ هـ / ١٠٥٣ م الى امبراطور قسطنطين التاسع يطلب منه امداد مصر بالفضال (٩٧) ، ولم يتردد الامبراطور قسطنطين التاسع في الموافقة على ارسال ما طلبه المستنصر بالله من القمح ، غير أنه توفي فجأة في سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م ، واشترطت الامبراطورية تيودورا التي تولت العرش من بعده عقد معاهدة دفاع مشترك ، فتعهد فيها مصر بمساعدة القسطنطينية ضد أي اعتداء مقابل حصول مصر على الفضال من بيزنطة . ورفض البيزوري الوزير الفاطمي حشد مطلب الامبراطورية ، فاضطرت بطورها الى الفاء صفقة القمح مع مصر ، ومنعت القضاء رسول الفاطميين بالقسطنطينية من الخطبة باسم الخليفة الفاطمي في جامع القسطنطينية . بينما صرحت لرسول العباسيين الذي كان موجودا بالمعصرة البيزنطية بالخطبة للقيام بالخليفة العباسي . ورد المستنصر بالله على ذلك بأن ارسل الى كنيسة القيامة بالقنس من اخذ ما فيها من تحف و ذخائر وأثاث ، وأخرج البطريرك منها الى دار مفردة ، وأطلق أبواب الكنائس في مصر والشام ، وطالب الزعماء بالجزية لأربع سنين ، كما زاد على النصارى في الجزية (٩٨) ، ومنع حصول المبحجين المسيحيين الى بيت المقدس (٩٩) ، وأدت كل هذه

(٩٧) للمعبر : المصدر السابق ، ج ٢٠ ، ورقة ٩٧ ، ٩٨ .

(٩٨) ابن عسك : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦ - ٧ .

... الماروني : انماط الخط ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

... : الخط ، ج ١ ، ص ٢٢٤ .

(٩٩) اسد رستم : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٨ .

الاجراءات الى تقييد الحرية الدينية للمسيحيين في مصر والشام والى
توتر العلاقات بين الدولتين .

وهكذا نقضت الهدنة ، وتنازم الموقف بين مصر وبيزنطة ،
ريخاسة عندما علم المستنصر بالله باستعداد البيزنطيين لقتاله .
فأمر قائده مكيك الدولة الحسن بن علي بن ملهم الكتامى بالسير الى
اللاذقية فحاصرها . وجرى محاولات من جانب البيزنطيين لتفادي
الحرب ، لكنها باءت بالفشل أمام قوة حصار الفاطميين لللاذقية التي
لم يثبت أن وقعت في أيديهم . كما عانت القوات الفاطمية في أعمال
أنطاكية ، وواصلت توغلبا في بلاد الروم . وبينما كانت الحرب
مستمرة بين الدولتين ، كانت الرسل والمكاتبات تتردد بين الطرفين
حتى تم الاتفاق على وقف القتال بينهما ، على أن يدفع مبلغ نصف
وثلاثين ألف دينار الى مصر كجزية . ولكن عندما علم الروم بمقتل
اليازورى سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ردوا الجزية الى القسطنطينية
قبل وصولها الى مصر ، بل زينت بلاد الروم ابتهاجا بموته ، كما
تسكن الروم من هزيمة ابن ملهم وأمره مع بعض قواته (١٠٠) .

وموت اليازورى أخلت علاقة مصر بالشام ومن ثم علاقتها
بالروم تضعف نتيجة لزحف السلاجقة على معظم البلاد الشامية ،
وحلولهم محل الفاطميين (١٠١) . وكان السلاجقة في ذلك الوقت
أشد خطرا على البيزنطيين من الفاطميين الذين أصبحوا يواجهون في
مصر العديد من المشاكل الداخلية والخارجية (١٠٢) .

(١٠١) الفريزي : أعمال السنة ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ .

(١٠٢) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ .

الفاطميون وبلاد النوبة

٠ من الأمور الجديرة بالبحث موقف الفاطميين منذ عهد الخليفة المعز من بلاد النوبة ، فعندما غزا جوهر الصقلي مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م كانت بلاد النوبة تتمتع بالاستقلال التام في عهد ملكها المسيحي « جورج الثاني » ، وكانت المسيحية منتشرة في تلك البلاد انتشارا كبيرا (١٠٣) .

وبعد مجيء الفاطميين إلى مصر واستقرارهم بها لم يكن ملك النوبة قد اعترف بسلطان الفاطميين ، لذا رأى جوهر الصقلي أن يمد فتوحاته صوب الجنوب لبسط النفوذ الفاطمي في النوبة ، ولنشر الإسلام بها على المذهب الشيعي (١٠٤) .

وقد بادد جوهر الصقلي بإرسال وفد برئاسة عبيد الله ابن أحمد ابن سليم الأمواني - وهو من أهالي أسوان - إلى جورج الثاني (جرجس) ملك النوبة - مبعلا برسالة رقيقة الصبغة ، يدعو

(١٠٣) حسن إبراهيم وطه شرق : المعز لدين الله ، ص ١٦٩ .

(١٠٤) مصطفى مصطفى : الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ، ص ١٢٢ .

فيها الى اعتناق الاسلام ودفع الجزية السنوية المعروفة باليقط (١٠٥) .

وفي هذه الرسالة الى ملك النوبة أوضح جوهر قوة الجيوش الفاطمية المراقبة في جنوب مصر ، وأنه يستطيع أن يعيث في سلام وحسن جوار مع الفاطميين اذا قام بتنفيذ معاهدة اليقط (١٠٦) . وقد احتفى ملك النوبة بالوفد الفاطمي ، كما قوبل الوفد بالترحاب في كل مكان زاره بملكة النوبة (١٠٧) وقبل ملكها دفع الجزية الى الفاطميين ، ولكنه اعتذر عن النحول في الاسلام وقد قبل جوهر منه ذلك (١٠٨) .

وكانت علاقة النوبة بمصر في عهد جوهر علاقة ودية ، فلم يقم ملك النوبة بأية اضطرابات أو قلاقل ضد الحكم الفاطمي في جنوب مصر ، كما اتسم عصر الفاطميين في مصر (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١ م) بقيام علاقات حسن الجوار والمسالة مع النوبة . وانعكس اثر هذه العلاقة على المسيحيين في مصر والنوبة على حد سواء ، ففي عهد الخليفة العزيز بالله ، قبل الأنبا فيلوتاوس البطريرك الثالث والستين للكنيسة القبطية وساطة جورج الثاني ملك النوبة لاعادة العلاقات الدينية بين الكنيستين القبطية والحبشية بعد انقطاعها مدة (١٠٩) ، كما أنه رسم للحشة مطرانا بعد أن

(١٠٥) للناويس : المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

— ينظر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣ .

(١٠٦) مصطفى سعد : المرجع السابق ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، ١٢٢ .

(١٠٧) Lane-Poole : Op. Cit., p. 105.

(١٠٨) مصطفى سعد : المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(١٠٩) هاويرس : تاريخ بطريركة الكنيسة المصرية ، ج ٢ ، ص ١١٢ .

ص ١١٤ .

امتنع خمسة بطارقة من أسلافه عن ترميم مطران الحبشة لأسباب
سوف نذكرها عند الكلام عن الحبشة (١١٠) .

واستمرروا لهذه العلاقات الطيبة بين النوبة والفاطميين .
حرص النوبيون على تنفيذ معاهدة البقط ففي سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م
وصل البقط الى مصر من النوبة كالعادة مع فيل وزرافة (١١١) .
كما وصل البقط أيضا الى مصر بعد ذلك بسنتين (١١٢) .

وعندما ثار أبو ركونة على الخليفة الحاكم بأمر الله تصدى
الخليفة لغورته ودارت بينهما عدة معارك ، كان آخرها عند الموضع
المعروف « بالسبخة » أو « رأس البركة » على مقربة من مدينة
الفيوم ، حيث لحقت الهزيمة بأبي ركونة الفتي فر الى بلاد النوبة
طلبا للنجاة بنفسه (١١٣) .

ويذكر البعض نقلا عن ابن الأثير أنه كان هناك اتفاق بين
أبي ركونة وجورج الثاني ملك الحبشة على أن يمدّه بقوات لمساعدته
في القتال ضد أعدائه ، وكان ملك النوبة قد أرسل بعض قوات له
انضمت لقوات أبي ركونة واشتركت في المعركة قبل الأخيرة التي
دارت عند الجيزة ، غير أن ملك النوبة لم يرسل له قوات أخرى بعد
هذه المعركة ، ولما حلت الهزيمة بأبي ركونة وانفض عنه أتباعه ، هرب

(١١٠) صبيكة : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٢ .

(١١١) القريظي : أمثلة الحلفاء ، ج ١ ، ص ٣٧٩ .

(١١٢) — : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .

(١١٣) القوصي : بنو الكنز — دراسة تاريخية — رسالة ماجستير من جامعة
للقاهرة سنة ١٩٧٠ ، ص ٥٠ .

الى بلاد النوبة (١١٤) . فأرسل الفضل ابن عبد الله قائد الجيش الفاطمي رسالة الى ملكها في طلبه ، لكن ملك النوبة قد توفي (٣٩٢ هـ / ١٠-٢ م) (١١٥) . واستطاع ابنه المسمى روقايل أن يتدارك الأمر بسرعة ، فقبض على أبي ركوته وسلمه الى القاهرة لاعلامه (١١٦) ، وذلك حتى لا تنكشف علاقة أبيه بأبي ركوته ، وحتى لا تسوء العلاقة بينه وبين الحاكم بأمر الله (١١٧) . فضلا عن أن موقف روقايل هذا ، هو تنفيذ لمحاكمة البقعة التي نصت على تسليم الهاربين الى النوبة (١١٨) .

ولقد كانت المراسيم التي أصدرها الحاكم بأمر الله ضد أهل الفلحة في مصر سببا في هجرة الكثيرين منهم الى النوبة ، وبخاصة بعد أن سمح لهم بذلك ، فاتجه الكثير منهم الى أقصى الصعيد ، وواصل بعضهم السير جنوبا حتى وصلوا الى النوبة واستقروا بها (١١٩) .

ومن الجدير بالذكر أن مستقبل الكنيسة النوبية قد تحدد بطبيعة العلاقات بين الكنيستين المصرية والنوبية ، غير أن هذه

(١١٤) — : أراجع السابق ، ص ٥٤٠ .

(١١٥) أبو صالح الأرمي : المصدر السابق ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(١١٦) ملحد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٦١ .

(١١٧) القوص : أراجع السابق ، ص ٥١ .

(١١٨) ملحد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٦١ .

(١١٩) زاهر روافي : تاريخ النوبيا ، ص ٦٤ .

العلاقات لم تلبث أن خضعت لمعامل سياسية ، فتأثر مركز الكنيسة النوبية تبعاً لسياسة الحلفاء الفاطميين في مصر إزاء أهل الذمة ، فقد اشتملت القوانين الصارمة التي أصدرها الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م ضد أهل الذمة على أوامره بمنع سفر الأساقفة المصريين إلى النوبة والحبشة - كما منع إرسال خطابات بطريرك الكنيسة المرقسية السبلوية إلى كتيستي النوبة والحبشة لمدة أعوام ، وقد ترتب على ذلك أن أغلقت تلك الكنائس أبوابها (١٢٠) ، بل أننا نجد ملك النوبة يتراسل مع ملك الحبشة بشأن قبض مصر (١٢١) .

وعلى الرغم من مخالفة بعض المصادر في عدد ما عدده الحاكم بأمر الله من أديرة وكنائس في مصر وبخاصة كنائس وأديرة الروم الملكانية إلا أن الكثير من الكنائس والأديرة في مصر لم تهتم خوفاً على مساجد المسلمين في البلاد المسيحية لاسيما في النوبة والحبشة اللذين كان بهما عدد كبير ممن يعتنقون الإسلام (١٢٢) . وإذا كان الفاطميون قد أرسلوا بعض الحملات التأديبية إلى بلاد النوبة عندما كان ملوكها ينقضون الهدنة أن يسيثون للمسلمين هناك أو يهاجمون أسوان ، فإن الفاطميين حرصوا على صفاء علاقاتهم بالنوبة حرصاً على حياة المسلمين بها ، وقد تبودلت الهدايا بين البلدين وبخاصة في عهد الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله ، ففي ربيع الأول سنة

(١٢٠) أبو صالح الأرمي : المسمر للمناقي ، ص ١٢٤ .

— مسطفي سعد : المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(١٢١) منجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، ص ٢٢٤ .

(١٢٢) — : الحاكم بأمر الله ، ص ١٠٠ .

٤١٥ هـ ، وصلت الى مصر هدايا من بلاد النوبة فيها عيد واماء
وخشب أبنوس وزرافات (١٢٣) *

وفي خلافة المستنصر بالله أرسل ملك النوبة الى الالبيا
خريستودولس - البطريرك السادس والستين للكنيسة القبطية -
يوجو منه رسالة اسقف للكنيسة النوبية - التي توفي أسقفها - ،
وحرصا على الصلات الطيبة بين الكنيسة المصرية وأهل النوبة يأمر
البطريرك باختيار راعب ممتاز ورسمه أسقفها وأرسله الى النوبة على
وجه السرعة (١٢٤) ، كما أرسل البطريرك في سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م
اثنين من أساقفة الكنيسة المصرية الى ملك النوبة المسمى سلمون
لتدشين كنيسة شيلحا الملك في بلاده * وقد أحسن ملك النوبة
استقبال البعوثين ، وبعد انتهاء مهمتهما أرسل منهما مالا أوصلاه الى
البطريرك (١٢٥) *

وعندما تولى البيزوري الوزارة - في عهد المستنصر بالله -
أرسل في سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م حملة الى بلاد النوبة ، وفرض
عليهم مضاعفة البقل وهو ما استقر عليه الأمر (١٢٦) ، على الرغم
من أن القويزي لم يذكر الأسباب التي أدت الى ارسال هذه
الحملة (١٢٧) ، وقد يكون في حلات الاعتداء على البطريرك

(١٢٣) القويزي : انماط الحظا ، ج ٢ ، ص ١٤٢ *

(١٢٤) اريوس حبيب : قصة الكنيسة القبطية - الجزء الثالث ، ص ٨١ *

(١٢٥) سمكة : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٢ *

- البيزوري : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ *

(١٢٦) القويزي : انماط الحظا ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ *

(١٢٧) الملاوي : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ *

خوستوذولس ما يشير الى أسباب هذه الحملة ، ذلك أن بعض المصادر تذكر أن اليازورى قبض على البطريك المذكور وسجنه وصادر أمواله واضطهد النصصارى بسبب ما تراسى اليه من أن البطريك يحرض ملك النوبة على عسقم دفع التزاماته للخليفة ، ويتسببه على قطع العلاقات التجارية مع المسلمين ، وعدم ارسال الجزية السنوية كل عام (١٢٨) . وإن كانت بعض المصادر تذكر أن البطريك أرسل الى ملك النوبة - الذى امتنع عن ارسال الجزية الى مصر - بوصيه بتنفيذ معاهدة البقط ، حرصا على العلاقات الطيبة بين البلدين ، وتدعيسا لمركز البطريك والاقباط في مصر ، وحفاظا على الصلات القوية بين الكنيستين المصرية والنوبية (١٢٩) .

وفي وفاة بطر الجبالى كانت العلاقات طيبة بين مصر والنوبة، فعندما ثار الزعيم العربى كنز الدولة محمد فى أسوان ولجأ الى بلاد النوبة ، يادى بطر الجبالى بإرسال الشريف سيف الدولة ومعه الأسقف « مرقوره » Mercure الذى يعرف بالوعواخ ، والذى كان يحمل رسالة توصية من البطريك القبطى الى ملك النوبة ، يطلبان منه باسم الخليفة تسليم كنز الدولة الى السلطات المصرية لما كان من ملك النوبة إلا أن استجاب - لاعتبارات سياسية ودينية - لهذا الطلب وسلمهما كنز الدولة سنة ٤٧٤ هـ تقريبا ، حيث اعلم بالقاهرة ، بل أن اثنين من أخوة كنز الدولة محمد ، طلبا من ملك

(١٢٨) بقدر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٧ .

— مصطفى مصطفى : المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(١٢٩) اوس حبيب : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٨٩ .

النوبة سالون أن يتوسط لهما عند بدر الجمال في الصفح عتهما ،
وتتقدرا لموقف ملك النوبة الطيب مع بدر الجمال قبل بدر الجمال
ومباطته وعفا عن بني كنز (١٣٠) -

وفي وزارة بدر الجمال حدث أيضا أن وشى أحد الوشاة الى
بدر الجمال أن ملك النوبة - بإعاز من البطريرك خرستوذولس -
قد علم جميع مساجد المسلمين هناك ، فما كان من بدر الجمال الا أن
أرسل مبعوثا ليتحقق من صحة النبا ، وبعد حين عاد الرسول وقد
انضح أن الأمر الكذوبة (١٣١) ، فحكم علي صاحبها بالإعدام وبرى
البطريرك - وأغلب الظن أن ملك النوبة قد استخلم نفوذه في قصر
الخلافة فجهاء التحقيق في صالح البطريرك (١٣٢) -

وكثيرا ما كان النوبيون يلجأون الى السلطات المصرية كلما
حدث خلاف بينهم وبين بطاركة الكنيسة المرقسية بمصر ، كما حدث
عندما أرسل الملك باسيل (١٠٨٩ م) وقدما يضم ابنه الى بدر
الجمال ، يلتبس منه ومباطته ومساعدته لتعين الكنيسة المصرية هذا
الابن رئيسا دينيا للنوبة (١٣٣) -

كما حرص بدر الجمال على استمرار علاقته الطيبة ببلاد
النوبة ، فعندما علم أن والي قوص قبض على ملك النوبة - أثناه

(١٣٠) حطية القوس - المرجع السابق ، ص ٥٨ ، ٥٩ -

(١٣١) البرادى : المرجع السابق ، ص ٢٣٦ -

(١٣٢) مصطفى حماد : المرجع السابق ، ص ٩٩ -

(١٣٣) البرادى : المرجع السابق ، ص ٢٣٦ -

- الخاوي : المرجع السابق - ص ٢٣٦ -

زيارته لكنيسة أسوان - أمر بإرساله إلى القاهرة معززا مكرما حيث
أنعم عليه بالهدايا القيمة ، وقد أبدت الولاة ملك النوبة وهو في
مصر قبل أن يعود إلى بلاده (١٣٤) .

وكان للكنيسة المصرية الهيمنة على الكنيسة النوبية ، إذ تقلد
رجال مصر من مبشرين الكنيسة المصرية قمة وظائف الجهاز الكنسي
في مملكة النوبة وكانت الكنيسة النوبية من أهم مصادر تمويل
الكنيسة المصرية ويطاوعها ، وبخاصة إبان الأزمات المالية التي كانوا
يتعرضون لها لسبب أو لآخر (١٣٥) .

وهكذا يتضح لنا أن العلاقة بين كنيسة الاسكندرية وكنيسة
النوبة كانت تخضع لعوامل سياسية ، وأن مركز الكنيسة النوبية
كان يتأثر تبعا للتدخل من جانب السلطان الحاكم في مصر (١٣٦) .
كما استغلت السلطات المصرية مركز ونفوذ بطريرك الكنيسة المصرية
في بلاد النوبة في الوصاية لدى ملوك النوبة بالمسلمين في
بلادهم (١٣٧) .

(١٣٤) المراجع : المرجع السابق ، ص ٢٢٦ .

(١٣٥) مصطفى منهد : المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(١٣٦) — : نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(١٣٧) أبو صالح الأرميني : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

الفاطيون والحبيشة

أما عن علاقة الدولة الفاطمية بالحبيشة فهي من الأهمية بمكان ، ذلك أن الحبيشة كانت لها علاقات وروابط قوية مع مصر وبخاصة تلك السلات الدينية الوثيقة بين الكنيسة المصرية وأهالي الحبيشة ، الذين كانوا يدينون بالنصرانية ، ويمتثلون مذهب البعوثية (١٣٨) ، كما كان على رأس الكنيسة الحبشية أسقف مصري يعينه البطريرك القبطي بناء على طلب ملك الحبيشة وكان الأسقف يقوم بدوره برسم الشمس والشماسية من أهل البلاد (١٣٩) :

وعندما جاء الفاطميون إلى مصر كانت العلاقات الدينية بين الكنيسة القبطية والحبيشة مقطوعة منذ مدة طويلة ، فلم يعد البطارقة والاقباط يرسلون الأساقفة إليها ، ذلك أن الملكة جوديت التي تولت عرش الحبيشة لمدة أربعين عاما (٩٤٠ - ٩٨٠ م) ،

(١٣٨) المقرئى : الأتلم بالبحر من وأرض الحبيشة من طوك الإسلام ، ص ٢ -

- زاهر رياض : كنيسة الاسكندرية في القرون ١٩٨ -

(١٣٩) أبو صالح الأرمي : المرجع السابق ، ص ١٣٢ ، ١٣٤ -

- زاهر رياض : كنيسة الاسكندرية في القرون ١٦٨ -

والتي تروى الأساطير أنها كانت يهودية الديانة ، كانت قد قطعت
علاقتها الدينية بمصر ، رغبة منها في نشر ديانتها في مملكتها ،
فخربت الكنائس ونهبتها ، واضطهدت رجال الدين المسيحي
وقتل كثيرا منهم ، واستعانت ببعض القبائل الموالية لها لاراقة
مزيد من دعاء المسيحيين هناك . كسبا أضعفت في حكم الأديرة
ونهب محتوياتها ، واتلاف الكتب الدينية بها وحرقها ، والقضاء
على رجال الدين المسيحي والرحبان (١٤٠) . على أنه يوفاتها
عمل خليعتها المسمى تكلاهيمانوت (٩٨٠ - ٩٩٥ م / ٣٧٠ -
٩٨٥ هـ) على اعانة الحال الى ما كان عليه ، واحياء وحماية
الديانة المسيحية في بلاده ، فرد الى الكنائس والأديرة حريتها
وما أخذ منها (١٤١) ، وأرسل الى جورج الثاني ملك النوبة - الذي
كانت علاقته حسنة بالخليفة الفاطمي العزيز بالله آنذاك - رسالة
يصف له فيها الدمار الذي لحق بالكنيسة ، وإن ما أصابهم كان
مقايما لهم على ممالك أسلافهم مع الأنبا بطرس أسقف كنيستهم الذي
رسمه لهم الأنبا قزمان الثالث (البطريرك الثامن والخمسون) ،
ثم طلب تكلاهيمانوت من ملك النوبة أن يتوسط لدى البطريرك
فيلوتائوس (٩٧٠ - ٩٩٥ م / ٣٦٠ - ٣٨٥ هـ) لاعادة العلاقات
الدينية بين الكنيسة المصرية والكنيسة (١٤٢) ، وقال له في
رسالته : « استعطف لنا الأب البطريرك ليرسم لنا أسقفا
رافة بنا ، حتى لا تقتلنا المسيحية من بلادنا ، اذ لنا الآن ما يربو

(١٤٠) — : تاريخ النوبيا . ص ٦٢ .

(١٤١) زاهر دواوي : المرجع السابق . ص ٦٤ .

(١٤٢) — : نفس المرجع . نفس الصفحة .

- سبيكة : المرجع السابق . ج ٢ . ص ١٤٨ .

على ستين سنة هالتي بلا راع ، فقد رفض خمسة من الباباوات الإسكندرئين المتعاقبين على السدة للرقيسية أن يرسموا لنا أسقفا ، وأدى حرماننا هذا الى نقص متزايد في عدد الكهنة ، لأنه لا يوجد بيننا من يملك سلطان رسامة كهنة جدد عند نياحة أي كاهن فكانت النتيجة وبالا علينا ، وتدهورت حياتنا الروحية » (١٤٣) .

وما أن وصلت رسالة جورج الثاني ، حتى بادر باستخدام نفوذه في قصر الخليفة العزيز بالله ، وعلاقته الطيبة بالكنيسة المصرية ، لاعادة العلاقات الطيبة بين الكنيسة الأم وكنيسة الحبشة ، فقبل البطريرك وساطة ملك النوبة ، ورسم راهبا من دير أبي مقار اسمه دانيال ، وأرسله أسقفا لكنيسة الحبشة ، حيث استقبله أهلها استقبالا حاريا في سرور بالغ (١٤٤) .

وفي خلافة الحاكم بأمر الله انقطعت العلاقات مرة أخرى بين الكنيسة المصرية والحبشة ، ذلك أن الحاكم بأمر الله في فترة قصده في سياسته إزاء أهل النعمة ، منع سفر الأساقفة المصريين الى الحبشة ، كما منع الأتبا زخاريا البطريرك الرابع والستين من مكتبة ملوك النوبة والحبشة كما جرت به العادة سنويا ، مما أدى الى أن أغلقت كثير من كنائس الحبشة أبوابها بل أن الخليفة الحاكم بأمر الله عندما ملك مسلكا متشددا مع نصاري مصر وفرض عليهم قيودا اجتماعية ودينية صارمة ، جعل الكثيرين منهم يهاجرون الى النوبة جنوبا ، وأعلن بعضهم في السير قاصدا الحبشة ، وكان يحكمها في ذلك الوقت أحد ملوكها المسيحيين ، لا ليبالا ، الذي اتخذ لنفسه حين اعتلى العرش اسم

(١٤٣) أريوس حبيب : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

(١٤٤) ساويرس : تاريخ بطريركة الكنيسة المصرية ، ج ٢ ، ص ١١٤ .

« جبراما سقال » (ومحتاماً : خادم الصليبي) ، وعبر فيه عنه اهتمامه برجال الدين المسيحي ، وتعمير الكنائس والأديرة ، فأحبه الأحياء ، ورفعوه بعد موته إلى مرتبة القديسين . وفي تلك الأحوال الطيبة التي سادت بلاد الحبشة ، كانت هجرة كثير من أقباط مصر وخاصة عندما سمح لهم الحاكم بأمر الله بذلك ، وكان بينهم عدد كبير من الصناع ، والعمال المهرة ، الذين استعان بهم « لا لبيلا » في إقامة كثير من المباني والمنشآت وبخاصة الكنائس التي ما زال بعضها يشهد ببراعة الفنان والصانع المصري . كما كان من الطبيعي أن يتصاهر هؤلاء القبط مع الأحياء فتزوجوا منهم ، واختلطوا بالوطن من أهل البلاد (١٤٥) ، ونقلوا إليهم كثيراً من العادات والتقاليد المصرية (١٤٦) .

على أنه يجدر بنا أن نشير إلى أن الحاكم بأمر الله ، عندما خفف من غلوائه سياسته وسمح لأقباط مصر بالهجرة إلى بلاد الروم والنوبة والحبشة ، وأبقى على كثير من الكنائس والأديرة القبطية دون علم قائه ولا شك قد اتخذ هذا الموقف خوفاً على المساجد التي في بلاد النصارى لاسيما في الحبشة التي كان بها عدد كبير من المسلمين (١٤٧) الذين يدفعون الجزية للحكاه ، ويسلمون تحت سلطانه (١٤٨) .

(١٤٥) زاهر دواض : تاريخ اثيوبيا ، ص ٦٤ .

(١٤٦) عن هذه العادات والتقاليد التي نقلها أقباط مصر إلى الحبشة ، راجع

دواض : تاريخ اثيوبيا ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(١٤٧) حاجد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٠٠ .

(١٤٨) أبو صالح الأرمزي : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

بل ان السلطات الحاكمة في مصر كانت تطلب من البطريرك
 مكاتبة ملك الحبشة بما يتمتع به النصارى في مصر من حرية في
 ممارسة حياتهم وشماعتهم في ظل سياسة التسامح الديني التي
 سار عليها الخلفاء الفاطميون ، كما يطلبون منه أن يوصي الملك
 الحبشي بأن يشمل بمظلة المسلمين الذين تحت رعايته (١٤٩) .

(١٤٩) — : المصدر السابق . ص ١٢٤ .

ملحق رقم ١

سجل للحاكم بأمر الله

لرهبان دير القصير (١)

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .

هذا كتاب من عهد الله ووليّه المنصور أبي علي ، الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، لسليمان بن إبراهيم الراهب ، بما رآه من العامة عليه ، واستحلفه بما رغب إليه من الإذن له في إعادة عمارة الدير المعروف بالقصير بطرا من جبل نسطاط مصر إلى ما كان عليه قبل هدمه ، وتسكن الرهبان مكناه والمقام فيه على عادتهم ، والجري على ما سلف من عبادتهم وصلواتهم وإقامة سنة ديانتهم ، والنسخ في اجتماع من يطرقه من أهل ملتهم ، وإزالة الاعتراضات عنهم ، ومنع الأذى والتسلط عليهم ، وكف التبسط والحيث لهم ، ورد الأوقاف والأماكن التي كانت محبسة عليه ، ومنسوبة إليه ، من ضيقة ، ومزرعة ، ومنية ، وأرض ، وحصة ، ودار ، وقيسارية ، وحمام ، وعرصة ، وحانوت ، وفاخورة ، ونخيل ،

(١) نقل من التلخيص : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .

ويستان . وشجرة مثمرة ، وجنان يصير وأعمالها من جميع بلاد
 المملكة أقطارها وأطرافها ، وتسليم ذلك الى هذا الراعي ، ليتولى
 جده ويجوز نفعه وجناه ، ويصرفه في مصالح هذا الدير والمقيمين
 فيه والقاصدين اليه ، ويسقط يده في تدبيره ومن يسيبه في حقه
 وصيائته حقوق بيت مال المسلمين منه ، ويظهره من ذرته ،

والوزر عنه ، والمسامحة بما يجب على ذلك من خراج ، وعشر وغرم ،
 ورسم في سائر دواوين الحضرة المحلوقة والمحبسة ، وإزالة التأويل
 عنه والأضرار بسببه ، والتتبع له في هذا الوقت ، وما يأتي بعنه
 من الأوقاف على استقبال تاريخ هذا السجل ، وفاء بالذمة ، وجزاء
 على مناسحتهم ومضامنتهم الملة ، لا يغيره كرجين ، ولا يحيلة مر
 الاحقاب والسنين ، فمن قرأه أو قرئ عليه من الأولياء والولاة ،
 ومتولى الدواوين ، والضمان ، والمتصرفين في الأعمال والأحوال ،
 فليعلم ذلك من أمير المؤمنين ورسمه وليعمل عليه ويعصيه ، وكتب
 في شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وأربع مائة ، وليقرأ هذا
 المنشور في يد من خطبه حجة له يعظيونه ويؤثث به حيث يثله أن
 شاء الله »

سجل للحاكم بأمر الله

الى نفور بطريرك بيت المقدس (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .

أمر أمير المؤمنين بكتابة هذا المنشور لنفور بطريرك بيت المقدس بما رآه من اجابة رغبته والطلاق بنيه من صيافته وحياطته والنب عنه ، وعن أهل النعمة من نحلته ، وتسكينهم من صلواتهم على وسومهم في افتراقهم واجتماعهم وترك الاعتراض لمن يصلى منهم في عرصة الكنيسة المعروفة بالقيامة وخروجها على اختلاف رأيه ومنحبه ومفارقة في دينه وعقيدته واقامة ما يلزمه في حدود ديوانته وحفظ المواضع الباقية في قبضته داخل البلد وخارجه والديارات وبيت لحم ولد ، وما يرسم هذه المواضع من الدور المنصوية اليها والمنع من نقص المصلبات بها والاعتراض لاجبابها المطلقة لها ومن عدم جدرانها وسائر أبنيتها احسانا من أمير المؤمنين اليهم ودفع الأذى عنهم وعن كافتهم وحفظا للمة الاسلام فيهم ، فمن قرأه أو قرئ عليه من الأولياء ، والولاة ، ومنولى هذه

(٢) نقل من الاصل : المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .

النواحي وكافة الحياة ، وصائر التصرف في الأعمال ، والمستحسنين
 على صائر عنازلهم ، وتفاوت درجاتهم ، واستمرار خدمتهم أو تعاقب
 نظرهم في هذا الوقت وما يليه ، فليعلم ذلك من أمر أمير المؤمنين
 ورسوله ، ويعدل عليه وبحسبه ، وليحذر من تعدي حله ومخالفته
 حكمه ، ويتجنب مبايعة نفسه ومجانبة شرحه ، وليقر هذا المنشور
 في يده سجة لودعه ، يستعين بها على نيل طلبته وإدراك مقبلة
 إن شاء الله تعالى -

وكتب في جمادى الأخرى سنة إحدى عشرة وأربعمائة •

سجل للحاكم بأمر الله

النصارى عصر (١٢)

و بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .

هذا كتاب من عهد الله ووليه للتصور أبي علي ، الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، ابن الامام العزيز بالله أمير المؤمنين ، لجماعة النصارى بمصر ، عندما أنهوا إليه الخوف الذي لحقهم ، والجزع الذي حالهم فأقلقهم ، واستفراهم بظل الدولة ، وتحريمهم بحضور الحضرة ، بما رآه وأمر به من تكميل النعمة عليه بتوحيه لهم ذمة الاسلام وشرعه ، من تصيرهم تحت كنفه ، بحيث تصفو لهم مرار الطمانينة ، وتصفوا عليهم ملابس السكون والهدوء ، واجابتهم الى ما سألوا فيه من كتب أمان لهم يخلد حكمه على الأقطاب ، ويتوارثه الأخلاف منهم والأعقاب ، فأنتم جميعا آمنون بأمان الله عز وجل ، وأمان نبيه محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين صلعم وعلى آله الطاهرين ، وأمان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سلام الله عليه ، وأمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين

(١٢) نقل عن التتلي : المصدر السابق ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

سلام الله عليهم ، هنا على نفوسكم ، ودمائكم ، وأولادكم ، وأموالكم
وأحوالكم ، وأملاككم وما تحويه أيديكم ، أمانا صريحا ثابتا ،
وعقدا صحيحا باقيا ، فثقوا به واسكنوا اليه ، وتحققوا أن لكم
جميل رأى أمير المؤمنين وعاطفته ، ونصرته تحميكم ، وعصمته
تقيكم ، لا يقدم عليكم بموء أحد ، ولا تتناول اليكم بمضرة يد
إلا كانت زواجر أمير المؤمنين مقصرة من باعه ، وعظيم انكاره مضيقا
فيه من ذراعه ، والله عون أمير المؤمنين على ما تمتقنونه من صلاح
وإصلاح لسكان أقطار مملكته ، ومد له وسيلة الثواء في كنف
دولته ، وإياه يستشهد على ما أمضاه من أمانه لكم ، وعهده الذي
يشركه طرفكم ، وكفى بالله شهيدا وليقرور في أيديهم حجة
بما أسبغ من النعم عليهم ، إن شاء الله .

وكتب في شعبان سنة إحدى عشرة وأربع مائة .

سجل من الخليفة الناصر لامرأى دين الله

للهيأت القبط (١)

« عبادناكم ولا تطالبوا بحشد في حرب ولا بتخروج واعزاق
كل راعب يخرج منكم الى الضياع للتعيش فيها وقضاء حاجات من
وزاء منكم والا تلزموا عما يعمل النصارى من المنة وما يجرى
سجراما مكسا ولا غرما قل أو جل وأن تخطوا فيما لكم من ربح
وغلة وعوامل في سائر النواحي والا يمترض ما يخلقه من يموت من
رهبانكم خارجا عن ديارناكم في حال تروده الى الريف وغيره للمصرف
في ماويكم من كل شيء يملكه ليكون جميعه عائدا على اخوته في
رهبانيته دون كل قريب له ونسيب غيرهم وإن الامام المعز لدين الله
والامام العزيز والامام الحاكم بأمر الله قد حفظ الله ارواحهم فقاموا
بكتب سجلات بامضاء ذلك كله لكم وصالتكم كتب سجل بتجديد
ما كانت أمضته لكم الآمنة ، وتوكيد ما رعته لكانتكم من الحرمة وحفظ
ما لكم من هذه الموات والآمنة فامر أمير المؤمنين بكتب هذا السجل
المنشور ، لحيلكم على مقتضى النص المذكور ، وعوجب الترخيع

المسطور واقتراد في أيديهم حجة بذلك باقية على مر الأيام والدهور.
حتى لا يعترضكم معترض بما يزيل هذا الانعام عن حله أو يتأول
فيه تأول بما يصرقه عن وجهه وقصده ، والكتب عنكم .

فمن قرأه أو قرئ عليه من الأولياء والولاة ، والمتصرفين في
الأموال والجباة ، ومئات عبيد الدولة وخفمها على اختلاف
طبقاتهم ، وتراجع درجاتهم ، فليعلمه من أمر أمير المؤمنين ورسمه
وليصل عليه ويحسبه أن شاء الله ، وكتب في المحرم سنة
خمس عشرة وأربع مائة .

وصل الله على جدنا محمد خاتم النبيين ومسيه المرسلين
وآله الطاهرين الأئمة المهديين وسلم تسليما حسينا الله
ولهم الوكيل .

رسالة ملك الحبشة الى جورج ملك النوبة المتدخل لأعادة
العلاقات بين كنيسة الحبشة والكنيسة للرئيسية (٥).
من حياة البطريرك فيلاتوس وهو المجلد الثالث والستون
٩٧٠ - ٩٩٥ م

وفى أيامه (البطريرك فيلاتوس) أخذ ملك الحبشة الى
ملك النوبة كتابا ، واسمه جرجس ، وعرفه ما أدبه الرب به هو
وأهل كورته وهو ، أن امرأة ملكة على بنى الهيبة ثارت عليه وعلى
كورته وسببت منها خلق كثير وأحرقت مدن كثير وأخربت البيع
وطردته من مكان الى مكان وأن الذى لحقه جزى (جزاء) عما كان
الملك الذى قبله فعله مع المطران فى أيام الأب أنبا قزما مما شرعناه
أولا من تزويره وكذبه ، وقال له فى الكتاب الذى أنفذه له :
أحب أن تساعدنى وتشاركنى فى التمسك بمنجلى (من أجل) الله
ومن أجل اتفاق الأمانة ، وتكتب كتاب من جهتك الى الأب البطريرك

(٥) ساويرس : تاريخ بطريركة الكنيسة المصرية والمعروف بصير الديمة الخفية
المجلد الثانى - الجزء الثانى - ص ١١٤٦١١٢ .
- مصطفى سعد : الاسلام والنوبة فى العمود القومى - ص ٢٧٠ .

بمصر تسله أن يحللتنا ويحلل بلادنا ويصل علينا ليزيل الله عنا
 وعن أرضنا هذا البلاء وينعم لنا بأن يقسم لنا مطران كما جرت
 عادة آبائنا ويسعى لنا بأن يزيل الله غضبه عنا . وذكرت لك أيها
 الأخ ذلك خوفا من أن يتقرض ويبطل دين النصرانية من عندنا لأن
 هو ذا ستة بطاركة قد جلسوا ولم يلتفتوا إلى بلادنا بل هي مائية
 بلا راعي ، وقد ماتوا أساقفتنا وكهنتنا ، وقد خربت البيع وعلمنا
 الله يحكم حق نزل علينا هذا البلاء عوضا عما فعلناه بالمطران .
 فلما وصلت الكتب إلى جرجس ملك النوبة ووقف عليها أنفذ من
 جهته كتباً ورسلاً إلى البطرك فيلاتاوس وشرح له فيها جميع ما ذكره
 ملك الحبشة وصاله أن يترافق على شعبه فأجاب مواله ورسم لهم
 راهبا من دير أبو مقار اسمه دانيال وأنفذه لهم مطرانا فقبلوه بفرح
 وأزال الله عنهم النصب وأبطل أمر الامرات التي قامت عليهم .

قائمة المصادر

(١) المخطوطات :

- ١ - ابن أبيك (توفي بعد ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) :
 - « كنز الدرر وجامع الفهر » ، الجزء السادس ، بعنوان
 « الدرر المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية » مخطوط يدار الكتب
 المصرية برقم ٢٥٧٨ تاريخ .
- ٢ - ييبرس النوافل (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) :
 - « زينة الفكرة في تاريخ الهجرة » ، مخطوط بمكتبة
 جامعة القاهرة الجزء السادس برقم ٢٤٠٢٧ .
- ٣ - ابن ظافر (ت ٦٢٢ هـ / ١٢٢٦ م) :
 - « أخبار الدول المنقطعة » ، مخطوط مصور يدار الكتب
 المصرية برقم ٨٩٠ تاريخ .
- ٤ - سبط بن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م) :
 - « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » ، الجزءان : العاشر
 والثاني عشر ، مخطوط يدار الكتب المصرية برقم ٥٥١ تاريخ .

٥ - أبي السور البكري (١٠٠٥ - ١٠٠٦ هـ / ١٥٩٦ - ١٦٥٠ م) :

- « عيون الأخبار ونزعة الأبحار » ، مخطوط بدار الكتب
المصرية برقم ٧٢ تاريخ ، مكتبة مصطفى كامل باشا .
٦ - رسائل الحاكم بامر الله ، كتبها جماعة الأتباعين ، ولا سيما
حمزة بن عل وهي مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم
٢٧ ، ٢٨ ، ١٢٣ عقائد ونحل .

٧ - العيني (٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) :

- « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » ، مخطوط مصور
بدار الكتب المصرية ، برقم ١٥٨٤ تاريخ ، الجزء التاسع عشر .
٨ - القضاعي (٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م) :

- « عيون المعارف وفنون أخبار الخلفاء » ، مخطوط مصور
بدار الكتب المصرية برقم ١٧٧٩ تاريخ .

٩ - ميخائيل « الأنبا » (أسقف قنيس - عاش في النصف الثاني
من القرن الرابع الهجري) :

- « صيد البيعة المقدسة » والمعروف « يذيل مسير الأباء »
البطاركة ، الجزء الثالث ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية
برقم ٩٤٢٤ تاريخ .

١٠ - النويري (٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) :

- « نهاية الأرب في فنون الأدب » ، مخطوط بدار الكتب

المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة ، الجزء السادس والعشرون .

(ب) المصادر العربية المطبوعة

١١ - الأبشيهي (ت ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م) :

- « المستطرف في كل فن مستظرف » ، القاهرة ١٣٨٥ هـ ،
جزءان .

١٢ - ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٨ م) :

- « الكامل في التاريخ » ، مصر ١٣٥٣ هـ ، الجزءان
الثامن والتاسع .

١٣ - ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٧ هـ / ١٢٧٠ م) :

- « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ، تحقيق د . نزار
رضا ، بيروت ١٩٦٥ م .

١٤ - ابن أبي عمير (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) :

- « تاريخ مصر » المعروف بـ « بدائع الزهور في وقائع
الزهور » بولاق ١٣١١ هـ ، الجزء الأول .

١٥ - التطيلي (بنيامين بن يونة التطيلي الانطلسي) :

- « رحلة بنيامين » (٥٦١ هـ / - ٥٦٩ هـ) ، ترجمة
وتعليق عزرا حنن ، بغداد سنة ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .

١٦ - ابن الجوزي (أبو الفرج ، ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٦ م) :

- « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » ، حيدر أباد سنة
١٣٥٧ - ١٣٥٨ هـ ، الأجزاء من ٥ - ١٠ .

١٧ - ابن جبير (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) :

– « رحلة ابن جبر » ، تحقيق د . حسين نصار ،
القاهرة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .

١٨ – ابن حجر الصقلاني (ت ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م) :

– « رفع الأحد عن قضية مصر » ، القسم الثاني ، تحقيق
د . حامد عبد المجيد ، القاهرة ١٩٦١ م .

١٩ – ابن حوقل (نبغ في سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) :

– « كتاب صورة الأرض » ، مطبعة دار الحياة ببيروت .

٢٠ – ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ – ١٤٠٦ م) :

– « العبر وديوان المبتدا والخبر » ، طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ
الجزء الرابع .

٢١ – ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨١ م) :

– « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » ، ستة أجزاء ،
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٣٦٧ هـ /
١٩٤٨ م .

٢٢ – ابن دككين (٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ – ١٤٠٧ م) :

– « الانتصار بواسطة عقد الأمصار » ، الجزآن الرابع
والخامس ، بولاق ١٣٠٩ – ١٣١٠ هـ .

٢٣ – ابن الراهب (وسم سمانا في ذير الكلفة بدمشق مصر
سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٢ م) :

– « تاريخ ابن الراهب » ، نشر لويس شيخو ، بيروت
١٩٠٣ م .

٢٤ - رشيد بن الزبير (عاش في القرن الخامس الهجري /
العاشر عشر ليلادي) :

- « النخائل والتحف » تحقيق د . محمد حميد الله ،
الكويت ١٩٥٩ .

٢٥ - ساويرس بن القطيع (أسقف الأشمونين) :

- « تاريخ بطاركة الكنييسة المصرية » ، المجلد الثاني ،
الجزء الثاني تحقيق ، عبد المسيح ، وسموريال ، ويرمستر ،
طبعة مصر سنة ١٩٤٨ م .

٢٦ - السيوطي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) :

- « حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » ، جوفان ،
القاهرة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م .


٢٧ - أبو شعاع (ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) :

- « ذيل تجارب الأمم » ، منقحة هـ . ف . أمطووز ، طبع
بمصر سنة ١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م .

٢٨ - الشيزي (ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) :

- « نهاية الربة في طلب الحسنة » ، تحقيق السيد ألباز
البريني القاهرة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م .

٢٩ - أبو صالح الأرمني (ت ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م) :

- « تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمني » المعروف بـ « كنائس
وأديرة مصر » ، تحقيق وترجمة  طبعة أكسفورد
سنة ١٨٩٤ م .

- ٣٠ - ابن تهرمة (عاش في القرن العاشر الهجري) :
 - الفضائل الباهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا ، كامل المهنسي ، القاهرة ١٩٦٩ م .
- ٣١ - العبري (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) :
 - تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠ م .
- ٣٢ - أبو عثمان النابلسي الصفدي (ت ٦٤١ هـ) :
 - تاريخ اليوم ويلاحه ، القاهرة ١٨٩٨ م .
- ٣٣ - ابن العباد (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) :
 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، القاهرة ١٣٥٠ - ١٣٥٣ هـ الجزء الثالث .
- ٣٤ - ابن العميد (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م) :
 - تاريخ المسلمين ، لندن ١٩٢٥ م .
- ٣٥ - غرس الدين خليل (ت ٨٧٣ هـ) :
 - كتاب زينة كشف المالك وبيان الطرق والمسالك ، صححه بولس راويس ، باريس ١٨٩٣ م .
- ٣٦ - أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) :
 - المختصر في أخبار البشر ، المطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .
- ٣٧ - ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٥٩ م) :
 - مسالك الأبحار في أخبار ملوك الأمصار ، الجزء الأول، تحقيق أحمد زكي باشا ، القاهرة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م .

- ٣٨ - ابن القلانسي (ت ٥٥٥ هـ / ١١٣٦ م) :
 - « ذيل تاريخ دمشق » ، بيروت ١٩٠٨ م .
- ٣٩ - القلشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) :
 - « صبح الأعتش في صناعة الانشا » ، ١٤ جزءا ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧ م .
- ٤٠ - القفطي (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) :
 - « تاريخ الحكماء » أو « اخبار العلماء بأخبار العلماء » ،
 ليبزج ١٩٠٣ م .
- ٤١ - ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) :
 - « البداية والنهاية في التاريخ » ، القاهرة ١٣٥٨ هـ ،
 الجزءان : الحادي عشر والثاني عشر .
- ٤٢ - كاتب مراكشي (من كتاب القرن الخامس الهجري /
 الثاني عشر الميلادي) :
 - « كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار » ، تحقيق
 د . سعد زغلول نصار ، الاسكندرية ١٩٥٨ .
- ٤٣ - ابو العباس (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٩٦ م) :
 - « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » ، الجزءان
 الرابع والخامس ، طبعة دار الكتب المصرية ١٣٥١ - ١٣٥٣ هـ /
 ١٩٣٢ - ١٩٣٥ م .
- ٤٤ - مجير الدين الخليل (ت ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م) :
 - الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، الجزء الأول ،

٤٥ - القنسى (ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) :

- « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » ، ليدق ١٩٠٦ م .

٤٦ - القزويني (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) :

- « إحصاء الحنفية بأخبار الأئمة القاطنين بالخلفاء ،
الجزء الأول ، تحقيق الشيبان ، القاهرة ١٩٦٧ م ، والجزء الثاني
تحقيق د . محمد حلمي محمد ، القاهرة ١٩٧١ م .

٤٧ - « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطايا والآثار » ، جزآن ،
طبعة يولاق ١٢٧٠ هـ .

٤٨ - « الألقام بأخبار من بارزوا في الحبشة من ملوك الإسلام » ،
طبع بمصر سنة ١٨٩٥ م .

٤٩ - ابن ميسر (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) :

- « تاريخ مصر » ، الجزء الثاني ، القاهرة ١٩١٩ م .

٥٠ - ناصري خسرو (ت ٤٣٩ هـ / ٤٤١ هـ) :

- « سفرنامه » ، ترجمة يحيى الخشاب ، الطبعة الأولى ،
القاهرة ١٩٥٤ م .

٥١ - ابن الوردي (ت ٧٥٠ هـ / ١٣٥٨ م) :

- « تكملة المختصر في أخبار البشر » ، جزآن ، طبع بالقاهرة
١٢٨٥ م .

٥٢ - ياقوت (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) :

- « معجم البلدان » ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٣٣٢ هـ /
١٩٠٦ م .

- ٥٣ - يحيى بن سعيد الأنطاكي (ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م) :
 - « تاريخ » ، أو « صلة كتاب أوتينا » المسمى « التاريخ
 المجموع على التحقيق والتصديق » ، تحقيق شينكو ، بيروت
 ١٩٠٩ م .
- (ج) التراجع الحديثة :
- ٥٤ - اريس حبيب القصرى :
 - « قصة الكنيسة القبطية » ، الجزء الثالث ، الطبعة
 الثانية ، القاهرة ١٩٧٥ م .
- ٥٥ - أولسولد :
- « الدعوة الى الاسلام » ، ترجمة د . حسن ابراهيم ،
 وعبد المجيد عابدين ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ م .
- ٥٦ - المسند ومستم :
- « الروم فى سياستهم وحضارتهم ، ودينهم ، وثقافتهم ،
 وصلاتهم بالعرب » ، فى جزئين ، بيروت ١٩٥٥ - ١٩٥٦ م .
- ٥٧ - بشر (السيلة ١٠ ل ٠) :
- « تاريخ الامة القبطية وكنيستها » ، ٤ أجزاء ، طبع
 بالجمالة بمصر سنة ١٩٠٦ م .
- ٥٨ - بلوتسولد :
- « تاريخ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ،
 نقله من التركية الى العربية حمزة طاهر ، القاهرة ١٩٥٢ م .
- ٥٩ - البراوى (واشند - الكنتور) :

- « حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين » ، القاهرة
١٩٤٨ م .

٦٠ - توتون (١٠ ص .) :

- « أهل النعمة في الإسلام » ترجمة د . حسن حبشي ،
الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٧ م .

٦١ - جساك تلجير :

- « أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي الى سنة ١٩٢٢ » ،
القاهرة سنة ١٩٥١ م .

٦٢ - جروهمان (ادولف) :

- « أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية » ، ترجمة
د . حسن ابراهيم وعبد الحميد حسن ، القاهرة ١٩٣٤ م .

٦٣ - حتى (فيليب - الدكتور) :

- « تاريخ العرب » في جزئين ، ترجمة ادوارد جرجي
وجبرائيل جبور بيروت ١٩٦١ م .

٦٤ - حسن ابراهيم حسن (الدكتور) :

- « تاريخ الاسلام السياسي » الجزء الثالث ، الطبعة
السابعة ، القاهرة ١٩٦٥ م ، والجزء الرابع ، الطبعة الثانية
١٩٥٨ م .

٦٥ - « الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه

خاص » القاهرة ١٩٣٢ م .

٦٦ - « تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب وعصر وسسورية

وبلاد العرب الطبعة الثانية ١٩٥٨ م .

٦٧ - حسن ابراهيم وكه شرف :

- « المعز لدين الله الفاطمي ، امام الشيعة الاسماعيليين
ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر » ، القاهرة ١٩٤٨ م .

٦٨ - حسن ابراهيم واخرون :

- « المجلد في التاريخ المصري (الطبعة الأولى ، القاهرة
١٩٤٢ م .

٦٩ - خطاب عطية علي :

- « التعليم في مصر في العصر الفاطمي الاول » ، القاهرة
١٩٤٧ م .

٧٠ - زيمساته :

« الفنون الاسلامية » ، ترجمة احمد عيسى .

٧١ - زاهر رياض (الدكتور) :

- « تاريخ اثيوبيا » ، القاهرة ١٩٦٤ م .

٧٢ - « كنيسة الاسكندرية في الخريطة » الطبعة الاولى ،
القاهرة ١٩٦٢ م .

٧٣ - رؤوف حبيب :

- « كنائس القاهرة القبطية القديمة » ، القاهرة ١٣٨٦ هـ /
١٩٦٦ م .

٧٤ - زكي محمد حسن (الدكتور) :

- « الفن الاسلامي في مصر » ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٣٥ م .

٧٥ - « كنوز الفاطميين » ، القاهرة ١٩٣٧ م .

٧٦ - « فنون الاسلام » ، القاهرة ١٩٤٨ م .

٧٧ - سرود (محمد جمال الدين - الدكتور) :

- « النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والمراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة » ، القاهرة ١٩٥٩ م .

٧٨ - « مصر في عصر الدولة الفاطمية » ، مجموعة الاكف كتاب ، القاهرة ١٩٦٠ م .

٧٩ - « الدولة الفاطمية في مصر » ، القاهرة ١٩٦٥ - ١٩٦٦ م .

٨٠ - « سياسة الفاطميين الخارجية » ، القاهرة ١٩٦٧ م .

٨١ - سيد عمر علي :

- « مختصر تاريخ العرب » ، ترجمة عفيفي البعلبكي ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦١ م .

٨٢ - سيدة اسماعيل كاشف (الدكتور) :

- « مصر في فجر الاسلام » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠ م .

٨٣ - « مصر في عصر الاخشبيين » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠ م .

- ٨٤ - حسن أحمد محمود (الدكتور) :
 - « حضارة مصر الاسلامية ، العصر الطولوني » ، القاهرة
 ١٩٦٠ م .
- ٨٥ - حسن أحمد محمود وصيفة كاشف :
 - « مصر في عصر الطولونيين والاحشيديين » ، مجموعة
 الالف كتاب ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- ٨٦ - الشيبان (جمال الدين - الدكتور) :
 - « تاريخ مصر الاسلامية » الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٨٧ - عاشور (سعيد عبد الفتاح - الدكتور) :
 - « المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك » ، القاهرة
 ١٩٦٢ م .
- ٨٨ - عبد اللطيف ابراهيم (الدكتور) :
 - « في مكتبة دير مسبانت كاترين » ، مستخرج من
 « مجلة أم درمان الاسلامية » - المند الأول ، سنة ١٩٦٨ م .
- ٨٩ - عبد الرحمن فهمي :
 - « موسوعة النقود العربية وعلم النميات » ، الجزء الأول
 بعنوان « فجر السكة العربية » ، القاهرة ١٩٦٥ م .
- ٩٠ - عبد الرحمن زكي (الدكتور) :
 - « القاهرة - تاريخها وآثارها » من جواهر القائد الى
 الجبرتي المؤرخ « القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

٩١ - علي إبراهيم حسن (الدكتور) :

- « تاريخ جوامع الصقلي » ، الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٣ م .

٩٢ - علي حسني الغريوطي (الدكتور) :

- « مصر العربية الإسلامية . السياسة والحضارة في مصر في العصر العربي الإسلامي . منذ الفتح العربي الى الفتح العثماني »
القاهرة ١٩٦٣ م .

٩٣ - « العرب واليهود في العصر الإسلامي » ، القاهرة ١٩٦٣ م .

٩٤ - عمر كمال توفيق (الدكتور) :

- « الإمبراطور . نفور فوكاس ، واسترجاع الأراضي المقدسة » الاسكندرية ١٩٥٩ م .

٩٥ - عنان (محمد عبد الله) :

- « الحاكم بأمر الله ، وأسرار الدعوة الفاطمية » ،
الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م .

٩٦ - (تاريخ الجامع الأزهر » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ م .

٩٧ - « مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية » ، الطبعة الأولى ،
القاهرة ١٩٣٩ م .

٩٨ - عطية محمود القوصي (الدكتور) :

- « بنو الكنز - دراسة تاريخية » ؛ رسالة ماجستير غير
مطبوعة تحت إشراف الدكتور أحمد دراج ، جامعة القاهرة ١٩٧٠ م .

٩٩ - « تجلوة مصر في البحر الأحمر ، منذ لجسر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ ، رسالة دكتوراة غير مطبوعة تحت اشراف د . أحمد دراج ، جامعة القاهرة ١٩٧٣ م »

١٠٠ - كارل بروكلمان :

- « تاريخ الشعوب الاسلامية » ، الجزء الثاني ، بعنوان « الامبراطورية الاسلامية وانحلالها » ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٥٤ »

١٠١ - لين بول (ستانلي) :

- « سيرة القاهرة » ، ترجمة د . حسن إبراهيم وآخرون ، القاهرة ١٩٥٠ م »

١٠٢ - ماجد (عيد النعم - الدكتور) :

- « نظم الفاطميين ورسومهم في مصر » ، القاهرة .

١٠٣ - « الحكام بامر الله ، الطفلة الفخرى عليه » ، القاهرة ١٩٥٩ م »

١٠٤ - « ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر » ، الاسكندرية ١٩٦٨ م »

١٠٥ - متزل (آدم) :

- « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » ، في جزئين ، القاهرة ١٩٤١ م »

١٠٦ - النواوي (محمد حملي - الدكتور) :

— « الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي » ، القاهرة
١٩٧٠ م .

١٠٧— مرقس سمكة (باشا) :

— « دليل المتحف القبطي ، وأهم الكنائس والأديرة الأثرية »
في جزئين ، طبع بمصر ١٩٣٠ ، ١٩٣٢ م .

١٠٨— مزروق (محمد عبد العزيز — الدكتور) :

— « الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية » ، القاهرة
١٩٤٢ م .

١٠٩— مشرفة (عطية مصطفى — الدكتور) :

— « نظم الحكم في عصر الفاطميين » ، الطبعة الأولى ،
القاهرة ١٩٤٨ م .

١١٠— مصطفى محمد (الدكتور) :

— « الاسلام والنوبة في العصور الوسطى » ، القاهرة
١٩٦٠ م .

(د) المراجع الأجنبية :

- 1) Gotman (S. D.) :
— « Jews and Arabs ». New York, 1955. W
- 2) « A Mediterranean Society, the Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in Documents of the Cairo Geniza ». Volume I, California, 1967.
- 3) Leen-Pool (S.) :
— History of Egypt in the Middle Ages. London, 1901.
- 4) Mann (J.) :
— « The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliph ». Volume I, Oxford, 1920.
- 5) Stern (S.M.) :
— « Fatimid Decrees, Original Documents from the Fatimid Chancery ». London, 1964.

فهرس

| الموضوع | الصفحة |
|--------------------------------|--------|
| مقدمة البحث | ٥ |
| مرض لاهم مصادر للبحث | ١٥ |

الباب الأول

| | |
|--|----|
| « أهل الذمة والوظائف العامة » | ٢٥ |
| سياسة الخلفاء الفاطميين إزاء الموظفين من أهل الذمة | ٢٧ |
| الوزراء والوسطاء من أهل الذمة | ٤٣ |
| أهل الذمة والمروءين الحكومية | ٧٣ |
| الأطباء من أهل الذمة | ٨١ |
| موقف المسلمين من سياسة الموظفين النعميين | ٨٧ |

الباب الثاني

| | |
|---|-----|
| « أهل الذمة والحياة الاجتماعية » | ٩٣ |
| النشاط الزراعي لأهل الذمة | ٩٥ |
| النشاط الصناعي لأهل الذمة | ١٠٩ |
| النشاط التجاري لأهل الذمة | ١١٤ |
| دور أهل الذمة في التجارة الخارجية | ١٥٠ |

الباب الثالث

| | |
|---|-----|
| « الحياة الاجتماعية والبيئية لأهل الذمة » | ١٥٧ |
| (١) الحياة الاجتماعية لأهل الذمة | ١٥٩ |

● صدر من هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل في محكمة التاريخ
د. عيد العظیم رمضان
- ٢ - علي ماهر
اعداد : رشوان محمود جاب الله
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة
اعداد : عيد السلام عيد الحليم عامر
- ٤ - التيارات الفكرية في مصر المعاصرة
د. محمد نعمان جلال
- ٥ - غارات أوربا على الشواطئ المصرية في العصور
الوسطى
عليه عید السميع
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ج. ١
لمحی الطیعی
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي
د. عيد الخالص ملحد
- ٨ - رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية
د. علي بركات
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د. محمد أنيس
- ١٠ - توفيق دياب ملحة الصحافة العربية
محمود فوزي
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية
شكري القناني

- ١٢ - هدى شعراوى وعصر التنوير
د. تيميل راقب
- ١٣ - اكتفوية الاستعمار المصرى للصودان
د. عيد العظيم رمضان
- ١٤ - مصر فى عصر الولاة
د. سيدة اسماعيل كاشف
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامى
د. علي حسنى القزوينى
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر
د. حلمي احمد الشاذلى
- ١٧ - القضاء القصرى فى مصر فى العصر العثمانى
د. محمد نور مرححات
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د. على السيد محمود
- ١٩ - عصر القنينة وقصة توحيد القطرين
د. احمد محمود صابون
- ٢٠ - المراسلات المصرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى
د. محمد اتيس
- ٢١ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ١
توفيق الطويل
- ٢٢ - نظرات فى تاريخ مصر
جمال بوى
- ٢٣ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢
توفيق الطويل

- ٢٤ - الصحافة الوفدية
د. نجوى كامل
- ٢٥ - المجتمع الاسلامى
ترجمة : د. عبد الرحيم مصطفى
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديث
د. سعيد اسماعيل على
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ج ١
ترجمة : محمد فريد أبو حديد
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ج ٢
ترجمة : محمد فريد أبو حديد
- ٢٩ - مصر فى عهد الاخشيدين
د. سيدة اسماعيل كاشف
- ٣٠ - الموظفون فى مصر
د. حلى احمد شلبي
- ٣١ - خمسون شخصية وشخصية
شكرى القاضى
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج ٢
لعلى المطيعى
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الاثريتى
د. خالد الكوسى
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المصرية
د. يوتان لبيب رزق
- ٣٥ - اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكى

- ٣٦ - المجتمع الاسلامى والضروب ج ٢
ترجمة : د^و احمد عبد الرحيم مصطفى
- ٣٧ - الشيخ على يوسف
تأليف : د^و سليمان صالح
- ٣٨ - قصود من تاريخ مصر الاقتصادية والاجتماعى فى العصر العثمانى
د^و عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
- ٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان
د^و جميل عبيد
- ٤٠ - الامثلة الفاسدة وبورها فى حرب ١٩٤٨
د^و عبد المتعم للنسوقى الجميعى
- ٤١ - محمد فريد الوقت والامانة
رقت السعيد
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غيريال
- ٤٣ - رحلة فى عقول مصرية
ابراهيم عبد العزيز
- ٤٤ - الاوقات والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر
العثمانى
د^و محمد عفيفى
- ٤٥ - الحروب الصليبية
تأليف : وليم الصورى
ترجمة : د^و حسن جنى

- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٢٩ : ١٩٥٧
تأليف : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصري الحديث
تأليف : د. أ. لطيفة محمد سالم
- ٤٨ - الفلاح المصري
تأليف : د. زينة عطا
- ٤٩ - العلاقات المصرية الإسرائيلية
تأليف : د. أ. عبد العظيم رمضان
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية
تأليف : د. مظهر استنصر
- ٥١ - تاريخ المدارس في مصر الإسلامية
تأليف : د. عبد العظيم رمضان
- ٥٢ - مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن
الثامن عشر
تأليف : د. الهام محمد علي ذهني
- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك
د. محمد كمال الدين عز الدين علي
- ٥٤ - الأقباط في مصر في العصر العثماني
تأليف : الدكتور محمد عفيفي
- ٥٥ - الحروب الصليبية ج. ٢
ترجمة وتنسيق : د. حسن حبشي
- ٥٦ - المجتمع الريفي في مصر محمد علي
د. حلمي أحمد شلبي

- ٥٧ - مصر الاسلامية وأهل الذمة
د. سعيدة إسماعيل كاشف
- ٥٨ - أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة
د. إبراهيم عبد الله السلمي
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية فى مصر
د. عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٦٠ - المعاصرون من رواء الموسيقى العربية
عبد الحميد تولى زكى
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية
د. د. عبد العظيم رمضان
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج ٢
لمى الطيحي
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور
د. د. سيد إسماعيل الكاشف
- ٦٤ - مصر وحقوق الإنسان
د. محمد نعمان جلال
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية
د. سهام نصار
- ٦٦ - المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى
د. نريمان عبد الكريم أحمد
- ٦٧ - الأصول التاريخية لمعاشى السلام العربية الاسرائيلية
د. د. عبد العظيم رمضان

- ٦٨ - الحروب الصليبية ج ٣
ترجمة وتحقيق : د. حسن حبشي
- ٦٩ - نبوة موسى ودورها في الحياة
د. محمد أبو الأسعاد
- ٧٠ - أصل النملة
د. حسن حبشي
- ٧١ - مذكرات اللورد كليرين
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد هبر
- ٧٢ - رؤية الرحلة المبشرين للأحوال المالية والاقتصادية
لمصر في العصر القاطي (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ -
١٧١ م)
د. أمينة محمد امام الشوبجي
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة
د. رؤف عباس حطت
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية
د. سمير يحيى الجبال
-

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٤/٩٦٣٦

ISBN — 977 — 01 — 4166 — 6

وها هو هذا الكتاب بين يدي القارئ الكريم كتاب جديد عن أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول ألفه أستاذ جامعي متخصص هو الدكتور سلام شافعي محمود، يتناول تاريخ التصارى واليهود في مصر في عصر لعبوا فيه دوراً هاماً في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وهو العصر الفاطمي الأول الذي امتد نحو قرن من الزمان (٣٥٨-٤٤٧ هـ / ٩٦٩-١٠٥٥م) وقد تتبع هذا الكتاب الهام دور هذه الطبقة من أهل الذمة في الوظائف العامة والحياة العامة، فتناول أداؤهم الوظيفي، واحتفالاتهم، وكنائسهم وأديرتهم ومعابدهم ودورهم في النشاط الزراعي والصناعي، وحياتهم في القرى والمدن المصرية، ولغتهم القبطية ولهجاتها، وأسطورة تنصر المعز لدين الله الفاطمي. كما تناول علاقات الدولة الفاطمية بالدولة المسيحية وأثرها على أهل الذمة، والسفارات التي يتولى رئاستها كبار رجال الدولة من أهل الذمة. وأقرد فصلاً لعلاقات الدولة الفاطمية ببلاد النوبة، والصلة بين الكنيسة القبطية في مصر والكنيسة النوبية، وأخذ الكتاب بفصل عن العلاقة بين مصر وبلاد الحبشة وبين الكنيسة القبطية وكنيسة الحبشة. ومدى تأييد موقف الخلفاء الفاطميين من الأقباط إيجاباً وسلباً.

